

المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس - السويسي
الرباط

سلسلة ترجمات

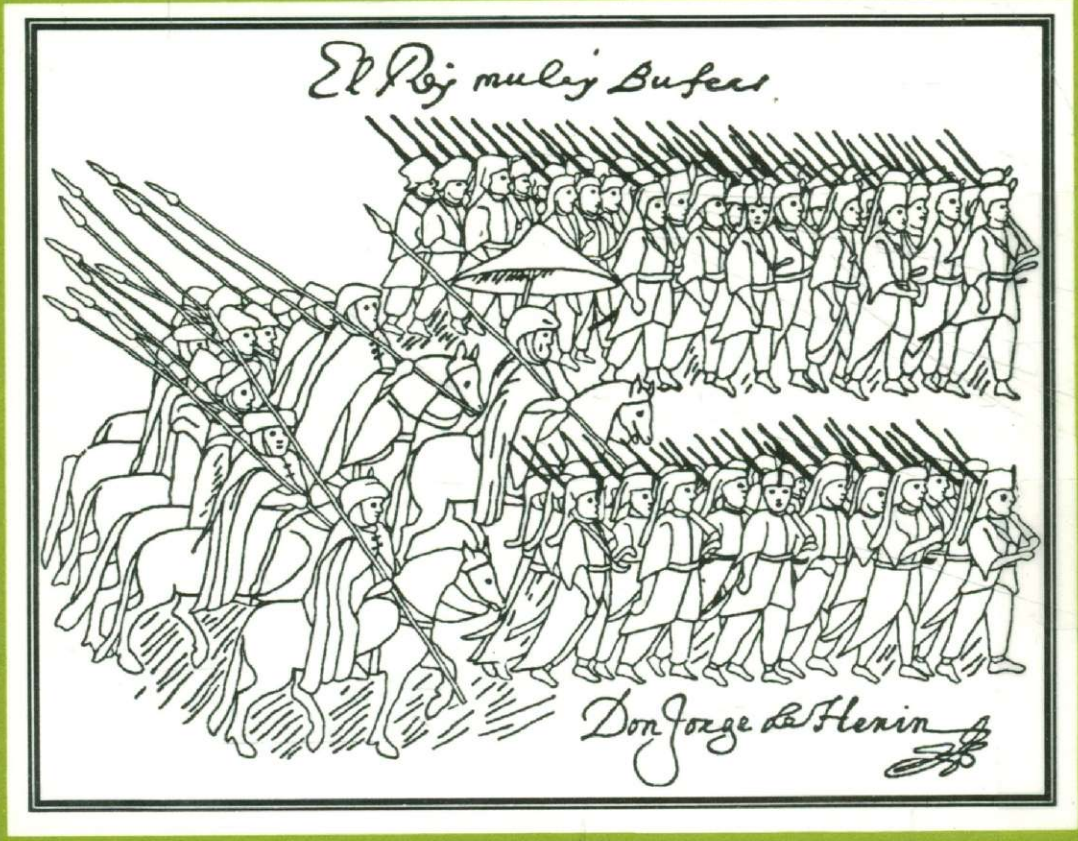
وصف الممالك المغربية

(1603 - 1613)

مذكرة خورخي دي هنين

ترجمة : عبد الواحد أكمير

تقديم وتعليق : توركواتو بيريس دي كوثمان



منشورات معهد الدراسات الإفريقية - 1997

وصف الممالك المغربية

(1613 ـ 1603)



المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس ـ السويسي
بالرباط

سلسلة ترجمات

وصف الممالك المغربية

(1603 ـ 1613)

مذكرات خورخي دي هنين

ترجمة عبدالواحد أكمير
مقدمة نقدية وتحقيق توركواتو بيريس دي گوثمان

1997

منشورات معهد الدراسات الإفريقية

عنوان الكتاب : وصف الممالك المغربية
(1603 ـ 1613)

المؤلف : خورخي دي هنين
الترجمة : عبدالواحد أكمير
التحقيق : توركواتو بيريس دي گوثمان
الناشر : معهد الدراسات الافريقية
الغلاف : السلطان مولاي أبو فارس مع جيشه، بريشة المؤلف
سلسلة : ترجمات

التصفيف : مختبر الاعلاميات لمعهد الدراسات الافريقية (عائشة نايت بنموس ـ سعيدة بلمقدم)
السحب : مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء
الطبعة الأولى : ديسمبر 1997
الإيداع القانوني : 97 / 815
ردمك : 8 ـ 011 ـ 37 ـ 9981

تقديم

من حسن حظ تاريخ المغرب السعدي أن يضع الأستاذ دي كوثمان يده في المكتبة الوطنية بمدريد على هذا النص المهم الذي ظل مجهولا والذي ينشره معهد الدراسات الإفريقية اليوم كثمرة عمل مشترك بين الأستاذ دي كوثمان الذي حققه وقدم له وبين الأستاذ عبد الواحد أكمير الذي وفق بعد جهد مشكور في ترجمته بالرغم مما في هذه الترجمة من صعوبات.

والنص إضاءة من الخارج مسلطة على وقائع المغرب خلال عشر سنوات موالية لموت السلطان أحمد المنصور 1603م، يسجل مشاهدات أوربي يصف بشكل بارد شرس مسلسل خراب بسبب نزاعات بين خلفاء المنصور.

جاء مؤلف النص ليسهم في فك الأسرى لحساب مؤسسات دينية، ولكنه ما لبث أن نمّى في خياله وصف مشروع إيبيري لغزو المغرب حسب أنه يمكن أن ينال موافقة البلاط الإسباني في عهد فيليب الثالث، وكان يحلم بأن يتخذ هذا المشروع مرقاة للوصول إلى مجد كان يحلم به.

ومن حسن الحظ أن نوازع المغامرة باقتحام المغرب كانت ماتزال تؤرقها مخلفات معركة وادي المخازن في نفوس الإيبيرية، فضاعت مساعي هذا الكاتب الجاسوس الوصولي، ولم تضع مذكراته بالرغم من كونها ظلت تتنقل في نسخة واحدة بين المكتبات، لنقرأها اليوم ونتفحص ما فيها من المعلومات ونرى ما يمكن أن يزيد معلوماتنا عن ذلك العصر، ونميز منها ماهو من قبيل النظر الأجنبي البعيد عن حرفة التاريخ.

وهذا النشر يوطد التعاون بين الباحثين الإسبانيين المهتمين بالدراسات الإفريقية وبين الباحثين في معهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس، في سبيل إغناء المعرفة حول ماضي الملابسات المشتركة.

أحمد التوفيق

مقدمة نقدية

إن الدراسة التي نقوم بتقديمها والتي أطلقنا عليها اسم مذكرات خورخي دي هنين تظهر اليوم مطبوعة لأول مرة، وهي في الأصل عبارة عن مخطوط مؤلف من 350 صفحة.

وبالنظر إلى وفرة المعلومات التي يتضمنها، يمكن القول إن هذا المخطوط يعتبر شيئا لاغنى عنه لفهم واحد من أحلك العقود في تاريخ المغرب؛ ذلك الذي يمتد بين 1603 و1613.

إن خورخى دي هنين يقدم لنا من خلال مذكراته وصفا حيا لمسلسل الخراب الذي عرفه المغرب في المجالات السياسية والاقتصادية والإدارية والعسكرية والتقنية بعد أحمد المنصور.

* *مخطوط ظل مجهولا:*

بعد الاطلاع على المخطوط وقراءته، بدا لنا نوع من الاستغراب مرده غياب أي ذكر لهذا العمل في المصادر والمراجع التاريخية التي تتحدث عن المرحلة السعدية.

وعلى الرغم من أنه قد يتبادر إلى الذهن وجود نوع من التجاهل للمذكرات من طرف المؤرخين المغاربيين وذلك بسبب الشراسة والبرودة المبالغ فيهما واللتين يتناول بهما الأحداث التي مزقت المجتمع المغربي وقضت على الامبراطورية السعدية، فإننا نعتقد أن هذا ليس بالسبب الحقيقي، وإنما مرد ذلك، ـ وكما كان الشأن بالنسبة للمؤرخ المجهول ـ هو

عدم معرفة المؤرخين المغاربيين بوجود هذا المخطوط. ينطبق هذا كذلك على المؤرخين الإسبان، ذلك أنه وعلى الرغم من كون دي هنين قد كتب مذكراته بالإسبانية، فإنه وإلى وقت قريب، لم يكن يُعرف شيء عنها بإسبانيا.

ومما لاشك فيه أن انتقال النسخة الوحيدة ـ التي عثر عليها لحد الآن ـ من هذه المذكرات من خزانة إلى أخرى طوال القرون الفارطة ساهم في بقائها ضمن المجهول. وهكذا وبعد اختفاء المخطوط من الأرشيفات الملكية الإسبانية، نجده يظهر في الخزانة الخاصة لأحد البرونات الانجليز حيث بقي قابعا بها لمدة طويلة إلى أن اشتراه *باسكوال گيانگوس* *Pascual Gayangos*. وقد أعيد من جديد إلى إسبانيا بعد تسليم المجموعة العلمية لهذا الأخير إلى الخزانة الوطنية بمدريد، عند ذلك فقط أصبح بإمكان العموم الاطلاع عليه.

هناك عوامل أخرى قد تكون وقفت وراء إهمال المخطوط من طرف المؤرخين الاسبان، منها كونه يصنف ضمن ما يعرف بالمذكرات الأدبية الادارية، هذا النوع من المذكرات في نظر المؤرخين لا يتصف في غالب الأحيان بأية مصداقية علمية، ذلك لأنه كان يكتب عادة خلال عهد الملكية المطلقة من طرف بعض الوصوليين.

كما أن شخصية خورخي دي هنين الذي اعتبر في إسبانيا بمثابة رجل مشكوك فيه، عاش لسنوات طوال في ديار *"الكفار"*، ولا يتردد في العمل مع كل من يدفع له مقابلا ؛ وهذا الاعتبار أسهم بدوره في التشكيك في مصداقية ما يكتبه.

هناك عامل آخر ويتمثل في عدم تمكنه بما فيه الكفاية من اللغة الإسبانية، مما يجعل كتاباته مستعصية الفهم وفي نفس الوقت محط استهزاء من طرف مثقفي البلاط.

كل هذه العوامل تفرض علينا التعمق في قراءة المذكرات والتعرف على صاحبها ونشاطاته، حتى يمكننا معرفة مدى مصداقية هذا العمل.

التعريف بالمؤلف

* دون خورخي دي هنين ذلك الشخص الغامض :

باستثناء تعليق مقتضب كتبه شخص مجهول عن مشاركة خورخي دي هنين في سفارة بعثها التاج الإسباني إلى انجلترا عام 1621 للتفاوض في شأن أمور تهم الدانمارك، فإن كل ما نعرفه عن خورخي دي هنين هو من خلال كتاباته.

وإذا حاولنا الاقتراب من شخصية خورخي دي هنين، وجدنا أن أهم ما يميزها هي تلك المواظبة والإلحاح في الحصول على ما تسعى إليه. فالكاتب مثلا وبالرغم من تواضع إمكانياته المادية أثناء إقامته بإسبانيا، نجده وخلال ثمان سنوات، ليس له من شغل غير تتبع الملك في تنقلاته محاولا إيجاد الفرصة التي تمكنه من إقناعه بما يتوفر عليه من كفاءة وقدرات.

بالنسبة للكتابات التي تركها خورخي دي هنين، فإن كل ما تم اكتشافه إلى الآن هو ثلاثة أعمال توجد أصولها بالخزانة الوطنية بمدريد، وفيما يلي نوردها حسب ترتيبها الكرونولوجي:

1 ـ مخطوط *"وصف الممالك المغربية"* ، كتبه عام 1614.

2 ـ كتاب *"الشروط والنظم التي يجب أن تتوفر في الاقتصاد الكنائسي للملكية الإسبانية حتى يكون متقنا"* ، كتبه عام 1620، ويتألف من 49 صفحة، هذا العمل ـ وبخلاف ما قد يوحي به العنوان ـ يكاد يكون خاليا من كل أهمية.

3 ـ مخطوط يعود تاريخه إلى 1627، ويتناول الصفات التي ينبغي أن يتميز بها الشخص الذي يجب أن يقوم بسفارة إلى بولونيا قصد تمثيل صاحب الجلالة على أحسن وجه.

إن هذه الأعمال الثلاثة تتضمن معلومات بيوغرافية مهمة تسمح لنا باعطاء فكرة واضحة عن حياة خورخي دي هنين.

* من فلاندرا إلى مالقا (سنوات في بلاد الإسلام) :

اعتمادا على ما كتبه دي هنين، يتبين لنا أنه من أصل فلاندري، غير أننا لا نعرف بالضبط تاريخ ومكان ولادته، وإن كان هناك احتمال أنه ولد ببلدة هنين التابعة حاليا لفرنسا، والتي من غير المستبعد أن تكون قد شكلت في عهد خورخي دي هنين جزءا من الأراضي المنخفضة.

ومما لا شك فيه أن ارتباط هذه البلدة بإسبانيا كان وثيقا جدا خلال القرن السابع عشر، ولا أدل على ذلك من تعيين الدوق *الإسكندر دي بورنوفيل* *Alexander de Bournnoville* كونت منطقة هنين نائبا للملك في كاطالونيا.

وقد غادر دون خورخي فلاندرا خلال النصف الثاني من 1597 بحثا عن الثروة، وبعد التجوال في عدة بلدان أروبية انتهى به المطاف إلى تركيا. وقد سمح له هذا التنقل المستمر بإتقان اللغات التالية : الإيطالية والفرنسية والألمانية والأنجليزية إضافة إلى الفلامانية لغته الأصلية، هذا بجانب تمكنه من لغات أخرى كما يؤكد ذلك في مذكراته.

مكث دي هنين في تركيا أربع سنوات كان يشتغل خلالها فكاكا للأسرى المسيحيين. وقد مكنه ذلك من اكتشاف ما يملك من قدرات للعمل في البلاطات، وهو شيء سيستفيد منه كثيرا خلال المرحلة اللاحقة التي قضاها بالمغرب. وقد سمح له تجواله وتنقله المستمر بالتعرف على الكثير من الشخصيات البارزة والتي بقي على اتصال مستمر بها عن طريق المراسلات بعد عودته إلى إسبانيا، هذه المراسلات مكنته من التعرف على أخبار البلدان التي كانت ترد عليه منها.

إننا نجهل سبب انتقاله إلى المغرب، وكذا السنة التي وصل فيها بالتحديد، وإن كنا نستنتج من المذكرة التي بعث بها إلى فيليب الثالث أن ذلك تم عام 1604؛ لأنه يشير فيها للمدة التي قضاها بهذا البلد وهي ثمان سنوات، حيث غادره عام 1612، غير أن المعلومات التي يوردها عن المغرب لا تتصف بالدقة والتفصيل إلا ابتداء من 1605، في حين أن الأحداث التي يذكرها عن المرحلة السابقة تتميز بالإيجاز والتلخيص مما يجعلنا نظن أنه سمعها من شخص آخر.

وقد عمل خورخي دي هنين بمراكش كذلك فكاكا للأسرى، وعندما فقد مولاي أبو فارس العرش عام 1606 كان هو مدينا له ب 64.000 دوقة، افتدى بها بعض أسرى المسيحيين.

وأمام افتقاده للمال الذي يمكنه من دفع الديون المترتبة عليه، أعطاه الملك الجديد مولاي زيدان فرصة جمع هذه الأموال وذلك بتشغيله معه.

ومن المحتمل جدا أن يكون خورخي دي هنين قد استدعي لهذا الغرض من طرف مولاي زيدان عام 1608 بمناسبة وجود سفارة هولندية بمراكش، وذلك على اعتبار أنه سيكون مفيدا جدا له، بسبب زيارته للعديد من البلاد الإسلامية بالإضافة إلى تمكنه من الكثير من اللغات الأوروبية.

بعد مدة قصيرة في عمله الجديد، تمكن دي هنين من كسب ثقة وحماية مولاي زيدان الذي جعله من مقربيه. وقد حصل على أموال كثيرة، حيث إنه وبعد أن دفع كل الديون المترتبة عليه، بقي معه حوالي 160.000 دوقة.

غير أن عدم الاستقرار السياسي الذي كان يعيشه المغرب آنذاك سرعان ما أدى إلى فقدان دي هنين لهذه الثروة، وكان على وشك هلاك حياته كذلك. ففي 1612 هزم الثائر أبو محلي مولاي زيدان، وقد تمكن دي هنين من النجاة بعد فراره من المعركة، غير أنه سيلقى عليه القبض بمراكش حيث سيسجن. وبعد مفاوضات شاقة وطويلة مع أبي محلي رخص له بالإبحار نحو إسبانيا شريطة تسليم كل أمواله.

وقبل مغادرته المغرب كانت قد بقيت معه 1963 دوقة و7 ريالات، لكن أمام منعه من إخراج أي فلس من المغرب، قرر استثمار ما بقي معه في فدية بعض الأسرى المسيحيين على أساس استرجاع هذا المال عند الوصول إلى إسبانيا.

وبعد أن أرغم أكثر من مرة على تأجيل السفر في اللحظة الأخيرة، سمح له بالإبحار في نهاية نوفمبر من سنة 1612. وعند وصوله إلى مالقا قام بتسليم الأسرى إلى الجهات المسؤولة، واتجه مباشرة إلى البلاط الملكي، معتبرا أن ما لديه من معلومات مهمة عن المغرب سيمكنه من استعادة أمواله التي فقدها.

* *العراقيل التي اعترضت دي هنين بالبلاط الملكي :*

وسوف يسعى عند وصوله إلى مدريد للقاء الملك فيليب الثالث، لكنه سيصطدم بالكثير من العراقيل البيروقراطية، وكذا بالدسائس التي تحاك في البلاط، وقد انتظر أكثر من ثمانية أشهر قبل أن يحظى بالاستقبال الملكي، ولم يمنح خلال هذا الاستقبال إلا اليسير من الوقت، اضطر معه إلى عرض مشاريعه بشكل سطحي ومختصر.

لقد كان المسؤولون في البلاط الملكي يماطلون دي هنين بشأن المشروع الذي اقترحه على الملك. لكنه نجح في الأخير في لفت انتباه دوق دي *ليرما* *De Lerma* الذي أبدى بعض الاهتمام بالموضوع، ومنحه رسالة توصية طلب منه تسليمها مع تقرير مفصل حول ما يقترحه من مشاريع عن غزو المغرب إلى مجلس الدولة.

وبعد اطلاع المجلس على التقرير، لقي معارضة الماركيس دي *فيافرانكا* *De Villafranca* الذي كان ضد القيام بأية مغامرة حربية جديدة. رغم ذلك لم يبرد حماس دي هنين الذي سلم نسخة من التقرير إلى المجلس الحربي، وكان هذا المجلس قد اعتمد في تحصين المعمورة على تقرير سابق

قدمه دي هنين. غير أن سكرتير المجلس وإن اقتنع بتحصين المعمورة فإنه لم يكن كذلك فيما يتعلق بغزو المغرب، لكنه تفاديا للمواجهة مع من يقومون بحماية دي هنين من أصحاب النفوذ، عمل على تجميد الموضوع لمدة أربعة أشهر، لم يقدم له فيها أي جواب. وأمام خيبة الأمل هاته قرر دي هنين كتابة مذكرات مؤلفة من 350 صفحة بغية تسليمها مباشرة للملك فيليب الثالث.

ومن المتعاطفين مع دي هنين من ذوي النفوذ والذين اطلعوا على المذكرة، هناك دوق دي *ليرما* *De Lerma* الذي نصحه بتوسيع الفصل المخصص للكيفية التي يمكن بها الحفاظ على مملكة المغرب بعد غزوها، وكذا الدوق الأميري الذي منحه رسائل توصية إلى القس الملكي وسكرتير الملك ليتوسطا له لدى فليب الثالث بغية استقباله. وبفضل الدعم المادي والمعنوي لمن يقومون بحمايته اتجه إلى بلد الوليد حيث كان يقيم فليب الثالث، وقد حظي باستقبال هذا الأخير له وسلمه المذكرات، وإن ذلك الاستقبال كان دون شك من أسعد لحظات حياة خورخي دي هنين، لكنه في الحقيقة لم يجن من ورائه فائدة كبرى، حيث إن الملك أحال المذكرات على مجلس الدولة للاطلاع عليها.

وقد بقي دي هنين يتبع الموكب الملكي في تنقلاته لمدة من الزمن، بغية الحصول على جواب في الموضوع، وهكذا من *إيرون* *Irún* إلى *بورگوس* *Burgos* إلى جهات أخرى، وفي النهاية إلى مدريد حيث أخبر عام 1615 من طرف سكرتير مجلس الدولة *"أنه سوف يتم الحسم في أمر مذكراته في وقت ما"*، وهو ما يعني في اللغة الإدارية لذلك العصر بأن الموضوع أجل لأجل غير مسمى.

وسيصاب دي هنين خلال عام 1616 بمرض التيفوس الذي سيلزمه الفراش لمدة طويلة، حيث قضى كل تلك السنة تقريبا بين المرض والنقاهة. ويظهر أنه آنذاك فقط تخلى عن مساعيه الرامية إلى اقناع البلاط الملكي بغزو المغرب.

* العراقيل التي لقيها دي هنين في إعادة تحريك الملف بالبلاط الملكي :

بعد تعيين الماركيس دي ڤيافرانكا *De Villafranca* وهو المعارض الرئيسي لمشروع دي هنين في منصب بإيطاليا، اعتقد هذا الأخير أن ابتعاد الماركيس عن مسرح الأحداث بإسبانيا قد يكون فرصة سانحة لتقديم مشاريعه مرة أخرى. لكنه في نهاية المطاف لم ينجح في تحقيق أي تقدم، حيث بقيت الأمور على حالها، وبذلك أصبح عند دي هنين شبه اقتناع بفشل كل مشاريعه المتعلقة بغزو المغرب. وقد كان هذا دافعا له إلى توجيه اهتمامه إلى نشاط آخر بدأ يهتم به منذ 1615 ويتمثل في كتابة التقارير حول السياسة الدولية. في هذا الإطار كتب ما لا يقل عن أربعة وعشرين تقريرا. ومن المواضيع التي تناولتها هذه التقارير نذكر وضعية الدانوب ونشاط الانجليز بأمريكا ونشاط الهولنديين بالفليبين والسياسة الخارجية للنمسا والدانمارك وبولونيا. هذه التقارير كانت توجه إلى كبار الشخصيات في البلاد مثل الملك فيليب الثالث والدوق الأميري وولي العهد وكبير قساوسة مدينة ليون.

خلال هذه الفترة، كان دي هنين لازال يكتب بلغة إسبانية غير سليمة وبالرغم من أنه استطاع أن يصحح الأخطاء اللغوية التي كانت توجد في المذكرات، فقد كان عاجزا عن أن يكتب بنفس اللغة المتداولة بين المثقفين آنذاك، وهو ما يعبر عنه بما يلي: *"إنني أفتقر إلى المصطلحات الاسكولائية التي تمكنني من التحدث عن شيء دون استعمال العبارات بوضوح شأن دكاترة البلاط"* .

بالرغم من أن كتاباته كانت تزعج الكثير من رجال البلاط والذين كانوا يعتبرونه بمثابة ذبابة مقلقة، فإن هذه الكتابات نالت إعجاب فئة أخرى من أصحاب النفوذ والذين عملوا على حمايته، من بينهم *دون بلطسار دي ثونيكا* *Don Baltasar de* Zúñiga الذي كان يقدم له ومنذ 1619 الدعم المالي اللازم.

لكن يظهر أن الأشخاص الذين كان يزعجهم وجوده بالبلاط سعوا إلى إبعاده بالترغيب، وهكذا اقترحوا عليه رتبة ضابط في الجيش مع أجرة شهرية تقدر ب 24 اسكودوس، قد تصل إلى 30 اسكودوس في حالة قبوله الرحيل إلى نابولي. وبالرغم من أن هذا القدر من المال كان يسمح لأي شخص بالعيش حياة رغيدة فإنه لم يكن ليقنع به شخص سبق له وأن امتلك الآلاف من الاسكودوس عندما كان يعمل لحساب مولاي زيدان.

ولقد كانت مصاريف دي هنين خلال إقامته بإسبانيا مرتفعة جدا وذلك بسبب تتبعه لتنقلات الملك، فخلال ثمان سنوات لم يتوقف عن ذلك، وكان معدل ما ينفقه سنويا حسب اعترافه هو 1200 دوقة، يحصل عليها دون شك من طرف من يقومون بحمايته.

وكان يطيب له أن يقارن تقاريره عن السياسة الدولية، بتلك التي يقدمها الجواسيس، ويوضح كيف أن الأخبار والإنذارات التي يقدمها هؤلاء خاطئة جدا، لأنه تنقصهم الشجاعة والتبصر والدراية التي تسمح لهم بفهم كل ما يدور حولهم.

وحسب دي هنين فإن الخبر الجيد يستند فيه إلى شيئين: معرفة الأسباب التي تحرك العالم، والاعتماد على شبكة من المراسلين الشرفاء الذين يتصفون بالثقة التامة، إضافة إلى تميزهم بالرشد والتبصر. وقد وضح فيما كتبه كيف أن المعلومات التي يتلقاها من الأشخاص الذين تعرف عليهم في جهات مختلفة من العالم كانت تكلفه الكثير.

وإن تحاليله عن السياسة الدولية أثارت انتقادات أعدائه الذين وصفوه بالمتحايل، وكان ذلك يزعجه كثيرا لدرجة أنه طلب من الملك: *"أن لا تسمحوا بأن انعت بالمتحايل، لأنني اعتمد على حجج واضحة وأدلة حقيقية، وأزكي أقوالي بقوانين إلهية ووضعية"*.

*** استفادة دي هنين من التغيير الذي وقع بالبلاط الملكي :**

يظهر أن خورخي دي هنين وبسبب السنوات الثمان التي قضاها بالبلاط، أصبح طرفا في الصراع الدائر بين الذين يسعون إلى كسب ثقة الملك قصد تحمل مسؤولية القرار في الدولة. وهكذا نجده يستفيد من نجاح المناورة التي قام بها عام 1618 دوق *أوثيدا* *Uceda* الذي كان يدعمه كل من *ثونيگا* *Zúñiga* والكونت الدوق *دي أوليڤارس* *De Olivares* ليخلف والده في المنصب الذي كان يشغله ضمن خاصة الملك. وقد خفف هذا من حدة المشاكل النفسية التي بدأ دي هنين يعاني منها والتي يعبر عنها بما يلي: *"لقد ظهر في شخصيتي نوع من الخجل أصبح يمنعني من التعبير عن الأشياء التي أود قولها، ويظهر أن ذلك نجم عن الفتور والبرودة اللذين كنت ألاقى بهما واللذين أخمدا الكثير من اللمعان الذي كنت أتميز به"*.

وقد تحسنت وضعية دي هنين داخل البلاط مع موت فليب الثالث وتعيين نجله فليب الرابع على العرش عام 1621، ذلك لأن الملك الجديد قرب منه الكونت الدوق *دي أوليڤارس* *De Olivares* حامي دي هنين. وهكذا نجد هذا الأخير يرسله في مهمة إلى انجلترا عامي 1621 ـ 1622 ليناقش أمورا متعلقة بالدانمارك.

وتعرف في لندن على *جورج أوسولينسكي* *Jorge Osolinski* سفير فوق العادة لبولونيا بانجلترا، واقنعه بأهمية إرسال سفارة بولونية إلى إسبانيا، وقد تم ذلك عام 1623. وبالنظر إلى شخصية دي هنين فإنه لا يستبعد أن يكون قد ساهم في قيام علاقة زواج ـ فشلت فيما بعد ـ بين ولي عهد انجلترا الأمير كارلوس والأميرة الإسبانية ماريا.

وفي عام 1623 نجده يقترح على الكونت الدوق *دي أوليڤارس* *De Olivares* بعث سفارة إلى ألمانيا، وقد أرسلت بالفعل لكنه لم يضم إليها، وحسب تصريحه فإن هذه السفارة منيت بالفشل. بعد ذلك سعى إلى بعث

سفارة إلى بولونيا عام 1625، وكان يعتبر متخصصا في أمور هذه البلاد، واقترح أن يعين دوق *أوثيدا* *Uceda* سفيرا، لكن تم تعيين شخص آخر رفض أن يضم دي هنين إلى البعثة التي رافقته.

بالنسبة للمرحلة اللاحقة من حياة هذه الشخصية المثيرة، فإننا لا نجد إلا ذكرا واحدا لها وذلك في ورقة كتبها بنفسه في فبراير 1627، وهي لا تتضمن أي جديد. بعد ذلك لا نعثر على أي أثر لهذا الرجل *"الذي سعى دائما إلى أن يوجد بالمناطق التي تتحكم في مصير العالم"*.

التعريف بالمؤلف

* المصير الذي عرفه المخطوط :

إن الاهداء الموجود بهذا المخطوط والموجه إلى الملك فيليب الثالث، يحمل تاريخ 15 دجنبر 1614، وهو ما يوضح أن دي هنين كتب مذكراته بعد سنتين من مجيئه إلى إسبانيا قادما من آسفي.

وبعد أن سلمها إلى فيليب الثالث، وضعت المذكرات بالأرشيفات الملكية حيث بقيت مهملة لمدة يصعب تحديدها، إلى أن نقلت إلى بريطانيا. وهذا ما نستشفه من تعليق كتب على الغلاف ينسب ملكيتها إلى البارون *بوريل دي كنيب* *Burrell de Knepp* . بعد ذلك نجدها في خزانة الدكتور *ويلسلي* *Wellesley* بأكسفورد قبل أن تضم إلى المجموعة التي يمتلكها *باسكوال گيانگوس* *Pascual Gayangos*. ونجد كذلك بالغلاف تعليقا كتب بفرنسية ركيكة يفهم منه أنه تم شراؤها بمدريد في 22 دجنبر 1859 بريال ونصف.

وبعد هذا النقل المستمر للمخطوط من خزانة خاصة إلى أخرى، انتهى به المطاف إلى الخزانة الوطنية بمدريد، حيث سلم مع مجموعة گيانگوس *Gayangos*. عند ذلك فقط أصبح تحت تصرف الباحثين، وهو يحمل حاليا رقم Mss 17 645.

* خط المذكرات ومضمونها :

إن أول صعوبة تعترض القارئ تتمثل في الطريقة الغريبة التي قسم بها خورخي دي هنين هذا العمل. فإذا كان الجزءان الأول والثاني يتميزان ببعض التقسيم حسب الفصول، فإن هذا التقسيم نجده يتلاشى في الجزأين

الأخيرين من الدراسة، حيث يقتصر فيهما على وضع بعض العناوين الجانبية وبعض العناوين الصغيرة في صدر الصفحة، والتي لا تعبر أحيانا عما يأتي بعدها.

وإذا اعتمدنا على الكتاب الذي ألفه دي هنين عام 1620 عن الاقتصاد الكنائسي للملكية الاسبانية، والذي أشار فيه إلى المذكرة التي نحن بصدد تقديمها، يتبين لنا أنه قسمها إلى إهداء وأربعة أجزاء.

- *الجزء الأول* : يضم الفصل الأول ويتحدث عن الطبيعة الجغرافية للممالك المغربية وطريقة عيش السكان وأهم موارد البلاد.

- *الجزء الثاني* : يضم الفصول الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس، ويتناول الأحداث السياسية التي عرفها المغرب والانحطاط الكبير الذي وصل إليه بسبب الحروب الأهلية بين أبناء أحمد المنصور.

- *الجزء الثالث* : يتحدث بشكل مقتضب لكنه واضح عن حكومات ومداخيل الممالك المغربية. في هذا الجزء نجده يتخلى عن التقسيم الذي اتبعه في الجزأين الأولين والمتمثل في وضع فصول قائمة بذاتها، مما أدى إلى خلق تداخل بين المواضيع.

- *الجزء الرابع والأخير* : وهو الذي يكون فعلا المذكرات، على اعتبار أن الأجزاء السابقة من وجهة نظر دي هنين تتضمن أخبارا يوردها بهدف تدعيم الاقتراحات التي يقدمها لفليب الثالث ليقوم بغزو المغرب.

المخطوط يضم كذلك رسمين من الحجم الكبير، الأول يصور المعركة التي دارت بين مولاي أبي فارس وابن أخيه مولاي عبد الله، والثاني يعطي فكرة عن الكيفية التي يضع بها المغاربة مخيمهم، كما يوضح الطريقة التي يمكن بها مراقبة منابع المياه عند القيام بغزو المغرب.

وقد قمنا باحترام المنهجية وكذا التقسيم الذي وضعه الكاتب، حيث لم نغير أي شيء باستثناء بعض الجزئيات الصغيرة جدا، مثلا في الجزء الرابع

والذي كتبه دي هنين بشكل تلقائي ودون عناوين، قمنا بتقسيمه إلى ثلاثة أجزاء، وذلك على اعتبار الاختلاف الواضح في المواضيع المتناولة.

* لغة و أسلوب المذكرات :

كتبت المذكرات بأسلوب غير سليم، مليء بالأخطاء الاملائية واللغوية والنحوية، وهكذا لا نجد أي أثر للحركات "acentos"، كما أن وضع النقاط على الحروف لا يستند إلى أية قاعدة. ثم إننا نجد في هذا الأسلوب تأثيرا واضحا للغات أخرى مثل الفرنسية والفلامانية. هذا إضافة إلى عدم تمييزه من الناحية النحوية بين بعض الأفعال مثل "ser" (كائنة)، "Estar" (كان)، "Haber" (وجد) "Tener" (امتلك)، فنجده يستعمل في كثير من الحالات هذا الفعل محل ذاك. كما أننا نجد أخطاء أخرى تتكرر سواء تعلق الأمر بتصريف الأفعال أو استعمال حروف الجر زد على ذلك أنه يجعل دائما الفاعل يرافق الفعل حتى في الحالات التي لا يستعمل فيها هذا في الإسبانية.

بالنسبة للغة، يتبين لنا من عدد الكلمات التي تتكرر باستمرار أن معرفته بالإسبانية محدودة، وهكذا نجده لا يستعمل أبدا فعل "ir" (ذهب)، الذي يستعمل بدله فعل "venir" (جاء)، ثم فعل "Entender" (فهم)، يستعمله في حالات متعددة وبمعان تختلف من جملة لأخرى. وفي الأخير هناك بعض الكلمات التي أدى عدم استعمالها في محلها إلى المس ببنية الجملة ككل، مثل كلمة "La gente" (الناس) والتي هي في الإسبانية مفرد مؤنث في حين أنه يستعملها كجمع مذكر.

* وضوح العبارة في المذكرات :

قد يتبادر إلى الذهن أن كثرة الأخطاء والأسلوب النادر الذي يستعمله دي هنين يجعل المذكرات غير مقروءة، لكن العكس هو الصحيح، ذلك لأن دي هنين ونتيجة لافتقاره لرصيد لغوي واسع كان يقوم بتكرير العبارات أكثر من مرة وبكلمات بسيطة تسهل فهم المعنى. ويستثنى من هذا الوضوح في الأسلوب، الفصل الأخير الذي يعرض فيه اقتراحاته على فيليب الثالث ويتوسل إليه لينظر في أمره، فهو في هذا الفصل يحاول تقليد الأسلوب الاسكولائي الذي كان يستعمل آنذاك في البلاطات والذي يسمح في نظره بكتابة شيء في حين أن المقصود هو شيء آخر، ففي هذا الفصل نلاحظ أن دي هنين رغبة منه في تعزيز أهمية مذكراته، يحاول إضفاء الطابع الأدبي على بعض الفقرات، لكن الذي يقع فيه هو نوع من الثرثرة التافهة غير المفهومة. وفي الأخير فإن الخط المستعمل في المذكرات واضح جدا، مما يجعل قراءتها أمرا يسيرا.

* الانطباع العام :

لفهم القيمة التاريخية والاثنوغرافية لهذه المذكرات يجب أن توضع في الحسبان الأسباب الحقيقية التي تقف وراء كتابتها، والمتمثلة في حث فيليب الثالث على القيام بغزو المغرب. لذا فليس من المستغرب لتحقيق ذلك أن يتناول دي هنين وبنوع من المبالغة بعض الأحداث التي عاشها بالمغرب، من هذه الأحداث الطريقة التي يصف بها الكيفية التي يفر بها عادة أحد طرفي المعركة، مما يؤدي إلى إبادته عن آخره بعد مطاردته من طرف عدوه، أو وصفه للأثر النفسي الفظيع الذي يتركه استعمال سلاح المدفعية لدى المغاربة، أو غياب أية كفاءة حربية عند الجنود المغاربة غير المحترفين الذين يضخم كثيرا من ضعف إيمانهم وأزمة ضميرهم. غير أنه وباستثناء هذه الجزئيات، فإن الجانب التاريخي من المذكرات يتصف بكثير

من المصداقية، ومما يزكي ذلك توافق الأحداث التي يوردها دي هنين مع ما جاء في مصادر أخرى أكثر شمولية مثل نزهة الحادي.

نفس الشيء ينطبق على المعلومات الاثنوغرافية وكذا الاقتصادية التي تظهر في المخطوط والتي إذا استثنينا منها بعض الأرقام التي يقدمها والتي قد تشوبها بعض المبالغة، فإن ما عدا ذلك يمكن قبوله دون مجادلة.

إن الاستنتاج العام الذي نخرج به هو أننا أمام مخطوط على قدر كبير من الأهمية، وذلك نظرا لما يتضمنه من معلومات عامة وجزئيات عن المرحلة غير المعروفة والمظلمة التي تلت موت أحمد المنصور.

وهكذا فمن وجهة نظر إنسانية، نجد أن المخطوط ينجح في تحريك المشاعر بسبب الصورة المأساوية التي يقدمها عن الانهيار التدريجي لامبراطورية عظيمة عرفت تمزقا فظيعا بسبب الصراعات الأخوية التي حرص فيها كل طرف على إبادة الموارد البشرية والإمكانيات الاقتصادية لأعدائه، مما نجم عنه تحطيم شبه تام للبنى الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية للبلاد، والتي كان على الأسرة العلوية عند توليها أمر المغرب إعادة بنائها من الأساس.

مقدمة المؤلف

مولاي،

إن كوني أحد رعايا جلالتكم، وخادمكم في تنقلاتي الكثيرة بجهات مختلفة من العالم وأساسا مملكة المغرب، يعتبر مصدرا لسعادتي، تلك السعادة التي تضاعفت عندما نلت شرف الاستقبال الملكي.

إن التشجيع الكبير الذي أحظى به من طرفكم - وهي نعمة من الله علي - جعلني أتمسك بما اقترحته عليكم في *"سان لورينثو"* *San Lorenzo* في الثاني والعشرين من يونيو 1613 بشأن القيام بغزو مملكة المغرب وكيفية الاحتفاظ بها دون أن يكلف ذلك الخزينة الملكية شيئا.

وبما أن محاربة الكفار هي من مهام الملوك الكاثوليك فإن القيام بهذه الحملة هو في سبيل الله وفي سبيل المسيحية بدرجة أولى لكنه في نفس الوقت في سبيل تحقيق مجد شخصي لجلالتكم. هذان العاملان هما اللذان دفعا بي لكتابة هذه المذكرات التي أوجهها لجلالتكم، راجيا منكم كل الرجاء القيام بالاطلاع عليها لأنني متأكد من أنكم ستجدون فيها أشياء كثيرة تتماشى مع ذوقكم وتصوراتكم.

إنها تورد معلومات بشأن مملكة المغرب تهم خصوبة الأراضي الفلاحية، وعيش السكان وطبائعهم وطريقة القتال عندهم والخصاص الحاصل لديهم في الأسلحة النارية ووضعية الدمار التي عرفتها بلادهم والطغيان الكبير الذي يمارسه الملوك على الرعية. في نفس الوقت تتحدث عن ضرورة القيام بالحملة وسهولة نجاحها، ثم الأخطار المحدقة التي قد تلحق جلالتكم إذا عزفتم عن القيام بها.

إن العمل الذي أقدمه لجلالتكم اليوم هو ثمرة ما تحصل لدي من خلال تجربتي وأسفاري. وإنني أشبهه بحبة القمح بالنسبة للنملة، فتلك الحبة هي كل ما يمكنها حمله، وأنا لم أفقد الأمل أبدا في أن حبة قمحي هاته ستنمو بشكل سريع عندما توضع في تربة جلالتكم، وستتحول إلى سنبلة تضم حبات كثيرة، وتكون بمثابة سند يضفي الكثير من البريق على المسيحية.

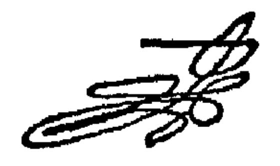
ورغم أن هذه المذكرات قد تشبه بيت العنكبوت الذي لا قيمة له على اعتبار أنه مبني من ذات العنكبوت، فإنني أؤكد لكم أنه ثمرة تجربة شخصية وتنقل مستمر بممالك عديدة عملت في بعضها لحساب الأمراء الذين يحكمونها.

وإنني إذ استسمح جلالتكم عن ضعف الأسلوب الذي أكتب به هذه المذكرات، لي اليقين بأنكم ستتفهمون سبب ذلك وهو يعود لكون الإسبانية ليست لغتي الأصلية، وأنني تعلمتها خارج إسبانيا وفي وقت كنت أتعلم عدة لغات أخرى، وإن كل ما أتمناه هو أن يشفع لي في هذه النقطة الوفاء الكبير الذي أكنه لجلالتكم.

أرجو من الله أن يحفظ جلالتكم ويوفقكم دائما لعمل ما يرضيه.

مدريد، الخامس عشر من دجنبر 1614

دون خورخي دي هنين.



الفصل الأول

موقع مملكة المغرب وطبيعة أهلها

تضم مملكة المغرب أربع عشرة ولاية تنقسم بدورها إلى ثلاث ممالك :

- مملكة مراكش وتضم كلا من حاحا ودكالة والصويرة وتادلة ومراكش.
- مملكة سوس وتضم جزولة التي تقع بها ولاية درعة، ثم ولاية سوس.
- مملكة فاس وتضم أدرار والهبط والريف والغرب وجبل الحوز وفاس.

تبدأ حدود مملكة المغرب بصخرة بادس التي نجد بعدها تطوان وسبتة والقصر الكبير وطنجة وأصيلا والعرائش والمعمورة وسلا والرباط وأنفا وفضالة وأزمور ومازاگان وآسفي وموگادور وماسة وسانتاكروث ثم رأس نون وهو آخر ما بمملكة سوس.

ويوجد بمملكة المغرب عدد من الأنهار الكبيرة، أهمها :

- نهر سوس : يقع في الغرب، وهو ينبع من جبال الأطلس الكبير ويصب في البحر، وعلى ضفافه تقع أجمل المدن المغربية. كما توجد بالمنطقة التي يمر عبرها أراض خصبة، ثم إن السواقي التي تتفرع عنه، تقوم بسقي سهول واسعة يزرع فيها قصب السكر من النوع الجيد وهو يوجد في هذه المنطقة بكميات كبيرة جدا، والملاحظ أن هذا المنتوج يشكل مصدر إغراء للتجار المسيحيين الذين يتوافدون عليها قصد اقتناء كميات منه.

- نهر تنسيفت : ينبع من جبال الأطلس المحادية لمدينة أغماي[1] التي تقع بالقرب من مراكش، وهو يمر بمنطقة دكالة وينتهي به المطاف في البحر حيث يصب بجوار آسفي، ويلتقي بعدد من الأنهار الأخرى قبل وصوله إلى المصب.

- نهر أم الربيع : يعد من الأنهار الكبيرة بهذه المنطقة وينبع من منطقة قريبة من فشتالة بالأطلس الكبير، ويمر بتامسنا إذ يلتقي بعدة أنهار فرعية أخرى قبل أن يصب في البحر قرب مدينة أزمور. مما يميز هذا النهر وجود كميات كبيرة من أسماك الشابل، حيث يرخص صيده مقابل دفع إتاوات مرتفعة، كما كان يفعل ملوك البرتغال عندما كانت مدينة أزمور تحت سيطرتهم.

- نهر أبي رقراق : يقع بمملكة فاس، وهو ينبع كذلك من جبال الأطلس الكبير وينتهي به المطاف في البحر بين الرباط وسلا والقرارة الحصباوية الموجودة في مصب هذا النهر تطرح مشاكل جمة فيما يخص مرور السفن.

- نهر بهت : هو في الأصل نهران ينبعان من جبال الأطلس ويتحولان إلى بحيرات صغيرة عند سهول أدرار.

- نهر سبو : من كبار الأنهار وأحسنها ببلاد البربر، ينبع من سلالگو بجبال الأطلس، يمر على بعد فرسخ ونصف من مدينة فاس ويصب في البحر بمنطقة المعمورة مكونا فما عريضا يسمح بدخول السفن الكبيرة. وهذا النهرصالح للملاحة حيث يمكن بواسطته الوصول إلى غاية فاس، وهو بذلك يشبه الأنهار الموجودة بفلاندرا.

- نهر لوكس : وهو من الأنهار الكبيرة، ينبع من جبل غمارة وعند مصبه في البحر يكون ميناء العرائش.

بالنسبة للسلاسل الجبلية الأطلسية فإن ما يميزها هو وجود كميات ضخمة من المعادن، خصوصا النحاس والذهب. ففي مملكة سوس نجد الكمية

(1) - ما يعرف اليوم بقبيلة سيدي رحال.

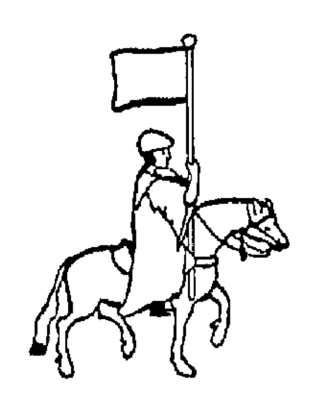
المستخرجة من معدن النحاس تكفي لسد حاجة كل هذه الممالك، وثمن هذا المعدن جد منخفض، بحيث إن ثلاث ليرات من النحاس تعادل قيمتها ريالا واحدا، لكن بسبب كسل سكان هذه البلاد وخمولهم فإنهم لا يستفيدون من هذه المعادن ذلك أنه لو كانت لهم رغبة بالعمل لاستخرجوا كميات كبيرة يمكنهم تصديرها إلى البلدان الأخرى. ومما زاد في تفاقم هذه الوضعية، الحروب الأهلية الدائرة بينهم والتي أدت إلى إتلاف الأدوات المستخدمة في استخراج هذه الثروات الطبيعية. وقد أصاب نفس الإتلاف أيضا مصانع تكرير السكر التي عرفت ازدهارا كبيرا في عهد مولاي أحمد، حيث إن مداخيلها السنوية كانت تقدر بأحد عشر مليون أوقية.[1]

فيما يتعلق بمناجم الذهب، فإنه خلال عهد مولاي أحمد قام عدد من الأفراد باستخراج بعض العينات من الذهب من السلاسل الجبلية الموجودة بين سوس ومراكش، وذلك قصد اطلاع الملك عليها، لكن هذا الأخير كان قد أصدر أمرا بقتل كل من يتجرأ على استخراج هذا المعدن، لأنه كان يتخوف من أن يعلم الملوك المجاورون بأمر هذا الذهب فيعلنون عليه الحرب. وهكذا فخلال عهده لم يجرؤ أحد على استخراج الذهب من هذه المناجم، لكن بعد وفاته قام عدد من البربر باستخراج كميات كبيرة منه وخاصة فقيه يدعى عبد الله مباركة، وهو رجل ذو جاه ونفوذ، ولم يكن يخشى الملوك، وقد أشاع بين المغاربة أنه يمارس صناعة الكيمياء. وخلاصة القول إن السلاسل الجبلية الأطلسية تحتوي على كميات كبيرة من الذهب، الذي سيتم اكتشافه في عهد مولاي زيدان عن طريق المصادفة، ذلك أن هذا الملك كان قد أقام محلته بجبال أيت وأردوز بجوار نهر أسيف نلمال وأثناء وضع الخيام قام بعض أفراد المحلة بالتوغل داخل الجبال قصد جلب كميات من الرمال لوضعها داخل خيام الملك من أجل تبريدها وتوطيء أرضها، وكان ضمن هؤلاء أحد العلوج الألمان اسمه جعفر، أخذ كمية من ذلك الرمل وقام بغسله، فوجد به تبرا، وقد أراني ذلك شخصيا، فقمت برواية ما حدث للملك الذي

(1) - قيمة الأوقية هي أحد عشر ريالا قشتاليا.

أمر بأن يذهب العلج السالف ذكره ليأتي بكمية أخرى من هذا الرمل وكذا البحث عن المكان الذي يوجد به الذهب وقد عاد بعد ذلك وبحوزته نصف خروبة[1] من التربة الرملية وكذا بعض الصخور اللينة التي اقتلعها من أعلى القشرة الأرضية، بمنطقة تقع في مرتفع عين تعرف باسم عين سيدي موسى. وقد أمر مولاي زيدان أن تتم التجربة بحضوره. وهكذا بعد أن وضعت هذه التربة في النار لمدة ثلاث ساعات، ثم أعيدت الكرة مرة ثانية، تم استخراج نصف أوقية واثني عشر قيراطا من التبر، وقد أمر الملك أن يحاط ذلك بكامل السرية. ولما سألته عن السبب الذي يدفعه لعدم الاستفادة مما تم اكتشافه، أجابني بأن الوقت غير مناسب، وأنه سيقوم بذلك عندما يستتب الأمن في مملكته، وأن ما يجب فعله الآن هو إخفاء أمر الذهب لأنه في حالة ما إذاشاع الخبر فسيؤدي ذلك إلى اندلاع حرب أخرى تضاف إلى الحروب المتعددة التي تعرفها مملكته. في نفس الوقت بين لي أن هذا الذهب يوجد في أمان، حيث يحفظه باطن الأرض، وأنه سوف يعرف كيف يستفيد من هذه الهبة التي منحها الله له عندما يتوفر على القوة الكافية التي يمكنه الاستناد إليها، وقد أضاف أن هذا القرار اتخذه انطلاقا من نصيحة كان قد تلقاها من والده الملك السابق.





(1) - وزن الخروبة الواحدة هو أحد عشر كلغ ونصف.

الفصل الثاني

الحروب الأهلية التي دارت بين المغاربة منذ وفاة مولاي أحمد حتى موت ابن مولاي أبي فارس

تولى مولاي أحمد ملك المغرب بعد وفاة أخيه مولاي عبد الملك، وقد حكم زهاء ثمانية وعشرين عاما تمتعت فيها البلاد بقسط من السلم.

ومن الأشياء التي أعطت لمولاي أحمد شهرة خاصة، وجود مجموعة من النبلاء البرتغاليين أسرى في مملكته، وكان يوجد كذلك عدد كبير من الجنود الأتراك والعلوج والأندلسيين الموريسكيين، وقد كان عليه أداء النفقات الباهضة لهؤلاء والمتمثلة في الأجور، والسلاح والأكل واللباس الذي يتكون عادة من الحرير الأحمر والقطيفة، كما أن الأسلحة المسلمة للجنود الأجانب كانت مزينة بالذهب والفضة. هذه الوضعية حتمت على مولاي أحمد فرض ضريبة على الأعراب الذين كانوا ملزمين بأدائها بشكل دائم.

مقابل هذه المصاريف التي كان ينفقها مولاي أحمد على جنده الأجانب الموجودين بجيشه ؛ حاول الاستفادة منهم من أجل غزو مملكة غاو. وقد أرسل إليها جيشا قوامه عشرة آلاف جندي مدرب على استعمال الأسلحة النارية، يقوده علج ينتمي في الأصل إلى *كويفاس Cuevas* اسمه الباشا جودر، وكان يتميز برزانة وشجاعة، كما عرف باخلاصه الكبير لسيده. وقد نجح في غزو مملكة غاو بفضل الأسلحة النارية الكثيرة التي كانت لديه، خصوصا وأن السود الذين قام بمحاربتهم لم يكن لهم من الأسلحة غير النبال والسهام.

لم تكن الأموال الكثيرة التي أنفقها مولاي أحمد على جنده الأجانب هي العامل الوحيد الذي دفعه إلى إرسالها لغزو تلك البلاد، بل السبب الرئيسي هو أن عددا من هؤلاء أصبحوا بمثابة عناصر مزعجة ومشبوه في إخلاصها، لذا فإن غزو مملكة غاو كان فرصة للتخلص منهم.

لقد كلف القيام بغزو مملكة غاو أموالا طائلة للدولة، كما أن بناء القصر الملكي بمراكش تطلب مصاريف كثيرة جدا؛ ذلك لأن المرمر الموجود بهذا القصر تم جلبه من إيطاليا، وقد كانت بعض قطع هذا المرمر من الكبر لدرجة أنه كان يتحتم تحطيم السفن في اليابسة لأخذها منها. بجانب هذا كانت لمولاي أحمد مصاريف أخرى مرتفعة تهم الحريم اللائي يعشن في قصره وعددهن ألفا امرأة، كانت المفضلات منهن يرتدين الملابس الفاخرة ويتزين بالمجوهرات النفيسة.

كان مولاي أحمد قد عين نائبا عنه بفاس ابنه مولاي الشيخ، وقد استطاع بعض الحساد الذين كانوا يعملون في حكومة هذا الأخير أن يوقعوا بينه وبين والده الذي توجه إلى فاس على رأس جيش قوامه ثمانية آلاف شخص، وذلك بغرض معاقبته، وعندما غادر مولاي أحمد مراكش ترك ابنه مولاي أبا فارس نائبا عنه، في حين قام بمرافقته ابنه الثاني مولاي زيدان. وعند وصوله إلى فاس أمر بإلقاء القبض على مولاي الشيخ ونحاه عن السلطة. وعلى الرغم من أن البعض كان ينعت مولاي الشيخ بالأهبل فإنه عندما استقدم إلى حضرة والده الملك تكلم بتعقل ورزانة جعلت العاطفة الأبوية تتحرك لدى والده فاشفق عليه وقرر إطلاق سراحه، كما أخرجه معه في موكب رسمي، وعند الاقتراب من الجموع، وكان كل واحد منهما يمتطي صهوة جواده، صاح مولاي أحمد بأعلى صوته: *"يا سكان وأعراب هذه المملكة، إنني أقوم اليوم بإطلاق سراح ملككم"*. إثر ذلك عم حماس كبير بين الجموع المحتشدة التي بدأت تهتف بما نصه: *"حفظ الله ملكنا مولاي الشيخ"*. وعندما رأى مولاي أحمد كل هذا، همس إلى مرافقه الخاص القائد عزوز قائلا: *"أناس بلهاء يريدون ملكا أبله"*.

والحقيقة ان مولاي احمد لم يرقه أن يرى الناس وهم يظهرون كل ذلك الود لمولاي الشيخ مما جعله يتراجع عن قراره السابق بإطلاق سراحه، وأمر بأن يلقى عليه القبض من جديد ويرسل في تلك الليلة نفسها أسيرا إلى مكناس، وقد تولى أمر حراسته الباشا جودر.

لم يمكث مولاي أحمد بفاس بعد ذلك إلا أياما قليلة، حيث وافته المنية. إثر ذلك قام مولاي زيدان باستدعاء القواد والفقهاء وسكان فاس والجند لإلقاء النظرة الأخيرة على جثمان مولاي أحمد، وقد خطب فيهم بما يلي: *"حفظني الله وغفر لوالدي الذي يوجد جثمانه أمام أعينكم. إنني قررت أن يبقى كل واحد منكم في منصبه السابق، كما قررت أن أمنح للجند ستة أشهر كاملة من أجورهم مقدما، ذلك لأنني سأرحل إلى مراكش، وسأكون رحيما بالذين يخدمونني بإخلاص في حين سأعاقب أولئك الذين سيفعلون العكس"*. وقد قدم له الحاضرون التهنئة بمناسبة توليه الملك وصاحوا كلهم: *"حفظ الله ملكنا مولاي زيدان"*. إثر ذلك رحل كل واحد إلى حال سبيله.

أما مولاي زيدان فقد أرسل خادمه الباشا مصطفى، وهو علج كورسيكي الأصل، مع جماعة من الجنود لينادوا به ملكا في شوارع فاس الرئيسية.

ومما قام به مولاي زيدان بعد توليه الملك هو تعيين عدد من خدمه الخاص في مناصب المسؤولية بحكومته، وكان بعضهم غير أهل لذلك، مما أغضب عددا من القواد الذين كانوا يعملون مع والده مولاي أحمد. ومن بين هؤلاء القائد العلج أحمد بن منصور گوريتو، الذي تولى قيادة الأندلسيين المورسكيين في غياب الباشا جودر جنرال جيوش مولاي أحمد، ولإظهار سخطه على قرار مولاي زيدان، خرج هذا القائد ليلا من أسوار فاس متوجها إلى المخيم حيث يوجد الجيش الذي كان تحت إمرته، وبعد ضرب الطبول أمر بالتحرك صوب مدينة مكناس للالتقاء بالباشا جودر الذي كان يقود فرقه مكونة من العلوج وقدماء الجنود، وقد أيد هذا الأخير الإجراء الذي قام به

القائد أحمد بن منصور، واتفق الإثنان على الذهاب إلى مراكش حيث أخذا معهما مولاي الشيخ أسيرا، وقاما بتسليمه إلى مولاي أبي فارس مع كل الجيوش التي كانت تابعة لوالده. وبموافقة كل رجال الحرب تمت المناداة بمولاي أبي فارس ملكا.

أما مولاي زيدان، فقد أصابه حزن كبير عندما استيقظ صباحا ولم يجد الجيش خارج المدينة، لكنه أخفى خيبة أمله عن العموم. وقد بقي مع مولاي زيدان القائد عزوز الحاجب الخاص لمولاي أحمد لأنه لم يعلم بقرار القائد أحمد بن منصور گوريتو.

أمام هذا الوضع قام مولاي زيدان بتسديد الأجور لقدماء جنود مولاي الشيخ، كما ضم إلى جيشه عددا كبيرا من العناصر الجديدة. وهكذا وبعد أيام قليلة خرج من فاس على رأس جيش قوامه عشرة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان في اتجاه مراكش.

وما أن علم مولاي أبو فارس بمقدم مولاي زيدان، حتى أعد العدة للمواجهة، حيث دفع للجنود مقدما أجورهم لمدة ثمانية عشر شهرا، كما قام بإطلاق سراح مولاي الشيخ عملا بنصيحة ضباطه، ذلك لأن هذا الأخير كان محبوبا من طرف الجنود الذين يكونون جيش مولاي زيدان والذين هم في الأصل جيوش لمولاي الشيخ، لذا فهم لن يحاربوا ضد أمير له عليهم أفضال كثيرة، وكان لعدة سنوات ملكا عليهم.

بعد إطلاق مولاي أبي فارس سراح شقيقه مولاي الشيخ تم الاتفاق بينهما على أن يكون هذا الأخير ملكا على فاس تحت سلطة مولاي أبي فارس. وقد خرج مولاي الشيخ مع جيوش مولاي أبي فارس لمواجهة مولاي زيدان، حيث التقى الجيشان في ولاية تادلة، وانتهت المعركة بهزيمة مولاي زيدان، بسبب رفض الجيش الذي كان معه أن يحارب ضد مولاي الشيخ، وقد اضطر مولاي زيدان إلى الفرار حيث عاد إلى فاس.

بعد انتهاء المعركة أمر مولاي الشيخ بألا يقتل أحد من الفارين، وكان قد انضم إليه عدد كبير من قدماء جنوده الذين خطب فيهم قائلا : *"السلام عليكم، لقد كنت متيقنا أنه لن يحارب أحد منكم ضدي"*. وبما أن الجند بدأوا يصيحون : *"حفظ الله ملكنا مولاي الشيخ"*. فقد رد عليهم قائلا : *"إن أخي مولاي أبا فارس هو الملك وهو الذي يجب أن نطلب من الله أن يحفظه"*.

إثر ذلك بدأ مولاي الشيخ في السير مع جيوشه، وقد جاء عنده الباشا جودر وخاطبه قائلا : *"مولاي، اضرب مخيمك وابق هنا هذه الليلة"*. فأجابه مولاي الشيخ: *"ابق أنت، أما أنا فراحل إلى فاس، تلبية للأمر الذي عندي من مولاي أبي فارس، أخي وملكنا"*. وأخذ طريقه في اتجاه فاس، في حين بقي الباشا جودر مع جيوش مولاي أبي فارس في نفس المكان إلى أن تلقى الأمر بالعودة إلى مراكش.

عند وصول جودر إلى هذه المدينة لم يلق استقبالا حسنا من طرف سيده مولاي أبي فارس وذلك راجع لكونه لم يستطع تنفيذ الأمر السري باعتقال مولاي الشيخ بعد المعركة. غير أن الباشا جودر حتى لو حاول القيام بذلك فإنه لن ينجح، لأن كل الجيوش كانت تعز مولاي الشيخ، وبالتالي فإن اتخاذ قرار من ذلك النوع كان من الممكن أن يعطي فرصة لهذا الأمير ليصبح ملكا، خصوصا وأن بعض الجند كانوا يخاطبونه قائلين : *"مولاي، ألا تريد أن تكون ملكا على فاس ومراكش في نفس الوقت؟"*. وكان هو يجيبهم قائلا : *"إن مولاي أبا فارس هو الملك"*. وهذا ما بين لنا كيف أن مولاي الشيخ لم يرد أبدا إلغاء الاتفاق الذي عقده مع أخيه.

إن عدم رضى مولاى أبي فارس عن الباشا جودر بسبب الحادث السالف ذكره تم استغلاله من طرف القائد عزوز الذي سعى للحد من نفوذ هذا الباشا عندما نصح الملك باستدعاء الباشا سليمان، وهو علج قرطبي كان يشغل آنذاك منصب نائب السلطان في مملكة غاو، وقد عين مكانه على هذه المملكة القائد محمود، وهو علج أصله من إشبيلية.

وصل الباشا سليمان الى المغرب محملا بكميات كبيرة من التبر، فاستقبله مولاي أبو فارس بحفاوة وعينه كبير فرسان الملك، وهو المنصب الذي كان يشغله قبل انتقاله الى مملكة غاو.

فيما يتعلق بمولاي زيدان فإنه قبل المعركة التي واجه فيها مولاي أبافارس، قام بإرسال خمس عشرة شحنة من الذهب إلى العرائش لكنه لم يستطع الاستفادة من هذا الذهب بعد ذلك، لأنه فر إلى ضواحي تلمسان، وقد قام مولاي أبو فارس بوضع يده على تلك الأموال .أما مولاي الشيخ فإنه قبل اطلاق سراحه،ترك ابنه عبد الله كرهينة عند مولاي أبي فارس، وذلك حتى يلتزم بالاتفاق القائم بينهما.

وفي هذه الأثناء كان وباء الطاعون قد استفحل بمراكش، مما أرغم مولاي أبا فارس على مغادرة المدينة مع جنده، حيث أقاموا محلة في ضواحيها. ومن طرائف الأمور أن أحد العلوج الفرنسيين جاء في تلك الأيام من مخيم الملك إلى مراكش وهو في حالة سكر شديد، وكان يقود فرسه بسرعة كبيرة، مما دفع ببعض الأعراب إلى سؤاله عن السبب الذي يدفعه إلى قيادة الفرس بتلك السرعة، فرد عليهم متهكما، دون توقف ولم يكن يعرف من العربية إلا اليسير : *"لقد مات الشيطان"*. وكان من بين الذين سمعوا ذلك الكلام شخص يفهم بعض الكلمات الإسبانية، فقال للذين يرافقونه : *"إن هذا العلج يقول إن الملك قد مات"*. وسرعان ما انتقل ا الخبر من شخص لآخر حتى وصل إلى مخيم مولاي أبي فارس، الذي على الرغم من وجوده بالمخيم كان قد اختفى عن الأنظار لعدة أيام، مما زكى إشاعة موته. كل هذا أدى إلى بعث جو من التشويش بين الموجودين في المخيم. وقد اغتنم مولاي عبدالله بن الشيخ هذا الاضطراب فركب فرسه وفر هاربا مع ثلاثة أو أربعة من خدمه في اتجاه فاس، وفي نفس الوقت قام أشخاص آخرون من المخيم بإزالة الخيام ويدءوا بمغادرته، أمام هذا الوضع بادر إلى الكلام خصي من العلوج أصله من گويڤاس قائلا : *"أيها الناس لا تضطربوا لأن الملك حي*

يرزق" . وما إن انتهى من كلامه حتى خرج مولاي أبو فارس فتمكن الناس من رؤيته،وعندها هدءوا.

وقد سبب هرب مولاي عبدالله كدرا وغما لمولاي أبي فارس، خصوصا وأن بعضهم حمله مسؤولية هذا الهرب، لذا أرسل يطلب من مولاي الشيخ أن يسلمه مولاي عبدالله، لكن طلبه لم يلق أي قبول، مما أغضبه كثيرا، وبدأ بتهييء جيش من أجل إرساله لمواجهة مولاي الشيخ بمملكة فاس. أمام توتر الوضع بين الأخوين ترجت للا زهور أم أبي فارس ومولاي الشيخ، ابنها أبا فارس أن يسمح لها بالذهاب إلى فاس حتى تناقش مولاي الشيخ في إمكان حل هذا المشكل دون حاجة لاستعمال السلاح. وقد قبل مولاي أبو فارس طلبها ورحلت إلى فاس وكان يرافقها بعض كبار القواد. وعند وصولها إلى فاس استقبلها مولاي الشيخ بحفاوة كبيرة لكنه لم يصل معها إلى أي اتفاق في شأن إعادة تسليم مولاي عبدالله. إثر ذلك عاد قواد مولاي أبي فارس إلى مراكش في حين مكثت للا زهور في فاس مع ابنها مولاي الشيخ.

أمام هذا الوضع أرسل مولاي أبو فارس إلى مملكة فاس جيشا قوامه عشرة آلاف من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان على رأسه ابنه عبدالملك والباشا جودر الذي عينه قائدا عاما لهذه الجيوش. وقد أعار مولاي أبو فارس هذا الجيش عناية واهتماما كبيرين، حيث قدم للجنود الألبسة الفاخرة ومنحهم أجورهم مقدما لمدة سنتين، بالإضافة إلي هبة قيمتها أربعة مثاقيل لكل واحد، في حين منح للقواد هبات كثيرة، وإثر ذلك انطلق الجيش في اتجاه فاس.

بالنسبة لمولاي الشيخ لم تكن معه الجيوش الكافية التي تمكنه من مواجهة جيوش مولاي أبي فارس، ومع ذلك بقي ينتظر مع عدد قليل من الجند وبعض الفرسان ما ستسفر عنه الأحداث، وقد ألقى خطابا أمام جنود أبي فارس هدف منه أن ينضم هؤلاء إلى صفه، وفي نفس الوقت خطط للهرب في حالة الفشل، ذلك أنه كان يمتلك بالعرائش سفينة حربية أرسلها له دوق فلورانسيا، كان ينوي الإبحار على ظهرها.

عندما اقترب جيش مولاي أبي فارس من فاس، وعلى بعد فرسخين من المكان الذي يوجد به مولاي الشيخ، تمرد حوالي خمسة آلاف جندي قاموا بحمل علم مولاي الشيخ وبدأوا يرددون الشعار التالي : *"حفظ الله مولاي الشيخ أبا الجنود"*. أمام حالة الفوضى هاته وخوفا من أن يؤدي ذلك إلى فقدان الجيش برمته، اضطر الباشا جودر إلى إيقاف الحملة، حيث أمر بقرع الطبول وعاد إلى مراكش مع من بقي معه من جيش منكسر دون أن يتسنى له رؤية العدو، وقد فقد سلاح المدفعية الذي كان معه إضافة إلى كمية كبيرة من العتاد الآخر.

هذا التمرد استفاد منه مولاي الشيخ حيث تمكن بفضله من إعادة تكوين جيشه، مقابل ذلك بدأ مولاي أبو فارس في تكوين جيش جديد بأسرع ما يمكن ثم وجهه في محاولة ثانية لمحاربة مولاي الشيخ، حيث عين على رأسه ابنه مولاي عبدالملك. وقد سبق هذا الأخير إلى مملكة فاس القائد أحمد بن منصور گوريتو الذي أرسله مولاي أبو فارس على رأس جيش قوامه خمسمائة وألف من المشاة قصد إرغام أعراب تامسنا المقيمين بالضفة اليسرى لنهر أم الربيع على دفع الجبايات، في حين أرسل الباشا جودر على رأس ألفي شخص إلى ولاية درعة من أجل إرغام أعراب تلك الولاية وبربرها على نفس الشيء.

بالنسبة لمولاي عبدالملك فقد حدث له ما لم يكن في الحسبان، ذلك أنه لما غادر مراكش، وعلى بعد ثلاثة فراسخ، أصابه وباء الطاعون ليلا، وما إن طلع فجر اليوم التالي حتى كان قد فارق الحياة. وعندما علم مولاي أبو فارس بالخبر انتابه حزن شديد خصوصا وأنه كان ابنه الوحيد، أما مولاي عبدالملك فإنه ترك ابنا لايزال في المهد.

أمام هذه الوضعية الجديدة، طلب بعض القواد العلوج من مولاي أبي فارس تعيين مولاي عبدالله بن الشيخ وارثا للعرش ومصاهرته، حيث إنه بذلك يضع حدا للحروب بينه وبين أخيه مولاي الشيخ. لكن القائد عزوزا كان له رأي آخر، حيث اقترح على مولاي أبي فارس تعيين مولاي زيدان

الذي كان يقيم في تلك الأثناء بالقصر الملكي في تارودانت بمملكة سوس، وارثا للعرش، ونظرا للثقة التي كان يحظى بها القائد عزوز عند الملك فإن رأيه هو الذي لقي القبول.

ولتنفيذ هذا القرار، أمر مولاي أبو فارس القائد عزوزا بالذهاب إلى تارودانت قصد عرضه على مولاي زيدان، في نفس الوقت تمت المناداة بهذا الأخير في مراكش وارثا للعرش. لكن مولاي زيدان لم يصدق كل ذلك، حيث اعتقد أنه مجرد خدعة، لذا فعلى الرغم من أنه أظهر موافقته للقائد عزوز، فقد ترك تارودانت، حيث لم يعد يحس بالأمان، وقرر الرحيل إلى تافيلالت، لكنه في طريقه إليها مر بقلاع الگلاوي وطلب من قائدها أن يعطيه توقيعا على ورقة بيضاء، كتب عليها مولاي زيدان ودون علم من قائد تلك القلاع رسالة إلى مولاي أبي فارس جاء فيها : *"مولاي، لقد وصل إلى هنا مولاي زيدان الذي سبب لي إهانة كبيرة في عقر داري، وبما أنني أعرف أنه عدوك فإنني أرجو منك أن تخبرني هل تريد مني أن اسجنه في قلاعي حتى ترسل خدمك ليأخذوه سجينا إلى مراكش، وإن قيامك بذلك سيسمح لك لا محالة بالتخلص من أحد أعدائك"*. وقد قام مولاي زيدان ببعث هذه الرسالة مع أحد رجال ثقته إلى مولاي أبي فارس الذي أجاب عليها شاكرا للقائد اقتراحه هذا وطالبا منه إلقاء القبض على مولاي زيدان. وقد اكتشف مولاي زيدان عند ذلك النوايا الحقيقية لمولاي أبي فارس، ومن دون أن يجيب بأي شيء آخر رحل إلى تافيلالت حيث مكث بضعة أيام، وفي طريقه إليها سطا على قافلة كبيرة محملة بالسلع والنقود كانت قادمة من الصحراء. وقد سنح له ما حصل عليه من أموال بواسطة هذه العملية بأداء أجور خدمه وكذا اقتناء عدد من الخيول وكان عدد الأشخاص الذين يرافقونه يقدر بمائتين.

هذه هي الأحداث التي وقعت بالممالك المغربية منذ موت مولاي أحمد عام 1603 إلى 12 شتنبر 1606.

الفصل الثالث

الأحداث التي وقعت في الممالك المغربية
إلى غاية فاتح يناير 1608

لما علم مولاي أبو فارس أن مولاي الشيخ قد أعد العدة لمحاربته إذ هيأ جيشا وضع على رأسه ابنه مولاي عبدالله، قام هو بالاستعداد للمواجهة فجمع الجيش وأغدق عليه الهبات، حيث منح الجنود أجورهم مقدما لسنة كاملة، بالاضافة إلى الملابس الفاخرة، والأسلحة المزينة الرفيعة.

** خروج مولاي أبي فارس مع جيشه للمواجهة :*

خرج مولاي أبو فارس من مراكش بثقة في النفس كبيرة، وكان يرافقه عدد كبير من الجنود والشيوخ وكبار الفقهاء، حيث أقام مخيمه في الرميلة[1]. وكان قد أرسل على وجه السرعة في طلب الباشا جودر الذي يوجد في ولاية درعة، حيث كانت تتمثل مهمته هناك في القيام بإرغام البربر والبدو على دفع الجبايات، في نفس الوقت أرسل في طلب القائد أحمد بن منصور گوريتو[2] الذي كان يوجد في تامسنا لنفس الغرض. وقد التحق هذان القائدان لتوهما بالمخيم وبرفقتهما جندهما، وكانا يحملان معهما الأموال التي حصلا عليها، كل ذلك حدث يومين قبل وقوع المعركة.

---

(1) ـ قبيلة تبعد عن مراكش بأربعة فراسخ.

(2) ـ القائد محمد بن منصور گوريتو هو ابن القائد منصور بن عبدالرحمن العلج الذي كان يشغل منصب قائد القواد في الجيش السعدي على عهد أحمد المنصور الذهبي. وقد توفي في منحنى نهر النيجر عندما كان يتولى الباشوية في تنبكت.

* معلومات بشأن جيوش مولاي أبي فارس :

أمر مولاي أبو فارس بأن تقدم له المعلومات اللازمة بشأن الجيش الذي لديه، وقد تبين أنه يتألف من أكثر من اثني عشر ألف شخص أغلبهم من قدماء الجنود، بالإضافة إلى أربعة آلاف من الفرسان المدججين بالرماح والدروع، وخمس عشرة قطعة من المدفعية، كل هؤلاد كانوا قد تقاضوا أجورهم بسخاء.

وكان بعض جنود مولاي أبي فارس قد تقدموا حوالي أربعة فراسخ على المكان الذي يوجد به المخيم، حيث وقعت بينهم وبين بعض الفرسان من جند مولاي عبدالله بعض الاشتباكات، لكنها كانت محدودة، إذ ما فتىء أن عاد كل طرف إلى مخيمه، وكان ذلك ظهر اليوم السابق لنشوب المعركة.

ولما اقترب العدو من مخيم مولاي أبي فارس، ظهر لهذا الأخير أنه لا يوجد في موقع جيد، لذا قرر تغيير المكان والاتجاه إلى جهة أخرى تبينت له أهمية احتلالها بسبب توفرها على المياه. وكان ذلك في فجر الخميس 14 نوفمبر حيث أمر بقرع الطبول ونقر النفير. وقد تحرك إثر هذا الجيش نحو المكان المعين، لكن مولاي عبدالله كان قد سبقه إلى هناك في الليلة السالفة، حيث ترك كتيبة من جيشه بهذه النقطة وواصل السير في صبيحة اليوم التالي.

* *عدد الجنود الذين كانوا يرافقون مولاي عبدالله :*

كان جيش مولاي عبدالله يتألف من خمسة آلاف من المشاة وألف من الفرسان بالإضافة إلى سبع عشرة قطعة من المدفعية، وكان عدد النصارى الذين يشاركون في المعركة بجانب مولاي عبدالله يقدر بسبعين وهم من الانجليز والفلاندريين والفرنسيين والمورسكيين.

* *حدوث مواجهة بين جيشي مولاي أبي فارس ومولاي عبدالله :*

في البداية وقع اصطدام بين فرقتي الفرسان، وقد قام كل طرف بإيصال

الخبر بأكبر سرعة ممكنة إلى المخيم الذي ينتمي إليه. إثر ذلك تحرك كل جيش في اتجاه عدوه، وقد التقيا في وادٍ واسع يوجد بوسطه مجرى مليء بالمياه، عند ذلك أقام كل طرف مقابل الطرَف الآخر والجميع في حالة تأهب لدخول المواجهة.

وقد حاول بعض القواد العلوج في معسكر مولاي أبي فارس وضع خطة لدخول المعركة، حيث قسموا الجيش إلى مقدمة وقلب وساقة.

** طريقة تنظيم جيش مولاي أبي فارس :*

كان القائد أحمد بن منصور گوريتو هو الذي يقود المقدمة، في حين تولى الباشا جودر قيادة القلب والباشا سليمان القرطبي الساقة، أما مولاي أبو فارس فقد حل بين القلب والساقة وكان يرافقه كل من أخيه مولاي عبدالله بن أحمد والقائد عزوز، بالإضافة إلى عدد من كبار القواد الذين يكونون حرسه الخاص وعلى رأسهم القائد علي زركون المايورقي. وقد قرر الباشا جودر الذي كان يقود "القلب" أن يترك سلاح المدفعية في مؤخرة هذه المجموعة، على أن يفسح الجنود الموجودون في المقدمة الطريق لسلاح المدفعية عند الضرورة. لكن ما إن بدأت المعركة حتى فقد النظام بين الجنود حيث تكدسوا كلهم مقابل المدفعية مما استحال معه استعمالها، أما القائد الجاوي وهو فارس من كبار النبلاء فقد أعطيت له الأوامر ليمر إلى الجهة الأخرى من المجرى حيث توجد خيام عبدالله بن الشيخ وذلك بهدف اسقاطها، على اعتبار أن العدو سيشعر بالانهيار عندما يرى خيامه وقد تم السطو عليها.

** طريقة تنظيم جيش مولاي عبدالله :*

كانت لمولاي عبدالله رغبة لا تقاوم في هزم عدوه، وقد وضع لتحقيق ذلك خطة محكمة لجيشه، حيث قسمه إلى كتيبتين الأولى من المشاة والثانية من الفرسان ؛ بالنسبة لفرقة المشاة وضع على رأسها كلا من القائد علي التطواني والقائد سلامة وهو علج أصله من إشبيلية، بينما كان على رأس

فرقة الفرسان القائد عبدالله الرايس وهو رجل ذو خبرة واسعة في أمور الحرب، في حين حل مولاي عبدالله بقلب فرقة الفرسان جنبا إلى جنب مع حرسه الخاص، الذي كان على رأسه القائد حسان وهو علج أصله من فلاندرا. أما فرقتا المدفعية والمسيحيين فكان يشرف عليهما القائد رجب وهو علج أصله من ليون.

* *بداية المعركة بين عبدالله وأبي فارس :*

بدأت المعركة ببعض طلقات المدفعية من الجانبين، وقد أعطيت التعليمات لمجموعة من الفرسان في جيش مولاي أبي فارس ـ وكان يقودها القائد الجاوي ـ باجتياز المجرى قصد السطو على مخيم العدو. في هذه الأثناء كان تبادل القذائف قد ازداد بصفة تثير الانتباه، وقد نجح الانجليز الذين يشرفون على سلاح المدفعية في جيش مولاي عبدالله بتوجيه ثلاث قذائف إلى فرقة الفرسان من جيش مولاي أبي فارس. هذه القذائف الثلاث سببت ذعرا كبيرالأفراد الفرقة الذين فروا بسرعة كبيرة، وما إن لاحظ المشاة من هذا الطرف ـ وكانوا قد بدأوا القتال ـ فرار فرقة الفرسان حتى خارت قواهم وأغمدوا السيوف وولوا هاربين.

* *انتصار مولاي عبدالله على مولاي أبي فارس :*

وجد الباشا جودر صعوبة كبيرة قي تنظيم رجاله الذين لم يستطيعوا القتال. وهكذا فإن ذلك الجيش العرمرم لم يجد أمامه حلا آخر غير الفرار. وقد كان مولاي أبوفارس من أواخر الذين فعلوا ذلك، حيث إنه لم يدر لجام خيله إلا بعد أن تأكد من الهزيمة. وقد اتجه لتوه إلى مراكش، حيث وجد أبوابها موصدة، وبما أنه لم يأت أحد لفتحها، فقد أمر بكسرها، واتجه مباشرة إلى قصره حيث بقي هناك مدة ساعة ونصف تمكن خلالها من جمع بعض ثرواته كما أمر بعض نسائه بالاستعداد لمرافقته. وقد أرسل القائد عمارا وهو خصي علج إلى جاريته المفضلة لتمتطي دابتها وتلتحق به، كما أمره أن يطلب منها تسليمه صندوقين من المجوهرات كان مولاي أبو فارس

قد منحهما لها، لكن هذه الأخيرة اختلط عليها الصندوقان مع صندوقين آخرين كانا مملوءين بالكتب ؛ وبما أن الخصي وجدهما ثقيلين فلم يقم بالاطلاع على محتواهما، بل غطاهما لتوه ببساط وحملهما إلى مولاي أبي فارس الذي لم يكن معه آنذاك دابة يحمل عليها الصندوقين، لذا أرسل الباشا سليمان يبحث عن مطية يضعهما عليها ويلحق به.

** فرار مولاي أبي فارس إلى الجبال :*

وقد فر مولاي أبو فارس إلى الجبال مع مساعده الخاص القائد عزوز، وعند وصوله إلى هناك سمح له البربر بالمرور، لكنهم سطوا على مؤخرة موكبه التي كان يوجد بها نساؤه واللواتي قام البربر بأسرهن، وهكذا فقد ذلك الملك التعيس في يوم واحد مملكته ونساءه وكنزه الذي لم يظفر منه ولو بقميص واحد يمكنه ارتداؤه عند الحاجة. أما بالنسبة للقائد عزوز فإنه كان أكثر ذكاء، حيث قام أثناء إقامته بمراكش ببناء قصبة في الجبال أرسل إليها ثروته، ثم التجأ إليها بعد الهزيمة، وهو بذلك الفعل تنكر لكل جميل اتجاه سيده.

** القواد الذين فروا مع مولاي أبي فارس :*

القواد الذين فروا مع مولاي أبي فارس هم القائد خيران الباسكي والقائد علي البرتغالي والقائد كاردين وأصله من مورسيا والقائد نبيلة وهو شخص من النبلاء مغربي المولد، بالإضافة إلى القائد عزوز وابنه القائد علي.

** الأخطاء التي ارتكبها مولاي أبو فارس :*

لقد قتل في تلك المعركة خمسة عشر ومائة شخص، لكن ليس في المواجهة، بل عندما هموا بالفرار. وقد ارتكب مولاي أبو فارس عدة أخطاء كانت السبب في هزيمته، أولها اتباعه لنصائح القائد عزوز والذي بسبب عدائه الشخصي لمولاي الشيخ لم يوافق أبدا على إقامة سلم بينه وبين مولاي أبي فارس، أما الخطأ الثاني الذي ارتكبه مولاي أبو فارس فيتمثل في عدم بقائه في المكان الذي كان به في اليوم السابق للمعركة حيث كان يوجد في

منطقة مستوية، لأنه لو استقر هناك لما أتاح لعدوه استعمال سلاح المدفعية الذي حسم المعركة لصالح العدو، بل كان سيرغمه على المواجهة المباشرة، التي لم يكن العدو في أتم الاستعداد لها، خصوصا وأن جنوده كانوا في حالة تعب وإرهاق شديدين.

** دخول مولاي عبد الله مراكش :*

عندما غادر مولاي أبو فارس قصبة مراكش، دخلها أحد قواد مولاي عبد الله برفقة فرقة من الجنود، وبدأوا يعلنون في أحياء المدينة بأنه صدر عفو عام في حق كل جنود وخدم مولاي أبي فارس. وفي اليوم التالي دخل مولاي عبد الله إلى المدينة دخول الأبطال حيث نزل في بيت للا صفية شقيقة مولاي الشيخ، عند ذلك سلمه القائد عمار الصندوقين اللذين كان مولاي أبوفارس قد وضع بهما كل مجوهراته، كما سلمه القائد سليمان القرطبي كل الصناديق المملوءة بالذهب التي كان مولاي أبو فارس قد أمر بحفظها. وبما أن الباشا سليمان هذا وبخلاف غيره من القواد لم يقم بأي شيء ضد مولاي الشيخ عندما كان هذا الأخير في السجن - لأنه كان آنذاك يشغل منصب نائب السلطان في غاو - فقد شجعه ذلك على أن يمكث في مراكش، واضعا ثقته في العفو الذي يمكن أن يلقاه من مولاي عبد الله.

** الثروة التي حصل عليها مولاي عبد الله بعد هذا الانتصار:*

لقد ظفر مولاي عبد الله من هذه المعركة بستمائة خيمة، وكل الأسلحة التي كانت بمعية الجنود المنهزمين بالإضافة إلى سلاح المدفعية. كما أنه وجد في القصر الملكي كل مجوهرات الملوك السابقين التي قدر ثمنها بستة ملايين أوقية (قيمة كل أوقية أربعة ريالات)، كما وجد ثلاثة ملايين أوقية من النقود، بالإضافة إلى كمية كبيرة من العنبر الأسود، ومائتين وألف طرد من الريان، وكمية كبيرة جدا من طرود النسيج، وأربعة آلاف زوج من الألبسة، كما وجد خمسة عشر دهليزا مملوءاً بالقمح والشعير ؛ وقد كانت كمية الحبوب التي توجد في كل دهليز تتراوح بين مائة ألف وبين خمسين ومائة

ألف غرارة [1]، كما عثر على كمية كبيرة جدا من البارود بالإضافة إلى عدد مهم من الكتب التي كان الملوك السابقون قد قاموا باقتنائها.

* *طلب قواد مولاي أبي فارس العفو من مولاي عبد الله :*

التجأ قواد مولاي أبي فارس الذين لم يتمكنوا من مرافقته إلى زاويتي سيدي عبد الله بن ساسي[2] وتامصلوحت[3] (كان الالتجاء إلى هذه الأماكن يضمن الحماية والأمان للاجئين)، وأرسلوا من هناك بعض الفقهاء يطلبون نيابة عنهم العفو من مولاي عبد الله بن الشيخ حتى يمكنهم المجيء إليه قصد تقديم الطاعة. وقد وعدهم مولاي عبد الله بأن يصفح عنهم، وأرسل مع الفقهاء بعض القواد بدعوى مرافقة اللاجئين، لكن الهدف الحقيقي من إرسال قواده كان هو حراسة قواد مولاي أبي فارس حتى لا يتمكنوا من الفرار.

* *مولاي عبد الله يأمر بقتل قواد مولاي أبي فارس :*

لما خرج هؤلاء القواد من ملاجئهم، أمر مولاي عبد الله بإلقاء القبض عليهم، وبعد مرور ثلاثة أيام على ذلك أمر بقتلهم، وكانوا كلهم من النبلاء الذين يمتلكون ثروات كبيرة، كما كانوا من أهم مؤطري الجيش، وقد عاصروا مولاي أحمد الذي كان يعتمد عليهم كثيرا.

كان يوجد بين هؤلاء الباشا جودر وهو علج أصله من *كويڤاس*[4]، وكانت له حنكة كبيرة في ميدان الحرب، لدرجة أنه ولسنوات طوال لم تعرف

---

(1) ـ كل غرارة تحتوي على ثلاثة فنقات، والفنقة مقياس خاص بالحبوب يختلف وزنه من منطقة لأخرى ويتراوح عادة بين 22.5 كلغ و 55.5 كلغ.

(2) ـ زاوية سيدي عبدالله بن ساسي توجد على الضفة اليسرى لنهر تنسيفت، وتبعد عن مراكش بحوالي عشرة كلمترات.

(3) ـ زاوية تامصلوحت أسسها الشريف عبدالله بن حسين الحسيني في القرن السادس عشر، وتوجد جنوب غرب مراكش.

(4) ـ كويڤاس "Cuevas" تعرف حاليا باسم كويڤاس (مغارات) المنصورة، وتوجد بولاية المرية.

جيوش ملوك المغرب قائدا في حنكته وذكائه. وهو الذي غزا مملكة غاو، كما أنه قدم خدمات كبيرة لسيده الملك. وعندما كان في طريقه إلى المقصلة سأل هل بإمكانه التحدث إلى مولاي عبد الله فأجابوه بالرفض.

* *تسليم الباشا جودر للمجوهرات التي كانت معه :*

عند ذلك خلع الباشا جودر ثيابه، وكان من بين ما يرتديه جبة منحها إلى أحد الخصيان قائلا: *"اعط هذه الجبة إلى الملك لأن ملوكا غيره أعطوني إياها من أجل حفظها"*. كانت هذه الجبة تحتوي في ثناياها على قطع من الياقوت والماس. كما أخرج سبحة تضم ثلاثمائة خرزة من اللؤلؤ دائرية الشكل كل واحدة منها تتألف من ستة أو سبعة قراريط وفي وسط هذه السبحة كانت توجد إجاصة نفيسة جدا من الماس، سلمها كذلك للخصيان قائلا: *"اعطوا للملك كل هذا وأخبروه انه لا يؤسفني قراره بقتلي بقدر ما يؤسفني قراره بقتل هذا العدد الكبير من كبار القواد وقدمائهم الذين كانوا من خاصة جده الملك والذين كان يستفيد منهم كثيرا"*. وقد أخبره الخدم أنهم سينقلون ذلك إلى مولاي عبد الله واستعجلوه ليتوجه إلى الله بالصلاة لأن ساعته قد دنت، وقد رد عليهم أن كل شيء بيد الله وأنه يتوسل إليه ليكون رحيما بروحه، وانحنى على ركبته قائلا: *"باسم الله"*. عند ذلك جاء أحد الخصيان وقطع رأسه. لقد كان بالفعل مشهدا رهيبا أن ترى تلك النهاية المأساوية لقائد كبير كان دائما مخلصا للملوك الذين خدمهم.

* *عرض ابن عزوز ستمائة ألف مثقال ثمنا لفديته :*

بعد الباشا جودر جاء دور القائد سعيد بن عزوز الذي طلب من الخصيان أن يذهبوا إلى مولاي عبد الله ويخبروه أنه يقدم ستمائة ألف مثقال ثمنا لحياته، (قيمة كل مثقال عشرون ريالا). لكنهم أخبروه أنه لا خلاص له من الموت، وأنه لا حل له إلا التوجه إلى الله، عند ذلك صلى صلاة الموت ثم قطع رأسه.

بعد ذلك أخرج القائدالجاوي لنفس المصير، وكان يتصف بنبل وشجاعة نادرين، ومما ميزه، الود الذي كان يعامل به المسيحيين، ويمكن القول إنه قلما عرفت بلاد المغرب شخصا في مستواه، لذا فإن موته سبب حزنا كبيرا في مملكة المغرب بين البدو والحضر على السواء، وقد توالت على المقصلة بنفس الطريقة رؤوس بقية قواد مولاي أبي فارس.

وبما أن مولاي عبدالله كان شابا تنقصه التجربة الكافية، فإن قواده من الشباب الذي يتصف بعضهم بنوع من الجشع وعدم التريث قالوا له : "*إذا أنت لم تقتلهم يا مولاي فإن أصدقاءهم سيتسربون ليلا ويخرجونهم من السجن، وسيمكنهم بعد ذلك الفرار والالتجاء إلى أي مكان، وسيصعب عليك إذ ذاك وضع يدك عليهم، لأن المغرب كبير شاسع، ومن غير المستبعد أن يشكلوا خطرا حقيقيا عليك، خصوصا وأن لهم صيتا حسنا بين البدو، وقد ينجحون في إعادة مولاي زيدان إلى الواجهة، وإننا بصفتنا خدمك الخصوصيين ننصحك بقتلهم، لأن العدو الميت لا يضر*". كان هذا الكلام كافيا لإقناع مولاي عبدالله باتخاذ قرار قتلهم، كما أن الرسائل التي أوصى هؤلاء بإيصالها إليه لم تصله أبدا لأن قواده حالوا دون ذلك.

وكان مولاي عبدالله عندما خرج من فاس نحو مراكش قد وعد قواده بمنحهم منازل وكذا أملاك قواد مولاي أبي فارس في حالة الانتصار، ولضمان ذلك سلمت لهم رسائل تعهد موقعة من طرف مولاي الشيخ. وقد كانت الرغبة في الحصول على تلك الأملاك هي السبب الحقيقي الذي دفعهم إلى حث مولاي عبدالله على قتل قواد مولاي أبي فارس، وكان تسويغهم هو التالي : "*إذا بقي هؤلاء على قيد الحياة، فإنه من الممكن أن يقوم الملك في المستقبل بسحب هذه الأملاك منا وإعادتها إليهم، لذا ولتفادي حدوث ذلك يجب اقناع مولاي عبدالله بقتلهم*".

** منح مولاي عبدالله لقواده أملاك قواد مولاي أبي فارس :*

لما قتل كل أولئك القواد، قام مولاي عبدالله بتوزيع منازلهم ومزارعهم

على قواده، وهكذا منح مزارع القائد عزوز إلى القائد عبدالله الرايس رئيس فرقة الفرسان، في حين منح منزل وأملاك القائد أحمد بن منصور گوريتو للقائد التطواني رئيس فرقة المشاة، وبنفس هذه الطريقة وزع بقية الأملاك على قواده.

* *منزل القائد عزوز :*

في منزل القائد عزوز عثر على خمسة ومائتي طرد من الريان، وكثير من القماش والحرير والنسيج الحريري المشجر والنسيج الهولندي، وكمية كبيرة من السكر، وعدد مهم من الأدوات المنزلية الفاخرة، ومائة امرأة، وأربعمائة ألف زوج من الألبسة. وقد كان للقائد عزوز بالإضافة إلى ذلك الكثير من المزارع والتي كان يحصل منها كل سنة على عشرين ألف غرارة من القمح وخمسين ألفاً من الشعير وعشرين ألف خروبة من الزيت. أما بالنسبة للنقود فلم يعثر في بيته على شيء منها، لأنه لم يكن يستبعد هزيمة مولاي أبي فارس في يوم ما، لذا كان يهربها إلى قصبة شيدها بالجبال كما سبقت الإشارة، وقد كان له على عهد إقامته بمراكش تواصل مع سكان تلك الجبال الذين أغدق عليهم الهبات وزوجهم بناته. وهكذا ما إن تأكد من هزيمة سيده حتى التجأ إلى تلك القصبة.

* *منزل القائد أحمد بن منصور گوريتو :*

في منزل القائد أحمد بن منصور گوريتو عثر على عشرين وثلاثمائة امرأة، وأربعين ألف غرارة من القمح والشعير وخمسة آلاف خروبة من السمن وأربعة آلاف من الزيت وكمية كبيرة من الأثاث الفاخر المخصص للزخرفة المنزلية، في حين لم يعثر على شيء من المال، لأن ذلك القائد كان يخفيه في مزرعته. لقد كان أحمد بن منصور گوريتو من أغنى سكان بلاد البربر حيث إنه وعلى غرار غيره من القواد كان يشارك باستمرار في الحملات التي ترغم البدو على دفع الجبايات، وكانت هذه الحملات يتم الحسم فيها خلال مدة وجيزة، وذلك بفضل العدد الكبير من الجنودالذين يقومون بها.

* *عيوب ولامبالاة مولاي عبدالله وقواده :*

لقد فتن قواد مولاي عبدالله بالهدايا الرفيعة التي منحهم إياها سيدهم والمتمثلة في المنازل الكبيرة والمزارع الخصبة. وقد اتجهوا إثر ذلك إلى حياة اللهو والترف بمراكش مستأنسين بالعدد الكبير من النساء اللاتي وجدوا في تلك المنازل، ووصلت بهم اللامبالاة لدرجة اعتقدوا معها أن ذلك الترف دائم وهكذا أهملوا أعمالهم وأصبحت كل أمور الحكومة تسير بدون أدنى نظام.

بالنسبة لمولاي عبدالله فإنه نظرا لشبابه وقلة تجربته لم يتردد في الاتجاه كذلك إلى حياة اللهو تاركا أمور الحكم في يد قواده، معتقدا أنهم يديرونها على الشكل اللازم، لكن العكس هو الصواب، حيث إن هؤلاء القواد كانوا يمارسون جميع أنواع الحيف في حق الرعية، كما أنهم لم يترددوا في إهانة قدماء جنود مولاي أبي فارس والسخرية منهم، وكانوا ينعتونهم باليهود. هذه الوضعية لم يتحملها عدد كبير من الجنود الذين رحلوا إلى الجبال حيث مكثوا يتحينون الفرصة قصد الانتقام من الفاسيين الذين يكونون جيش مولاي عبدالله.

* *بداية تحطيم مملكة المغرب :*

لقد كانت بمثابة معجزة أن ينتصر جيش جديد ودون تجربة كجيش مولاي عبدالله على جيش كبير العدد يتميز بتنظيم محكم ويؤطره عدد كبير من القواد النبلاء ذوي التجربة الكبيرة كما هو الشأن بالنسبة لجيش مولاي أبي فارس. لكن الحقيقة أن حسم المعركة لصالح مولاي عبدالله لا يعود إلى جنود فاس، بل إلى النصارى الموجودين بهذا الجيش والذين أطلقوا في الوقت المناسب ثلاث طلقات من المدفعية قتلوا بواسطتها أحد الخيول التي كان يقودها القائد سيدي الجاوي عندما كان متجها للسطو على مخيم مولاي عبدالله. لقد أدى مقتل تلك الخيل إلى قلب الأمور رأسا على عقب، ذلك لأن الرجال المرافقين لسيدي الجاوي كانوا من الجبن لدرجة أنهم ما إن رأوا إحدى الخيول ميتة حتى أداروا لجام خيولهم وولوا فارين، وكان ذلك هو السبب الرئيسي لهزيمة مولاي أبي فارس وبداية تدمير مملكة المغرب.

بعد أن آل أمر مراكش لمولاي عبدالله، قام هذا الأخير بتهييء جيش قصد القيام بإرغام البدو على دفع الجبايات، ولإذكاء الحماس بهذا الجيش دفع له أجوره مقدما، كما ضم إليه عناصر جديدة من أهل مراكش. لقد كان على هذا الجيش أن يقوم بتحركات مستمرة، ذلك أنه بالإضافة إلى عمليات النهب في مختلف ولايات المملكة، كان على فريق منه أن يتجه إلى تاگاوست بولاية درعة، وذلك من أجل جلب مليون أوقية تم بعثها من مملكة غاو، وهي حصة المداخيل الملكية من تلك المنطقة، وكانت قد أرسلت من هناك قبيل هزيمة مولاي أبي فارس.

* *تقصي مولاي عبدالله الأخبار عن جيشه :*

أرسل مولاي عبدالله في طلب هذه المعلومات، حيث وجد أن الجيش يتكون من أربعة عشر ألف رجل كلهم قبضوا أجورهم مقدما، في تلك الأثناء كانت موجة عنيفة من وباء الطاعون تجتاح المملكة وكان الناس يموتون بكثرة بسبب ذلك.

* *تظلمات سكان مراكش إلى مولاي عبدالله.*

قام حينئذ قواد مولاي عبدالله بإلحاق أضرار كبرى بالمزارع الموجودة بضواحي مراكش، وقد حز ذلك في نفوس أصحابها الذين أرسلوا بعض الفقهاء ليقدموا الشكاوى في هذا الشأن إلى مولاي عبدالله، لكن هذا الأخير لم يعر أي اهتمام لذلك معتبرا أن القوة التي يتوفر عليها كفيلة بإسكات كل من يشتكي أو يحتج.

* *مجيء مولاي زيدان إلى ولاية تادلة :*

في تلك الأثناء كان مولاي زيدان قد انتقل من تافيلالت إلى ولاية تادلة حيث كان يرافقه خدمه الذين كان عددهم لا يتجاوز مائة فارس، مع ذلك فقد كان مولاي زيدان يتطلع للحكم حيث تبين له أن غياب النظام وسوء التسيير الذي تعرفه حكومة مولاي عبدالله يمكن استغلالهما لتولي الملك من جديد.

** مراسلة سكان مراكش لمولاي الشيخ :*

كتب سكان مراكش إلى مولاي الشيخ الذي كان يوجد بسيدي يحيى بجوار سلا يدعونه للقدوم إلى مراكش حتى يضع حدا لتصرفات أتباعه، وذلك جريا على عادة ملوك تلك المملكة الذين كانوا ينتقلون إلى الأماكن التي توجد بها الاضطرابات لإعادة الأمور إلى نصابها. وقد أجابهم مولاي الشيخ بالقبول لكنه بين لهم أنه لا ينوي المجيء في وقت قريب كما كانوا يتمنون. هذا الجواب خلف خيبة أمل عند سكان مراكش وكذا البدو لأنهم كانوا ينتظرون زيارة مولاي الشيخ بشغف كبير، وذلك بسبب تذمرهم من سوء تسيير وقسوة مولاي عبدالله وقواده.

**انضمام الباشا سليمان القرطبي إلى مولاي زيدان :*

في تلك الأيام طلب أحد القواد العلوج الذين يعملون في جيش مولاي عبدالله واسمه القائد عبدالله گوتيري من الباشا سليمان القرطبي أن يمنح كمية من المال إلى مولاي عبدالله وذلك على اعتبار أن هذا الأخير منحه المنزل الذي يقيم به وعدداً من الأملاك الأخرى، وقد رد عليه الباشا بالإيجاب، لكنه في نفس اليوم وبحجة الذهاب إلى الاستراحة في المزرعة التي يمتلكها خارج المدينة، فر هو وابنه القائد أحمد بن سليمان والتحقا بمولاي زيدان الذي كان يوجد في تادلة، والتي تبعد عن مراكش بمدة يومين.

** إعلان سكان مراكش بيعتهم لمولاي زيدان :*

وبما أن الباشا سليمان القرطبي كان شخصية مهمة ومعروفة، فإن هربه خلف صدى واسعا بين سكان مراكش وكذا البدو المقيمين في ضواحيها، وكانوا قد فقدوا كل أمل في مجيء مولاي الشيخ. ومع عدم قدرتهم تحمل المزيد من غطرسة جنود مولاي عبدالله فقد كتبوا إلى مولاي زيدان يطلبون منه الانتقال إلى أحواز مراكش ووعدوه بأنه سيلقى الدعم الضروري من طرف الكثير منهم ليتولى الملك. وقد شاع خبر وصول مولاي زيدان إلى مراكش

بين سكان الجبال حيث بدأ بعض قدماء جند مولاي أبي فارس الموجودين بها ينضمون إليه. في تلك الأثناء كتب القائد أحمد بن منصور گوريتو إلى مولاي زيدان يخبره عن الجبل الذي يوجد به ويظهر له استعداده لمساعدته، وقد رد عليه مولاي زيدان بأنه سيمر به وأنه سيلقى منه المعاملة الحسنة، كما وعده بأنه سيعيد له مزارعه ومنازله الموجودة بمراكش إذا ما قدر الله له دخولها.

** انضمام أحمد بن منصور گوريتو إلى صف مولاي زيدان :*

كانت للقائد أحمد بن منصور گوريتو أموال كثيرة مخفية في منازله الموجودة بمراكش، وبما أن أمله تلاشى في عودة مولاي أبي فارس إلى مراكش فإنه انضم إلى الرجال الذين يرافقون مولاي زيدان، في نفس الوقت انضم إليهم القائد أحمد بن إبراهيم السفياني[1]، وهو قائد أهم مجموعة من البدو بالمملكة، بالإضافة إلى هذين القائدين كان مع مولاي زيدان ثمانية من كبار القواد العلوج. وقد سمح انضمام كل هؤلاء إلى صفوفه بذيوع صيته بشكل واسع، كما رفع ذلك من معنوياته وزاد من جرأته، وقد اقترب على إثر ذلك من أبواب مراكش وأقام مخيمه بجوارها، وكان يتألف من خمس عشرة خيمة كما كان يتوفر على خمس قطع صغيرة من المدفعية.

** دخول الباشا مصطفى إلى مراكش :*

بعد إقامة المخيم أمر مولاي زيدان الباشا مصطفى وهو علج أصله من كورسيكا بأن يدخل مراكش ليلا، وقد نجح هذا الأخير في ذلك خصوصا وأنه لم تكن توجد أية حراسة بالمدينة، حيث إن الإهمال في صفوف جيش مولاي عبدالله وصل لدرجة أنه لم يعلم شيئا عن المخيم الذي أقامه مولاي زيدان عند أبواب المدينة.

---

(1) - هو ابن وزير أحمد المنصور إبراهيم السفياني.

* *قتل الباشا مصطفى للقائد الرايس :*

عند دخوله إلى مراكش انتقل الباشا مصطفى إلى منزل القائد الرايس رئيس فرقة الفرسان في جيش مولاي عبدالله، وقام بقطع رأسه ووضعه فوق رمح تركه وسط الساحة الكبرى للمدينة. بعد ذلك دخل إلى السجن وأطلق سراح السجناء، ثم انتقل إلى منزل أحمد بن منصور گوريتو، حيث كان يقيم القائد التطواني رئيس فرقة المشاة في جيش مولاي عبدالله، لكن هذا الأخير ما كاد يحس بالخطر حتى صعد إلى برج الدار، وبدأ في الدفاع عن نفسه. وقد استعصى على الباشا مصطفى إصابته بأذى، لكنه استطاع السطو على كل ما يوجد بالمنزل، ثم قام بعد ذلك مباشرة بالتجول في كل أنحاء مراكش، إذ كان ينادي بمولاي زيدان ملكا، ولم يغادر المدينة إلا مع طلوع النهار، حيث عاد إلى مخيم مولاي زيدان دون أن يفقد ولو شخصا واحدا من رجاله. أمام كل هذا لم يتردد عدد كبير من الناس وبعض الجنود في الانتقال إلى صف مولاي زيدان، حيث انضم إليه ثلاثمائة من الفرسان وستمائة من المشاة.

* *لا مبالاة مولاي عبدالله :*

على الرغم من أن السكان كانوا يتعاطفون مع مولاي زيدان، فإنهم لم يجرؤوا على إظهار عدائهم علنا لمولاي عبدالله وذلك خوفا من انتقامه. أما مولاي عبدالله فإنه أثناء الهجوم الذي قام به الباشا مصطفى كان يوجد في قصره مع عدد قليل من حرسه الخاص لذا لم يجرؤ على الخروج للمواجهة.

* *شجاعة الباشا مصطفى :*

في صباح ذلك اليوم وقبل مغادرته مراكش، قام الباشا مصطفى بعملية سطو سريعة أخذ فيها عددا غير محدد من الخيام وثلاث قطع من المدفعية، لكن بسبب تدخل فرق النجدة اضطر إلى ترك الخيام وكذا قطع المدفعية التي كان قد استولى عليها، وبالرغم من ذلك فقد سبب فزعا كبيرا في صفوف جيش مولاي عبدالله.

** خروج مولاي عبدالله على رأس جيشه للمواجهة :*

اتجه مولاي عبدالله على رأس جيشه إلى المكان الذي كان يوجد فيه مولاي زيدان، حيث اضطر إلى كسر الأبواب للخروج من المدينة لأن مولاي زيدان قام بالاستيلاء على مفاتيحها. وكان مولاي عبدالله قبل خروجه من مراكش قد استدعى قواده قصد الاستشارة في شأن الخطة التي يجب اتباعها من أجل إبعاد مولاي زيدان عن المكان الذي كان يوجد به وقد اختلفت الآراء في هذا الصدد.

** رأي القائد عبدالله گوتيري Gutierre :*

حاول بعض القواد وعلى رأسهم عبدالله گوتيري، وهو رجل خبير في شؤون الحرب ويتصف بشجاعة قل نظيرها، أن يبينوا لمولاي عبدالله أنه لا داعي للذهاب لمواجهة مولاي زيدان الذي لا يشكل أي خطر على الرغم من المكان الاستراتيجي الذي وضع فيه مخيمه، لأنه لا يتوفر إلا على عدد قليل من الجنود. وقد اقترح هؤلاء القواد على مولاي عبدالله أن يحصر مهمة جيشه في مراقبة تحركات رجال مولاي زيدان الذي سيضطر في النهاية إلى تحطيم نفسه بنفسه.

** قرار مولاي عبدالله الذهاب لمواجهة العدو :*

لكن مولاي عبد الله لم يقبل هذا الرأي ووضح لأصحابه أنه يخاف من تفاقم خطر مولاي زيدان على الرغم من العدد القليل من الجنود الذين كانوا يوجدون معه آنذاك. لذا أمر أن يتجه الجيش لتوه إلى المكان الذي يوجد فيه العدو، وقد وافق القائد عبد الله الرايس على رأي مولاي عبد الله وكان ذلك خطأ فادحا من هذا القائد العارف بأمور الحرب. أما فيما يتعلق ببقية القواد فلم يدلوا بأي رأي في الموضوع ذلك لأنهم كانواحديثي العهد بالمهنة وليست لهم تجربة تذكر في ميدان القتال.

** إدلاء قائد النصارى برأيه أمام مولاي عبد الله :*

بالنسبة لقائد النصارى الذين كانوا يشكلون فرقة المدفعية، فإنه لما رأى تعاطف السكان مع مولاي زيدان اقترح أن يتم نقل سلاح المدفعية إلى مرتفع تظهر منه كل مراكش، ويتم إطلاق القذائف على السكان، وبذلك يأتون مرغمين لتقديم الطاعة لمولاي عبد الله و يتخلوا عن دعمهم لمولاي زيدان، لكن هذا الرأي لقي الرفض حيث أجيب هذا القائد، أن تلك ماهي إلا نصيحة نصراني هدفه قتل أكبر عدد من المسلمين .

** المكان الذي أقام به مولاي زيدان مخيمه :*

كانت جيوش مولاي زيدان تقيم بالقرب من أحد أبواب المدينة، حيث تمركزت في ساحة كبيرة يحيط بها سياج مرتفع، وقد أمر بأن توضع ثلاث قطع من المدفعية كان قد استقدمها معه على ظهر الجمال، في مدخل الشارع الذي يؤدي إلى تلك الساحة وهي نفس الطريق التي ستنهجها جيوش مولاي عبد الله.

بالنسبة لمولاي عبدالله فإن قائد النصارى اقترح عليه استعمال المدفعية لتحطيم الأسوار التي تشكل عائقا يحول دون الوصول إلى العدو، حيث إن الشارع يصبح ضيقا بسببها مما يسمح للعدو على الرغم من قلة عدد أفراده أن يظهر بمظهر القوي وكأن معه عددا كبيرا من الجنود ،بخلاف ذلك فإن تحطيمها يصبح معه العدو مكشوفا عن بعد، مما سيضطره وبفضل استعمال سلاح المدفعية وحده إلى الانسحاب من المكان الذي يوجد فيه بعد أن يتكبد الهزيمة. وعلى الرغم من صواب هذا الاقتراح فإنه لم يلق أي اهتمام من طرف مولاي عبد الله و قواده الذين اعتبروا ذلك من بدع النصارى وقرروا الزحف نحو المكان الذي يوجد فيه العدو قصد المواجهة المباشرة.

** الخطة التي اتبعها مولاي عبد الله في مواجهة مولاي زيدان:*

في طليعة جيش مولاي عبدالله كان يوجد القائد عبد الله گوتيري الذي يقود فرقة الفرسان العلوج من حملة البنادق، بينما حل مولاي عبد الله بالقلب في حين أن الساقة كان يوجد فيها الأثاث الذي تحمله مجموعة من الجمال. وكانت الخطة تتلخص في تسرب كل هؤلاء الجنود من الأزقة التي تؤدي إلى المكان الذي يوجد به مولاي زيدان، لكن وبسبب ضيق هذه الأزقة لم يكن بالأمكان أن يمر بها أكثر من ثلاثة أو أربعة أشخاص في وقت واحد.وما إن وصلت طليعة هذا الجيش إلى بداية الشارع حتى أمر مولاي زيدان أن تطلق المدافع الثلاثة التي توجد بها قذائفها، ذلك لأنها كانت الوسيلة الوحيدة التي يمكنه أن يدخل بها المعركة في غياب العدد الكافي من الجنود.

** المواجهة بين مولاي عبدالله ومولاي زيدان :*

كانت هذه المدافع موضوعة فوق بعض الحجارة، وبسبب الغبار الذي كانت تخلفه الخيول التي تمتطيها طليعة جيش مولاي عبدالله فإن المدافع لم تكشف لهم، لذا لما أطلقت نيرانها كانت مفاجأة كبرى عم خلالها الذعر فرقة الفرسان التي أدار أفرادها لجام خيولهم وفروا بسرعة فائقة، مما جعلهم يدوسون فرقة المشاة التي همت كذلك بالفرار. وقد أدى هذا الاضطراب إلى دخول عدد منهم إلى بعض الأزقة الضيقة جدا مما أدى إلى اختناقهم بسبب الحرارة والغبار المتطاير.

** فرار مولاي عبدالله :*

لما رأى مولاي عبدالله كل ذلك، لاذ بالفرار ومعه كل الفرسان الذين يرافقونه، لكنه اصطدم في طريق العودة بالجمال التي كانت محملة بالبضائع، وقد أصيبت هذه بالذعر، إذ ارتمى أحدها على الأرض، فتبعته

بقية الجمال، وقد أدى ذلك وبسبب ضيق الشارع إلى انسداده نهائيا لدرجة تعذر معها المرور على مولاي عبدالله ومن معه، ومن حسن حظه لم يكن العدو يلاحقه آنذاك، حيث إن هذا الأخير لم يأت إلا فيما بعد.

* *فقدان مولاي عبدالله لمجوهراته :*

وقد اضطر مولاي عبدالله إلى النزول عن حصانه وتسلق السور حتى يمكنه الخروج من الشارع، إثر ذلك أمر خدمه بمناولته كيسا يضعه في قربوس المقعد، وكان هذا الكيس مليئا بالمجوهرات من ياقوت وماس، وجدها بالقصر الملكي، لكن عند اتجاه الخدم للمطية لم يعثروا على الكيس ولم يعرف من سطا عليه، مع ذلك فقد اضطر مولاي عبدالله للانسحاب لأن الوقت لم يكن مناسبا للتحريات.

* *ارتكاب مولاي عبدالله لخطأ فادح بعدم دخوله إلى القصبة :*

فر مولاي عبدالله وهو في حالة مضض شديد بسبب فقدانه لمجوهراته، وقد طلب منه بعض خدمه أن يدخل لتوه إلى القصبة حيث ترك ألفي جندي من حملة البنادق، لكنه رفض ذلك واتجه هاربا نحو مدينة فاس برفقة ستة أو سبعة من الفرسان.

* *شجاعة النصارى الذين قتلوا في المعركة :*

إثر ذلك فر من المعركة كل جند مولاي عبدالله باستثناء النصارى الذين كانوا يتولون أمر سلاح المدفعية، حيث مكثوا يقاومون لأكثر من ساعة، لكن في النهاية قتلوا كلهم.

وقد وصل عدد الجنود الفارين إلى أربعة آلاف، وكان هذا العدد كافيا لمواجهة مولاي زيدان، خصوصا وأن جلهم من قدماء الجند ومن أحسن ما يوجد بالمملكة، لكن بما أن المغاربة لا يحسنون القتال إلا في الأراضي المستوية واسعة الفضاء، فإنهم لم يغامروا بالقتال في تلك الأزقة الملتوية، وفضلوا الالتجاء إلى القصبة حيث امكانية النجاة مضمونة. في نفس اليوم

وبعد انتهاء المعركة بعث مولاي زيدان برسالة إلى الجنود الملتجئين في القصبة يطلب منهم فتح الباب، وقد جاء بنفسه بعد ذلك معتقدا بأنهم سيفتحونها، لكن هؤلاء رفضوا ذلك مما اضطره إلى العودة إلى مكان إقامته. في تلك الأثناء قام شخص يدعى إبراهيم شامورو *Chamorro*، وكان لمنزله اتصال مباشر مع القصبة بواسطة نفق، بإطلاق كميات من البارود والرصاص على الجنود، لكن لم يكن لها أي تأثير.

* *استسلام جنود مولاي عبدالله :*

أرسل مولاي زيدان الباشا سليمان للتفاوض مع الجنود الموجودين في القصبة، وقد قبل هؤلاء أن يسلموا القصبة والسلاح على شرط أن يتركهم مولاي زيدان يذهبون أحرارا إلى حال سبيلهم. إثر ذلك انسحب الباشا سليمان ليخبر مولاي زيدان بالاقتراح، وقد تظاهر هذا الأخير بالقبول وأمر نفس الباشا بالعودة إليهم وإخبارهم بموافقته، وأرسل معه خاتمه وسبحته عربونا على التزامه بكلمته، إثر ذلك ترك الجنود القصبة وسلموا الأسلحة.

* *تراجع مولاي زيدان عن كلمته وأمره بذبح جنود مولاي عبدالله :*

عندها دخل مولاي زيدان إلى القصر الملكي، وأمر بأن يذبح كل جنود مولاي عبدالله، وقد كانت خسارة كبرى أن يذبح أربعة آلاف من أحسن جنود المملكة كما تذبح الشياه. بعد ذلك قام اليهود بجر جثثهم في الشوارع وكانوا يعزفون على آلات موسيقية منشدين أشعارا تمجد مولاي زيدان وتستهزئ بالفاسيين. وعند وصولهم إلى المكان المحدد لترك الجثث فتحوا بطون القتلى وبدأوا يعبثون في أمعائهم ليتأكدوا من أن أحدا منهم لم يبتلع كمية من الذهب. لقد كان من الفظاعة بمكان أن ترى ذلك المشهد بين بني البشر.

* *عدد القتلى :*

وقد قتل في تلك المعركة خمسمائة وألفان من جنود مولاي عبدالله وعشرون ومائة نصراني وأربعة وثلاثون أسيرا إسبانيا، وإذا أضفنا إلى

هؤلاء من أمر مولاي زيدان بذبحهم، فإن عدد القتلى يصل إلى أربعة وخمسين وستمائة وستة آلاف. من كل هؤلاء لم يمت في حالة مواجهة مع العدو إلا القائد عبدالله گوتيري وأخ له ثم النصارى الذين كانوا يتولون أمر المدفعية.

** أخطاء مولاي عبدالله وسبب هزيمته :*

لقد ارتكب مولاي عبدالله عددا من الأخطاء على رأسها قتله للكثير من كبار القواد الذين كانوا في الأصل من الحرس الخاص لجده مولاي أحمد، وعدم إرساله الجيش لأخذ الجبايات من الأعراب عوض تركه يقوم بنهب سكان مراكش، لكن أكبر هذه الأخطاء يتمثل في عدم أخذه بنصيحة قائد فرقة النصارى والتي تتلخص في الاستفادة من المدفعية لمهاجمة المكان الذي يحتمي فيه مولاي زيدان، وفي منحه أملاك الخواص للقواد، مما جعل سكان مراكش يحقدون عليه بشكل كبير.

** الخطأ الذي ارتكبه مولاي الشيخ بعدم قدومه إلى مراكش :*

كما أن مولاي الشيخ ارتكب خطأ فادحا بعدم قدومه إلى مراكش بعد انتصاره على مولاي أبي فارس، لأن السكان كانوا يتمنون ذلك، وهكذا بعد فقدانهم الأمل في مجيئه، وعدم قدرتهم تحمل المزيد من غطرسة مولاي عبدالله ورجاله، نادوا مولاي زيدان.

وقد بقي مولاي عبدالله ملكا على مراكش خمسة وسبعين يوما، ولو كانت عنده الشجاعة للالتجاء إلى القصبة بدل الفرار لما فقد شيئا، لأن الجنود ما كانوا ليستسلموا لمولاي زيدان لو كان هو برفقتهم. أكثر من ذلك حيث إن وجوده بجانبهم كان بإمكانه أن يرفع من معنوياتهم، وبذلك يتمكنون من القضاء على مولاي زيدان وكل من معه، لكن شيئا من ذلك لم يحدث، وهكذا فإن مولاي عبدالله الذي كان لعامل الحظ دور كبير في دخوله لمراكش والسيطرة عليها، عاد ليفقدها بسبب سوء الحظ.

* *عجرفة مولاي زيدان :*

إن المعجزة التي حققها مولاي زيدان بانتصاره على مولاي عبدالله خلقت عنده نوعا من العجرفة والغرور، وهكذا بعد ثمانية أيام من دخوله مراكش، وبعد أن قتل كل أعدائه، أعلن بها عفوا عاما، وكان أمر العفو الذي أصدره مسبوقا بالعبارة التالية : "*بأمر من الطاهر والمنقذ العظيم يحفظه الله*". هذه العبارة هي التي كان يختم بها عادة الرسائل والبيانات التي يصدرها.

وحتى يظهر قدسيته بشكل أوضح، أعلن أن كل السكان الذين أصابهم ضرر في أملاكهم من طرف جنوده أو جنود عدوه، عليهم الإخبار بذلك حيث سيقوم بتعويضهم عن كل ما فقدوه، مدعيا أنه من غير المعقول أن تعاني الرعية عواقب الصراعات الخاصة التي تنشب بين أمرائها، لكنه في الحقيقة لم يدفع أي شيء للمتضررين، ذلك لأن تلك الكلمات المعسولة لم تكن أكثر من أكاذيب وكان الناس قد صدقوه في البداية وأحبوه بشكل كبير، خصوصا وأنه حرص على أن يظهر بصورة الملك العادل ؛ لأجل ذلك سعى إلى استتباب الأمن، حيث لم يعد بإمكان البدو التجرؤ على السرقة كما كانوا يفعلون من قبل. لكن هذه السمعة الرفيعة لم تدم إلا وقتا قصيرا، ذلك أنه سرعان ما ظهر على صورته الحقيقية، فبدأ يمارس جميع الطرق غير المشروعة ليبتز أموال الأهالي، وكان قد وقف في وجه تصرفاته هذه القائد أحمد بن منصور گوريتو، لكنه عاقبه بقسوة كبيرة، وحرمه من كل أملاكه والتي كان هذا العلج المسكين قد كسبها بفضل عمله وكده، وأمر ببيع كل تلك الأملاك وسجن صاحبها الذي لم يطلق سراحه أبدا، وبنفس هذه القسوة عامل الكثيرين، خصوصا نساء القصر الملكي، اللواتي قتل الكثير منهن قصد الاستيلاء على أملاكهن.

وكان مولاي زيدان مدمنا على تناول الأفيون الذي كان يؤثر عليه بشكل كبير حيث يجعله في حالة هيجان تام لدرجة أن أحدا لا يجرؤ على

التحدث إليه عندما يكون تحت تأثير المخدر. وبسبب إدمانه هذا تأخر كثيرا عن تنظيم أمور حكومته بعد أن دخل مراكش، حيث لم يدفع أجور الجند إلا بعد مرور ثلاثة أشهر على المعركة. في تلك الأثناء أمر كذلك الباشا سليمان القرطبي بأن يعيد جمع كل جنود الشراركة الذين بقوا من جيش مولاي عبدالله.

*** ذهاب الباشا سليمان مع الشراركة إلى تافيلالت :**

جمع مولاي زيدان حوالي ستمائة من الشراركة دفع لهم أجورهم مقدما لمدة ستة أشهر بالإضافة إلى اللباس، وقد أرسلهم مع بعض العلوج ومائتين من الفرسان إلى تافيلالت. وبعد أن وضع على رأسهم الباشا سليمان الذي زوده بتعليمات تتلخص في أن ينتظر هناك إلى غاية تلقيه أوامر بشأن ذهابه إلى مملكة غاو حيث سيتولى منصب نائب السلطان.

*** ذهاب الباشا مصطفى على رأس جيش مكون من اثني عشر ألف رجل إلى فاس :**

بموازاة ذلك أرسل مولاي زيدان الباشا مصطفى إلى ممكلة فاس على رأس جيش قوامه ثمانية آلاف رجل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان كلهم تقاضوا أجورهم بسخاء، كما قام مولاي زيدان بنقل محلته إلى خارج مراكش، حيث أقامها على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة.

*** تفشي وباء الطاعون في مراكش :**

في تلك الأثناء كان وباء الطاعون قد تفشى في كل المملكة، وفي مراكش وحدها كان عدد الموتى أحيانا يصل إلى ألفين في اليوم، بالإضافة إلى البدو سكان الأحواز.

وكان يوجد بالمملكة آنذاك أحد عملاء ملك فرنسا، وقد بعث مولاي زيدان من يأمره بمغادرة المغرب في مدة أقصاها ثمانية أيام، وهدده بالقتل إذا لم يقم بذلك في الأجل المحدد.

* *حصول مولاي زيدان على المجوهرات التي فقدها مولاي عبدالله :*

هذه المجوهرات كان قد سرقها أحد الأعراب الذي عاد إلى مراكش لبيعها بعد أن استتب الأمن، وقد فعل ذلك بكامل السرية، وهكذا وبواسطة أحد اليهود قام تاجر إسباني اسمه "دييكو دي كوسكاي" *Diego de Cos-gay* باقتناء بعضها، حيث اشترى ما قيمته نصف مليون دوقة بألف فقط، كما أن تجارا آخرين فعلوا الشيء نفسه، لكن أمر هذا الأعرابي سرعان ما افتضح، حيث قبض عليه مولاي زيدان وارغمه على الاعتراف بمكان المجوهرات، عند ذلك ألقي القبض على التجار الذين ابتاعوها، والذين اضطروا إلى تسليمها لمولاي زيدان دون أن يستعيدوا شيئا من أموالهم التي آل مصيرها إليه كذلك.

* *مجيء فرسان انجليز للعمل مع مولاي زيدان :*

في تلك الأيام نزل بميناء آسفي ثلاثة فرسان وعشرون ومائة جندي انجليزي، وقد أرسلوا إلى مولاي زيدان يعرضون خدماتهم عليه، حيث أخبروه أنهم تركوا بلادهم لذلك الغرض. وقد استقبلهم مولاي زيدان بحفاوة كبيرة، حيث قدم لهم عدة هبات وعين أكبرهم قائدا للمدفعية، وكان اسمه "يعقوب جيفارد" *Jacob Gefard* في حين أرسل آخر إلى انجلترا بعد أن أمره بأن يستقدم أكبر عدد ممكن من المحاربين، لكن هذا الأخير توفي على ظهر الباخرة قبل وصوله إلى بلاده وبذلك لم يتحقق ما أمر به مولاي زيدان. وقد جاء بعد ذلك ستة فرسان آخرين فقط وكان يرافقهم عدد من خدمهم ومساعديهم، هؤلاء وشأن سابقيهم استقبلهم مولاي زيدان كذلك بحفاوة كبيرة وقضى في مجالستهم وقتا طويلا.

* *استيراد عشرين قطعة من المدفعية من انجلترا :*

وقد تم استجلاب عشرين قطعة من المدفعية من انجلترا بالاضافة إلى متخصصين في استعمالها، لكن في النهاية لم تتم الاستفادة منها.

في تلك الأثناء كان مولاي زيدان قد أمر بأن تصادر أملاك كل التجار النصارى ويتم أسرهم إذا لم يغادروا مملكته في مدة أقصاها شهر واحد.

** موت الباشا سليمان القرطبي بتافيلالت:*

في الثاني عشر من غشت جاء أحد الفرسان الذين كانوا يعملون في الكتيبة التي كان يقودها سليمان القرطبي وأخبر مولاي زيدان أن الشراركة قاموا بقطع رأس الباشا سليمان القرطبي، وأنهم استولوا على الخيام وبقية الأثاث وذهبوا إلى مملكة فاس عند مولاي عبد الله.

** مولاي زيدان يأمر بقتل كل الشراركة الموجودين بمراكش:*

وقد تأسف مولاي زيدان كثيرا لذلك، لدرجة أنه أمر بقتل كل الشراركة الذين يقيمون بمراكش بما في ذلك النساء والأطفال، وهكذا أدى الأبرياء ثمن خطأ المذنبين. إنها عدالة البرابرة !

لما علم شراركة فاس أن مولاي زيدان قام بقتل كل أبناء طائفتهم المقيمين بمراكش، أقسموا كلهم بأن لا يكونوا أبدا من أتباعه، وأن يضعوا أنفسهم وأملاكهم تحت تصرف مولاي عبد الله قصد الانتقام من عدوهم.

** الصفات التي كان يتسم بها الباشا سليمان:*

يعود أصله إلى قرطبة، وكانت عائلته تنتمي إلى الطبقة النبيلة بهذه المدينة، وقد أسر في ميناء الگلية بتونس حيث اشتراه من هناك مولاي عبدالملك واستقدمه إلى مملكة المغرب، وكان يتميز بعدة خصال حميدة على رأسها الشجاعة، الشيء الذي جعل سيده يعده بأن يجعله من أقرب رجاله إذا ما اعتنق الإسلام، وبما أنه كان قد فقد أمله تقريبا في الحصول على حريته فقد قبل بذلك العرض. وباستثناء الخطا الفادح الذي ارتكبه في ترك دينه، فإنه لا يمكن أن يلام على ما دون ذلك، حيث كان دمث الأخلاق، وفيا لسيده، رحيما النصارى، وكان يعامل الجميع معاملة حسنة. وقد عين في

عدد من المناصب السامية منها كبير فرسان الملك مولاي أحمد، ثم نائب السلطان في غاو.

** فقدان مولاي زيدان احترام الأعراب :*

في تلك الأيام بدأ يتلاشى الاحترام الذي كان يكنه البدو لمولاي زيدان، حيث عادوا إلى قطع الطرقات لدرجة انعدم معها التبادل التجاري على امتدادها. وبما أن البدو لم يكونوا قد زرعوا الأراضي بسبب القلاقل التي عرفتها المنطقة، فإن ذلك نجم عنه خصاص كبير في المواد الفلاحية مثل القمح والشعير.

** مولاي زيدان يرسل من يجلب مليون أوقية نقلت من غاو إلى تاگاوست.*

أرسل مولاي زيدان حملة إلى ولاية درعة لجلب مليون أوقية كان قد تم نقلها من غاو أياما قليلة قبل هزيمة مولاي أبي فارس، تلك الأموال هي التي كان يترتب على مملكة غاو دفعها لملك المغرب، وقد كان الباشا جودر يعتزم الاتجاه من درعة حيث كان يوجد، إلى تاگاوست لجلبها، لكن بما أن مولاي أبا فارس أرسل في استدعائه بشكل مستعجل، فإنه لم يتمكن من القيام بذلك، كما أن مولاي عبد الله خلال فترة حكمه بمراكش لم يبعث أحدا لجلبها وهكذا سيؤول مصيرها في النهاية إلى مولاي زيدان.

** انتصار مولاي عبد الله على الباشا مصطفى :*

بدأ جيش الباشا مصطفى في التوغل داخل مملكة فاس، وكان يقوم بنهب كل مناطق الأعراب التي يمر بها، واستطاع بذلك أن يجمع أموالا كثيرة في أيام معدودة. إثر ذلك خرج مولاي عبد الله للقائه وبمعيته خمسمائة وثلاثة آلاف من المشاة فقط وبعض المغامرين من الفرسان، وقد تمت المواجهة قرب نهر تفلفل حيث تمكن مولاي عبد الله من الانتصار على الباشا مصطفى بالرغم من الجيش الكبير الذي كان يرافقه، وأرغمه على الفرار في

اتجاه مراكش برفقة ثلاثين من الفرسان حيث دخل ليلا إلى مخيم مولاي زيدان.وقد وصل عدد الموتى في صفوف جيش الباشا مصطفى إلى ثلاثين وستمائة، في حين لم يمت ولو شخص واحد من جانب مولاي عبد الله.

** استعادة مولاي عبد الله سمعته الطيبة :*

أعاد هذا الانتصار بعض الاعتبار إلى مولاي عبد الله، بعد أن كانت سمعته قد عرفت نوعا من الاهتزاز إثر هزيمته وفراره من مراكش. وقد غنم مولاي عبد الله بعد المواجهة كل العتاد الذي اضطر الباشا مصطفى إلى تركه، مما سمح له بتكوين جيش من ستة آلاف من المشاة المسلحين بالبنادق وألفين من الفرسان، وقد بدأ بعد ذلك في التخطيط للقيام بحملة على مراكش.

** التعليلات التي قدمها مولاي زيدان إلى سكان مراكش:*

لما علم مولاي زيدان بانتصار مولاي عبد الله وتوجهه إلى مراكش ترك معسكره وعاد إلى المدينة حيث استدعى الفقهاء والأعيان لتناول وجبة الغداء في قصره، بعد ذلك ألقى فيهم خطابا مطولا ذكرهم فيه بأنهم نادوه ليكون ملكا عليهم، وأنهم يتحملون العواقب إذا ما دخل مولاي عبد الله إلى مراكش، لذا حثهم على ضرورة مقاومته، ولتحقيق ذلك طلب منهم أن ينضموا إلى صفوفه هو. وقد قبلوا بكل غبطة، حيث أظهروا له التأييد اللازم، وطلبوا منه أن يناديهم عندما يحين وقت المواجهة.

وفي تلك الأثناء دخل الباشا مصطفى إلى مراكش حيث باع مجوهراته وأثاث منزله وكذا أملاكه وبدأ يدفع أجور الجند من ماله الخاص، وقد كون جيشا من ألفين من المشاة وخمسمائة من الفرسان. وبما أن البنادق لم تكن موجودة فلقد أرسل للبحث عنها في الجبال، كما أن الخيول اشتراها من ماله الخاص، وقد أظهر بتصرفه ذاك إخلاصا ووفاء كبيرين لسيده.

* *معلومات عن جيش مولاي زيدان :*

أمر مولاي زيدان بأن يقدم له تقرير عن عدد الجنود الذين يتألف منهم جيشه، وقد وصل عدد أفراده بعد انضمام العديد من سكان مراكش إلى أربعة عشر ألفاً ما بين فرسان ومشاة، لكن لم يكن يتوفر منهم على الأسلحة إلا خمسة آلاف.

فيما يتعلق بالمؤونة، كان مخيم مولاي زيدان يعرف خصاصا كبيرا، ذلك لأن الأعراب بالإضافة إلى قيامهم بقطع الطرقات، كانوا يرفضون تزويد المخيم بالمؤونة، وقد أدى ذلك إلى فرار عدد كبير من الجنود قبل بداية المعركة.

* *أمر مولاي زيدان بقتل ثمانية من القواد العلوج من جيش مولاي عبد الله :*

من بين الأسرى الذين بقوا في سجن مولاي زيدان من معركته الأولى ضد مولاي عبد الله، هناك ثمانية من كبار القواد العلوج، الذين أمر مولاي زيدان بقطع رؤوسهم عندما علم باقتراب جيوش مولاي عبد الله من مراكش. ولما أخرج هؤلاء من السجن قصد تنفيذ حكم الإعدام فيهم، طلب منهم التلفظ بالشهادتين، فرد أحدهم قائلا بأن الله لم يأمره بذلك، وأنه يريد الموت كنصراني، لذا يتوجه في صلاته الأخيرة إلى المسيح، وصاح إثر ذلك: "*عاشت الديانة النصرانية التي ولدت على مبادئها، وإنني أطلب منها وحدها النجاة*". عندها انهالت عليه الضربات التي أردته قتيلا.

وقد تم مد جثث هؤلاء العلوج بجوار باب القصبة، والحقيقة أن مولاي زيدان كان قاسيا جدا في أمره بقتلهم خصوصا وأنه لم يسبق لهم أن مسوه بسوء، لكن يظهر أن ما أصاب هؤلاء من عقاب كان انتقاما من الله لأنهم كانوا وراء دفع مولاي عبد الله لقتل كبار قواد جيش مولاي أبي فارس.

** اقتراب جيوش مولاي عبد الله من مراكش:*

في العشرين من دجنبر أصبح جيش مولاي عبدالله على مقربة من مخيم مولاي زيدان، إلا أن المواجهة بين الطرفين سوف تتأخر ثمانية أيام بعد ذلك، ويرجع سبب هذا التأخر إلى الأمطار الطوفانية التي كانت تتساقط على المنطقة.

** قدرات جيش مولاي عبد الله:*

كان لجيش مولاي عبد الله كل الوسائل الضرورية للمواجهة، كما أن معنويات الجنود كانت مرتفعة وذلك بسبب الثروات التي حصلوا عليها من أعمال النهب التي قاموا بها في كل المناطق الموجودة بين فاس ومراكش. وقد كان هذا الجيش يرغم سكان المناطق التي يمر منها وجريا على العادة السارية بهذه البلاد بالتكفل بكل حاجيات إقامته.

** انعدام الحاجيات الضرورية في مخيم مولاي زيدان:*

على عكس ما كان عليه الحال في مخيم مولاي عبد الله فان مخيم مولاي زيدان كانت تنقصه المواد الأساسية المخصصة لتغذية الجنود ، وذلك بسبب امتناع الأعراب من إمداد المخيم بهذه المواد ، وقد كانوا بتصرفهم ذاك يعلنون التحدي ضد مولاي زيدان الذي لم يعد في نظرهم ذلك الملك المهاب. هذا الأخير وبسبب اقتراب العدو من مخيمه لم يكن بإمكانه الضغط على هؤلاء الأعراب قصد الحصول على ما يحتاج إليه، وذلك خوفا من أن ينضموا إلى معسكر العدو.

** قيام مولاي زيدان بحيلة ساذجة :*

كان لمولاي زيدان عدد كبير من الخيام، ورغبة منه في إفزاع العدو، قرر أن تنشر على مساحة واسعة فاقت فرسخا كاملا. ولم يدرك أن قيامه

بذلك سيمنح فرصة أكبر للجنود للفرار، وكان عدد منهم قد بدءوا يفرون بخيامهم وعتادهم إلى معسكر مولاي عبد الله حيث أخبروه بالوضعية التي يوجد عليها جيش مولاي زيدان.

** إرسال مولاي زيدان الباشا مصطفى على رأس ألفي جندي إلى تادلة :*

قرر مولاي زيدان إرسال الباشا مصطفى مع ألفي شخص من المشاة وبعض الفرسان إلى تادلة، وقد أراد أن يوهم العدو بتوجهه إلى فاس، معتقدا أنه بذلك سوف يخلق نوعا من الاضطراب بين الأعداء لكن هؤلاء تنبهوا للحيلة.

وقد كانت تعليمات مولاي زيدان للباشا مصطفى تتلخص في اتجاهه مباشرة إلى فاس إذا ما علم بانتصاره، وإلا فليتجه إلى تافيلالت في حالة الهزيمة، حيث يمكن في هذه الحالة لمولاي زيدان الحفاظ على تافيلالت وفي نفس الوقت يستفيد من هؤلاء الجنود الألفين ليبدأ في تكوين جيش جديد.

** إنذار ذكي من مولاي عبد الله بن الشيخ :*

كان مع مولاي زيدان الكثير من الخيام والعتاد الحربي بما في ذلك المدفعية، بالإضافة إلى عدد مهم من النساء. لكنه لم يكن يمتلك العدد الكافي من الجمال والدواب لنقل ذلك، كما أن الرجال الذين يتألف منهم جيشه وأغلبهم من أهل مراكش أجبروا على الانضمام إلى هذا الجيش، وإذا أضفنا إلى هذا، الخصاص الكبير الذي كان يعرفه مخيم مولاي زيدان في المؤونة، تبين لنا كيف أن مولاي عبد الله نجح في نقل مخيمه إلى أبواب مراكش دون أية عرقلة من عدوه، وذلك قبل أن يتقدم نحو المدينة التي دخلها في يوم الجمعة 28 دجنبر على الساعة الخامسة بعد الظهر، وبهذا الشكل استطاع أن يحقق الانتصار على مولاي زيدان دون أن يضطر إلى خوض أية معركة.

** إرغام مولاي زيدان مولاي عبد الله على المواجهة :*

لما علم مولاي زيدان أن العدو يتجه نحو مراكش، أرسل فرقة الفرسان قصد قطع الطريق عليه، والعمل على تأخيره حتى يمكنه هو الوصول مع فرقتي المشاة والمدفعية، وكان في فرقة الفرسان عدد من العلوج، أظهروا بسالة كبيرة في مواجهة العدو، وبالخصوص شخصين هما القائد محمود الاشبيلي والقائد لبيب الباسكي.

عندما وصل مولاي زيدان على رأس فرقتي المدفعية والمشاة، عمل على قطع الطريق على جيوش مولاي عبد الله، لكنه لم ينجح في ذلك حيث ترك فجوات عدة كان بإمكان العدو المرور منها للدخول إلى مراكش.إثر ذلك وقعت المواجهة بين الطرفين، وعلى الرغم من أن مولاي زيدان كان قد حرم من أكثر من ألفي جندي أرسلهم مع الباشا مصطفى إلى تادلة بالإضافة إلى فرار كثير من الجنود من معسكره، فان عدد الرجال الذين دخل بهم المعركة كان يقدر بحوالي ثمانية آلاف من المشاة وخمسمائة وألف من الفرسان، وأربعمائة نصراني من الأحرار الانجليز والفلاندريين الذين كانوا يتولون أمر سلاح المدفعية والتي كان مولاي زيدان يمتلك أربعا وستين قطعة منها.

** الخطة المتبعة من طرف مولاي زيدان:*

حتى يتعذر المرور على العدو، احتل مولاي زيدان مجالا واسعا حمل إليه سلاح المدفعية التي وضعها بشكل مبعثر، على الرغم من معارضة النصارى الذين كانوا يشرفون عليها. وقد قسم الجيش الذي معه إلى كتيبتين فقط، واحدة للفرسان والثانية للمشاة، هذا التقسيم قام به بشكل تلقائي ودون أي تنظيم مسبق. وقد أبعد عن الكتيبتين نساءه اللائي كان يقدر عددهن بأربعمائة ثم حرسه الذي يقدر عدد أفراده بمائتي شخص بالإضافة إلى عرب الشبانات (أقاربه من جهة أمه) الذين كانوا يوجدون في المخيم.

* *المواجهة بين مولاي زيدان ومولاي عبد الله وانتصار هذا الأخير:*

على الرغم من المظهر الخارجي لجيش مولاي زيدان والذي كان يوحي بالهيبة نظرا لكثرة عدد جنوده، فان مولاي عبد الله لم يتردد في الزحف نحوه، حيث تقدم رجاله صوب المكان الذي يوجد فيه العدو دون إطلاق للنار، إذ إن المواجهة كانت بحد السيف. وقد أذهلت عزيمة رجال مولاي عبد الله وشجاعتهم العدو الذي فر بشكل جماعي ومعه مولاي زيدان، ولم يبق في المواجهة إلا المسيحيون الذين يشرفون على المدفعية، لكن فعالية هذا السلاح في إصابة العدو كانت ضعيفة جدا، لأنه وضع في مكان بعيد عن المكان الذي حدثت فيه المعركة. كما أن العربات التي وضعت عليها المدافع كانت تحترق من الضربة الأولى بفعل الطلقات النارية، أضف إلى هذا أن المدافع - وبغرض إصابة الهدف بفعالية قصوى - شحنت بشكل مبالغ فيه،وقد نجم عن ذلك انفجارها أحيانا من تلقاء نفسها، وهكذا يمكن القول إن سلاح المدفعية لم تتم الاستفادة منه البتة.

* عدد *الموتى في هذه المعركة:*

نشبت المعركة بمنطقة تعرف باسم رأس العين على بعد أربعة فراسخ من مراكش. وقد كان عدد القتلى النصارى الأحرار هو ستا وثلاثين ومائتين من الانجليز والفلاندريين بالإضافة إلى عدد من الأسرى الإسبان. ومن بين الذين ماتوا في المعركة من النصارى هناك قائد المدفعية وكل الفرسان الأنجليز الذين جاؤوا من بلادهم قصد خدمة مولاي زيدان، أما من جهة المغاربة، فقد قتل خمسون وستمائة شخص منهم عدد من كبار القواد مثل القائد جرمان والقائد إبراهيم شامورو وكلاهما من العلوج، ثم القائد أحمد بن إبراهيم السفياني والقائد علي الطاحيلية كل هؤلاء كان لهم شأن كبير في جيش مولاي زيدان.

** منع الخصيان مولاي زيدان الدخول إلى قصره :*

على إثر هزيمته فر مولاي زيدان نحو الجبال، وبعد أن ترك عائلته في مكان آمن، عاد إلى مراكش، وقد دخل في العاشرة ليلا إلى القصبة واتجه نحو قصره، آنذاك كان خبر هزيمته قد وصل إلى الخصيان الذين يعملون بالقصر الملكي والذين أخبروه عندما طلب منهم فتح الأبواب، أن للقصر سيدا جديدا، وأن أم مولاي عبد الله للا البرينية قد أخذت منهم المفاتيح، عند ذلك اتجه إلى دار السكة حيث أخذ كمية من التبر المخصصة لصناعة المثاقيل.وقد حز في نفسه عدم قدرته الدخول إلى قصره، حيث توقف برهة أمام باب القصر وهو راكب على حصانه ورمحه في يده وبدأ يضحك. وقد سأله ابن عمه مولاي محمد عما يضحكه، فأجابه وكان حصانه لايزال متوقفا: *"انظر من انتصر على زيدان، إنني لم أر في حياتي إنسانا أنجب صقرا كما هو الحال مع أخي مولاي الشيخ"*. وقد أجابه مولاي محمد: *"مولاي، هيا بنا لأن العدو يتقدم نحو المدينة."* فرد قائلا: *"باسم الله الذي بيده كل شيء."* وانطلق مغادرا مراكش.

** رحيل مولاي زيدان مع عائلته إلى تارودانت :*

وقد خرج من باب القصبة صوب المكان الذي ترك فيه عائلته. ومن هناك رحل إلى تارودانت، وكان الأعراب والبربر قد خططوا للسطو على قافلته، لكن بفضل شجاعته استطاع مقاومتهم وتمكن من الدخول إلى تارودانت مع عائلته وخدمه الذين قدر عددهم بمائتين من الفرسان بالإضافة إلى أقاربه من عرب الشبانات.

وقد كانت نعمة من الله تلك التي أوحت للخصيان بمنعه من دخول القصر، لأنه كان ينوي قتل الكثير من النساء اللواتي كن يعشن فيه.

*** الخطأ الذي ارتكبه مولاي زيدان وسبب هزيمته :**

بقي مولاي زيدان ملكا على مراكش أحد عشر شهرا إلا بضعة أيام، وإن أكبر خطإ ارتكبه يتمثل في عدم مواصلته القتال ضد مولاي عبد الله بعد أن دخل مراكش لأول مرة، إضافة إلى ذلك فإنه لو سعى إلى ضم جنود مولاى عبدالله إلى جيشه بدل عملية الإعدام الجماعي التي قام بها في حقهم، لتمكن بواسطتهم وبواسطة قدماء جنود أبي فارس من تكوين جيش يتوجه به إلى مملكة فاس لمطاردة مولاي الشيخ وابنه مولاي عبد الله دون منحهما فرصة إعادة تنظيم الجيش. وبما أنه إلى ذلك التاريخ لم تكن له عداوة مع سكان مدينة فاس ولا سكان القرى المجاورة، فان هؤلاء ما كانوا ليترددوا في استقباله كملك، لكنه بعد أن قتل الكثير من جيوش فاس وكذا الشرارگة المقيمين بمراكش، والذين كانوا قد انتقلوا إليها مع مولاي عبد الملك، فإن سكان فاس أصبحوا يحقدون عليه ويعتبرونه عدوا لهم.

كما أنه في مواجهته الثانية مع مولاي عبد الله، ارتكب خطأ فادحا عندما قرر الابتعاد عن أسوار مراكش، حيث إنه لو بقي معسكرا بجوارها عملا بالخطة التي كان قد أملاها عليه النصارى، وزود مخيمه بالضروريات الأساسية لكان الانتصار من نصيبه، خصوصا وأنه كان لديه كميات كبيرة من السلاح، إضافة إلى تمتعه بدعم سكان مراكش من أعداء مولاي عبد الله.

وهناك خطأ آخر ارتكبه مولاي زيدان يتمثل في عدم الاستفادة من الأيام الثمانية التي قضاها الجيشان في حالة تأهب الواحد مقابل الآخر دون أن يحركا ساكنا، وهنا كذلك لم يأبه للنصيحة التي وجهها له أحد المسيحيين وتتلخص في الاستفادة من غياب أية حراسة من معسكر مولاي عبد الله أثناء الليل (بخلاف مخيم مولاي زيدان الذي كان يحرسه ليلا ما لا يقل عن أربعمائة رجل)، لإرسال مجموعة من الرجال يحملون معهم أربع قطع من المدفعية، يقومون بواسطتها بإطلاق البارود، مما سيسبب ذعرا كبيرا

للعدو الذي سيعتقد أن جيش مولاي زيدان هاجمه برمته، مما سيرغمه على الفرار بشكل جماعي وذلك لعدم تعوده على القتال ليلا.

لكن مولاي زيدان رد على صاحب هذه النصيحة بأن ذلك الفعل لا يمكن أن يتم بين المسلمين، لذا فهو لن يقبل بالقتال إلا في مواجهة مباشرة وفي وضح النهار وسوف يرضى بما يقسم الله له.

وفي اليوم السابق للمعركة انتقل مولاي عبد الله إلى أبواب مراكش، حيث أقام معسكره عند قصبتها، وعلى الرغم من أنه لم ينس ما قام به أهل مراكش ضده عندما نادوا مولاي زيدان ليتولى الملك عليهم، في وقت كان هو لا يزال ملكا بها، فانه غفر لهم، وبذلك أظهروا له حبا وتقديرا عكس ما كان عليه الأمر في المرة الأولى.

** دفع مولاي عبد الله أجور ثمانية آلاف جندي:*

عند دخوله مراكش أرسل من ينادي في أحياء المدينة بأن كل من يريد العمل في الجيش عليه أن يحضر لأخذ أجرته مقدما، وقد وصل عدد الجنود الذين تقاضوا هذه الأجور بين القدامى والجدد ثمانية آلاف من المشاة بالإضافة إلى عدد قليل من الفرسان شكل منهم حرسه الخاص، ذلك لأن الفرسان الذين كانوا برفقته أثناء المعركة وهم من أعراب المناطق المجاورة لفاس، سمح لهم بعد أن حسمت المعركة لصالحه بالعودة إلى ديارهم، وقد قام بمنحهم بعض الهبات.

إثر ذلك أرسل مولاي عبد الله من يأتي بالنصارى الأحرار الذين فروا من المعركة، كما أمر بالإتيان بمدفعية مولاي زيدان، لكن هذه الأخيرة كانت قد دمرت في غالبيتها، حيث لم يعثر إلا على ست عشرة قطعة صالحة للاستعمال.

** الطريقة التي كان البربر يستولون بها على قطع المدفعية :*

كان البربر يأتون ليلا إلى الميدان الذي تركت فيه قطع المدفعية

ويضرمون فيها النيران إلى أن يتم صهرها، عند ذلك يقومون بتكسيرها إلى قطع يأخذونها إلى الجبال قصد بيعها، وقد أدى هذا إلى اختفاء الكثير من المدافع.

بعد دخوله إلى مراكش قرر مولاي عبد الله إرسال حملة عسكرية لإرغام سكان ولايتي دكالة وحاحا على أداء الجبايات وقد كلف بهذه المهمة القائد محمدا الكرني الشرگي الذي وضع تحت تصرفه أربعة آلاف شخص.

* *بداية تمرد مولاي محمد أبي حسون :*

في تلك الأثناء بدأ يظهر على مسرح الأحداث شخص من الشرفاء اسمه مولاي محمد أبو حسون، وكان قد سبق له أن عمل ضمن صفوف جيش مولاي زيدان، غير أنه لم يتمكن أو ربما لم يرغب في مرافقة سيده إلى سوس، لذا التجأ إلى جبال تقع على بعد خمسة فراسخ من مراكش حيث أقام بين بعض الفلاحين من البربر الذين كانت تربطه بهم علاقة صداقة.

وحدث أن أبا حسون هذا كان يجالس في إحدى المرات أولئك البربر، وكانت بيده سبحة يداعبها، وبالمصادفة تمزق خيطها فسقطت منها ثلاث خرزات وقعت أمام خفه، عند ذلك قال لأصدقائه: *"انظروا إلى هذه الخرزات الثلاث، إن فيها مغزى مهما"*. فأجابوه : *"مولاي أوضح لنا هذا المغزى"*. فرد عليهم: *"إن هذه الخرزات الثلاث ترمز إلى أبناء مولاي أحمد، أي مولاي الشيخ ومولاي أبي فارس ومولاي زيدان، حيث إنهم لن يستطيعوا شيئا ضدي وسوف يسقطون عند قدمي مثل هذه الخرزات الثلاث"*. عند ذلك أجابه البربر : *"وبهذه الطريقة يا مولاي ستصبح ملكا"*. فرد عليهم: *"إذا كان ذلك من الله فلا يمكن لأحد أن يحرمني منه"*.

وقد وصل ما دار من حوار بين مولاي أبي حسون وأصدقائه إلى مولاي عبد الله، في وقت أصبح الناس في مراكش يتحدثون عن ادعاء مولاي أبي حسون الملك.

هذه هي الأحداث التي وقعت في الممالك المغربية سنة 1607.

الفصل الرابع

الأحداث التي وقعت في الممالك المغربية عام 1608

كان قد كثر الحديث في مراكش عن تمرد مولاي محمد أبي حسون، لدرجة أن مولاي عبد الله لم يجرؤ على إرسال الجيش لاستخلاص الجبايات من الأعراب.

* *تهديد مولاي عبد الله للبربر وأمره لهم بتسليم أبي حسون :*

أرسل مولاي عبد الله من يخبر شيوخ تلك الجبال أنه في حالة عدم تسليمهم لأبي حسون فسيرسل جيوشه قصد القضاء عليهم جميعا، وقد أجابوه بأن ذلك يتعذر عليهم لما فيه من خيانة كبرى لشخص احتمى بهم، وأخبروا رسله بأنهم يتعهدون لمولاي عبد الله بعدم قيام أبي حسون بأي شيء يزعجه، كما أكدوا له أن أبا حسون لا يسعى إلى الملك. وقد أغضب هذا الجواب مولاي عبد الله الذي أرسل القائد محمد الكرني على رأس أربعة آلاف رجل من أجل معاقبتهم.

ولما علم البربر بذلك استعدوا للمعركة، وعينوا مولاي أبا حسون قائدا عليهم، لكنهم ما لبثوا أن أدركوا عجزهم عن مواجهة القائد الكرني، لذا فروا هاربين بين الجبال.

* *تيهان الكرني بسبب مطاردته للعدو :*

كانت رغبة القائد محمد الكرني في مطاردة العدو كبيرة جدا، ولتحقيق ذلك توغل لمسافة تزيد عن الفرسخ في بعض الجبال الوعرة. وقد استغل البربر عدم معرفته بالمسالك الجبلية، وقاموا بقطع الطريق عليه، مما

أفزع جنوده الذين فروا بشكل عشوائي، كما اضطر هو نفسه للفرار حيث اتجه مباشرة إلى مخيم مولاي عبد الله الذي وصله على الساعة السادسة مساء.

وقد أثارت تلك الحادثة الكثير من الضوضاء بين أهالي مراكش فخرجوا إلى شوارع المدينة وهم يدعون لمولاي أبي حسون ويرددون ما يلي : *"حفظ الله الملك مولاي محمد أبا حسون"* .

وأمام تخوف مولاي عبد الله من أن يتكرر ما حدث له خلال هزيمته الأولى بمراكش، حيث اضطر للفرار نحو فاس في ظروف مزرية، فإنه لم يتردد في قبول نصيحة القائد الگرني الذي قال له: *"مولاي هيا بنا إلى فاس قبل أن نفقد بقية رجالنا"* . وقد أمر مولاي عبد الله برفع المخيم وعاد إلى فاس بمعية أربعة آلاف رجل، وبما أن كل ذلك تم ليلا فإن الكثير من رجاله بقوا بالمدينة.

وكانت تلك أكبر حماقة يمكن ارتكابها، لأن العدو لم تكن معه القوة الكافية، ثم إن الهزيمة التي تكبدها القائد الگرني لم تكن لها أية أهمية حيث إن الجنود الذين كانوا يرافقونه عادوا كلهم ليلا إلى المعسكر، وقد كان هؤلاء الجنود وعددهم أربعة آلاف قادرين على الدفاع عن المدينة.

ويمكن الجزم بأن قرار العودة إلى فاس كان يقف وراءه قواد مولاي عبدالله ذلك لأنه وبخلاف مراكش كان يسود بفاس نوع من السلم، مما أغراهم بالانتقال إليها بغية التمتع فيها بالأموال التي حصلوا عليها. وهكذا فقد نال مولاي عبد الله العقاب الذي يستحقه بتركه مصير مملكته بين أيدي رجال غير قادرين على أن يحكموا حتى أنفسهم فكيف بهم حكم مملكة معرضة للتقلبات المستمرة؟ وقد دام حكم مولاي عبد الله بمراكش خلال هذه الفترة الثالثة خمسة وأربعين يوما.

بالنسبة لأهالي مراكش فانهم لما استيقظوا صباحا ووجدوا أن جيش

مولاي عبد الله قد رحل عن المدينة، استغربوا كثيرا لذلك، خصوصا مع قلة إمكانيات مولاي أبي حسون.

**دخول مولاي أبي حسون مراكش حيث نودي به ملكا:*

دخل مولاي أبو حسون في اليوم التالي إلى مراكش حيث كان الأهالي قد نادوا به ملكا وكان برفقته خمسون من الفرسان، واتجه لتوه إلى القصر الملكي، في نفس الوقت أرسل من يعلن في كل شوارع المدينة توليه الملك.

وكان السكان قد اعتقدوا عندما دخل المدينة أنه جاء بأمر من مولاي زيدان، لكن المناداة به ملكا أزالت كل التباس بينهم، وكان الذين أرسلهم لذلك الغرض يرددون ما يلي: "بقرار من الملك مولاي أبي حسون اسماه الله يعلن عفو عام وتمنح الأجور مقدما لمدة سنة لكل من يود العمل في الجيش".

** ارتكاب مولاي أبي فارس لخطإ فادح :*

ضيع مولاي أبو فارس أكبر فرصة أتيحت له ليعود إلى مراكش، وكان آنذاك يقيم في الجبال على بعد خمسة فراسخ من المدينة المذكورة، وقد جاءه بعض الأعراب وقالوا له : *"مولاي، إذا كنت تريد الدخول إلى مراكش فتعال معنا ، حيث تنزل في قصرك وتبعث بالقائد علي البرتغالي لينادي بك ملكا ، وان خدمك الذين يتمنون عودتك سينضمون إليك، وهكذا في ظرف أيام معدودة يكون معك الكثير من الناس، وإن مراكش ليس لها من مالك اليوم، لأن مولاي عبد الله قد رحل، أما مولاي أبو حسون فإنه إذا علم بدخولك إليها فلن يجرؤ على القدوم لعدم امتلاكه لأية قوة ، وسوف يعترف الجميع بك ملكا على مراكش ويعملون على مساعدتك، وما عليك الآن إلا أن تمتطي صهوة جوادك ونذهب جميعا إلى هناك لأنه لا يوجد وقت تضيعه، وإن الله هو المعين"* .

وقد أجابهم مولاي أبو فارس بأن قرارا من ذلك النوع لايمكن اتخاذه بتلك السرعة، وأنه يريد أولا أن يجمع رجاله الذين يوجدون بالجبال قصد

مرافقته، لكنه قبل أن يقوم بأي شيء من تلك الاجراءات كان مولاي محمد أبو حسون قد دخل القصر الملكي وبرفقته بعض قواد أبي فارس مثل أحمد ابن منصور گوريتو، وحمو بن بوخيار وهو من القواد العلوج، وأحمد بن سليمان القرطبي ومولاي أحمد كاتب البلاط الملكي، وغيرهم.

وقد ندم بعد ذلك مولاي أبو فارس عن تضييعه لتلك الفرصة، وعدم مرافقته للأعراب الذين جاؤوا يبحثون عنه، لكن ندمه لم ينفعه في شيء بعد أن فات الأوان.

* *سبب عدم ذهاب مولاي أبي فارس مع الأعراب إلى مراكش :*

وقد فهمت فيما بعد أن سبب عدم ذهاب مولاي أبي فارس إلى مراكش بعد أن جاء الأعراب لمناداته يرجع لكونه لم يصدق أن مولاي عبد الله ذهب بشكل نهائي، بل اعتقد أنه رسم خطة يسعى من ورائها إلى الانسحاب مؤقتا ثم العودة لمداهمة مولاي أبي حسون بعد أن يدخلها.

هنا تجدر الإشارة إلى أن مولاي أبا فارس عندما كان ملكا على مراكش، وصل إلى اتفاق مبدئي مع مولاي الشيخ، يبقى بمقتضاه مولاي أبو فارس ملكا على مراكش مدى الحياة، ومولاي الشيخ ملكا على فاس، في حين يعين مولاي عبد الله ملكا على سوس، وفي نفس الوقت يتزوج من ابنة مولاي أبي فارس ويعين وارثا لعرشي مراكش وفاس، ولو تم تطبيق هذا الاتفاق لما وقع شيء من تلك الحروب والقلاقل.

بالنسبة لمولاي أبي حسون فانه استطاع بعد مدة وجيزة من دخوله مراكش تكوين جيش من عشرة آلاف رجل كلهم من الجند حديثي العهد بالخدمة، ذلك لأن الجنود القدامى لم يبق منهم أحد تقريبا بمراكش. وقد عين قوادا من بين خدمه وأصدقائه ووضع على رأس هذا الجيش قائدا أسود من أتباعه.

** سخاء مولاي محمد أبي حسون :*

وبما أنه كان رجلا غنيا فقد قدم هبات كثيرة لعدد كبير من الناس، كما أغدق العطايا على حريم القصر الملكي والمكون من نساء عدد من الملوك السابقين. وبفضل كل ذلك نال حب وتقدير الأعراب الخضر على السواء.

** إعفاء أبي حسون للأعراب من دفع الضرائب :*

أمر مولاي أبو حسون بأن يعلن في مراكش إعفاء الأعراب من جميع أنواع الضرائب باستثناء الزكاة، وقد أظهر بفضل هذا الإجراء تشبثه بمبادئ العدالة. ومما تجدر الإشارة إليه كذلك، إعادته المنازل والمزارع التي اغتصبها القواد السابقون الذين رحلوا عن مراكش إلى أصحابها الحقيقيين. أما بالنسبة لقواده وجنوده فقد أجزل لهم العطاء وكانت كل الأموال التي قدمها لهم من ماله الخاص، لأن خزائن القصر الملكي وجدها فارغة.

وكان قد تخلف بمراكش عدد من المسيحيين الذين كانوا يعملون في جيش مولاي زيدان، وقد قدموا إلى مولاي أبي حسون يطلبون منه الترخيص لهم قصد العودة إلى بلدانهم، حيث وافقهم على ذلك وقدم لهم ما يحتاجونه في سفرهم، وعندما سأله بعض الأعراب عن السبب الذي يمنعه من الاحتفاظ بهم للعمل في المدفعية، أجابهم بأن المسلمين ليسوا في حاجة إليهم، وأن الشجاعة لا تقاس بالمدفعية التي هي من ابتكار النصارى وإنما بالقدرات الفردية، وذكرهم بأن المسلمين احتلوا إسبانيا بفضل الرماح والشجاعة التي كانوا يتميزون بها، وقد سر الأعراب كثيرا لما سمعوه من إشادة بالرماح.

** وصول الباشا مصطفى مع ألفين من رجاله إلى تارودانت:*

كما سبقت الإشارة في فصل سابق، فان الباشا مصطفى كان قد توجه بأمر من مولاي زيدان إلى تافيلالت وبمعيته ألفا جندي، وقد لحق به هذا الأخير بعد هزيمته أمام مولاي عبد الله في رأس العين، حيث التقيا في

تارودانت. وبفضل هذا تمكن مولاي زيدان من تعزيز صفوفه خصوصا وأنه قبل الانتقال إلى تافيلالت لم يكن قد بقي معه إلا القليل من الجنود. وبعد إعادة تنظيم جيشه قرر العودة من جديد إلى مراكش قصد مواجهة مولاي أبي حسون.

وكان يرافق مولاي زيدان أحد كبار شيوخ المنطقة ويدعى عليا سيمبيا، مما أعطى حملته سمعة حسنة. وقد قدم هذا الشيخ إلى مولاي زيدان خمسمائة من الرجال كما أقرضه عشرين ألف غرارة من القمح وخمسين حصانا. وكان مولاي زيدان في أمس الحاجة إلى ذلك، لأن مخيمه كان يعرف خصاصا كبيرا في الخيام وغيرها من بقية الحاجيات الضرورية، كما أن جنوده كانوا في حالة يرثى لها: جائعين، عراة، ودون أسلحة.

* *وصول مولاي زيدان إلى مشارف مراكش :*

على ذلك الحال وصل مولاي زيدان إلى مراكش، وبرفقته خمسمائة وثلاثة آلاف جندي، وكان ذلك في السابع من أبريل.

بالنسبة لمولاي أبي حسون، وصل عدد الرجال الذين يكونون جيشه إلى عشرة آلاف. وقد أقام مخيمه في مكان محاد لأسوار مراكش ما بين القصبة وباب أغمات، حيث مكث يترقب قدوم مولاي زيدان.

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي بدأت جيوش مولاي زيدان بالتحرك في اتجاه العدو، وقد قامت بنفس الشيء جيوش مولاي أبي حسون. وما يمكن ملاحظته بالنسبة لمولاي زيدان هو العدد القليل من الفرسان الذين كانوا يوجدون ضمن جيشه.

* *وقوع المواجهة وانتصار مولاي زيدان :*

بدأت المواجهة عندما هاجم القائد عبد الصادق بشجاعة كبيرة ثلاثة من فرسان مولاي أبي حسون، والذين فوجئوا بذلك حيث دب الذعر في نفوسهم وولوا فارين، وقد فعل بقية الفرسان من جيش أبي حسون مثلهم،

وإثر فرار فرقة الفرسان برمتها تبعتها فرقة المشاة، وبتلك الطريقة انتهت المعركة بهزيمة أبي حسون لكن دون أن تطلق رصاصة أو رمح من هذا الطرف أو ذاك. إثر المعركة فر أبو حسون مع جيشه الكبير نحو الجبال وقد استطاع بعد ذلك وفي مدة وجيزة إعادة تنظيم صفوفه.

* *المدة التي حكم فيها مولاي أبو حسون :*

بقي مولاي أبو حسون ملكا على مراكش خمسة وخمسين يوما، أظهر فيها من العدل والسخاء ما جعله محبوبا من طرف الجميع. ولم يرتكب خطأ طيلة مدة حكمه غير تعيينه لشخص أسود باشا عاما لكل جيوشه مما أغضب كثيرا القلة القليلة من قدماء الجند الذين كانوا يوجدون ضمن هذه الجيوش.

**مطاردة مولاي أبي حسون لمولاي أبي فارس :*

أثناء توليه الملك، سعى مولاي أبو حسون جاهدا إلى إلقاء القبض على مولاي أبي فارس الذي كان يوجد بالجبال على بعد خمسة فراسخ من مراكش. ومن أجل تحقيق ذلك الهدف وعد كل من ياتيه به بهبات كثيرة، وقد أظهر بعض البربر استعدادا كبيرا لتنفيذ ذلك، لكنهم أدركوا في النهاية أن إلقاء القبض على ملك عاملهم بسخاء وكرم سيعتبر من طرف الجميع بمثابة خيانة كبرى، لذا فضلوا القيام باغتياله، وقد خططوا لتنفيذ ذلك أثناء أداء مولاي أبي فارس للصلاة بجوار ساقية محاذية لبيته.

* *مقتل بعض قواد مولاي أبي فارس :*

وقد أطلق البربر الرصاص على مولاي أبي فارس، لكن بدله أصيب أحد رجاله المقربين، وهو قائد من العلوج يدعى خيران أصله من بلاد الباسك، وكان البربر قبل ذلك بأيام قد أطلقوا الرصاص على اثنين من كبار قواد مولاي أبي فارس هما مسعود نبيلة وعلي بن عزوز.

* *فرار مولاي أبي فارس إلى مملكة فاس :*

لما شعر مولاي أبو فارس أن حياته أصبحت في خطر، قرر الانتقال إلى

مملكة فاس، ومن أجل القيام بذلك تنكر في ثياب امرأة، وكان يرافقه أحد شيوخ البربر وخادم له يدعى القائد كاردين Cardin وهو علج أصله من "إثيخة" Ecija . لكن يظهر أن مولاي أبا فارس فر من ذلك الخطر ليقع في خطر أكبر كما سنوضح ذلك في حينه.

* *دخول مولاي زيدان إلى القصر الملكي :*

وقعت تلك المعركة في الحادي عشر من أبريل، حيث قتل فيها سبعمائة رجل وذلك أثناء فرارهم، وكان يوجد ضمن هؤلاء سبعة وعشرون أسيرا إسبانيا.

وقد دخل مولاي زيدان في نفس اليوم إلى القصر الملكي، وأرسل لتوه من يقوم بنهب ممتلكات بعض العلوج والأندلسيين الموريسكيين الذين عرفوا بتعاطفهم مع مولاي أبي حسون، ولم يفاجأ هؤلاء بذلك لأنهم كانوا على دراية بما يتميز به مولاي زيدان من بطش وقسوة.

وأثناء انسحاب مولاي أبي حسون ورجاله من مراكش، أصيب أحد مساعديه الأقربين بمرض أرغمه على المكوث بأحد مساجدها، وقد أمر مولاي زيدان باخراجه من المسجد وجره بشوارع المدينة إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، هذا المصير عرفه كذلك عدد كبير من أعدائه.

* *قسوة مولاي زيدان المتميزة :*

عند دخوله المدينة كان مولاي زيدان في حالة كبيرة من الخصاص، لذا لم يتردد في ارتكاب جميع أنواع العنف ضد الأهالي قصد ابتزاز أموالهم. وقد مات العديد من هؤلاء تحت التعذيب لعدم قدرتهم على دفع ما كان يطلبه منهم.هذا العقاب شمل كذلك النساء المقيمات بالقصر الملكي؛ حيث إنه أمر بقطع اللسان أو اليدين أو الرجلين لبعضهن كما رمى بأخريات إلى الأسود أو تركهن دون مأكل أو مشرب إلى أن متن جوعا، وكان من بين اللواتي عرفن هذا المصير، واحدة عاشت ثلاثة وثلاثين يوما دون طعام أو شراب، ولما رأت أم مولاي زيدان أن تلك البئيسة لازالت على قيد الحياة

أمرت باطلاق سراحها. وكانت هذه المرأة في الأصل بدينة جدا، غير أن المدة الطويلة التي قضتها دون طعام أفقدتها تلك السمنة كليا، مقابل ذلك غطت التجاعيد جسمها بشكل رهيب، وأصبح مظهرها بسبب هذا من البشاعة لدرجة يعجز اللسان عن وصفها، وقد عاشت تلك المسكينة مدة طويلة بعد ذلك.

إن هذه القسوة التي ميزت مولاي زيدان تركت أثرا سيئا جدا لدى الأهالي الذين أصيبوا بحزن وغم كبيرين، وقد اضطر أغلبهم لذلك السبب إلى ترك منازلهم والذهاب للعيش بالجبال.

ولما علم مولاي زيدان أن أبا حسون يعد العدة لمواجهة جديدة، وأنه تمكن من جمع عدد كبير من الرجال، أرسل من يعلن بمراكش أنه سيدفع أجورا مقدمة لكل من يريد العمل في جيشه، لكن لم يقبل أحد من أهالي مراكش بذلك.

** إخراج مولاي زيدان لجيشه من مراكش :*

وأمام عجزه عن ضم عناصر جديدة لجيشه عن طواعية، بدأ بإرغام الأهالي للانضمام إليه، وقد وصل عدد الجنود الذين أصبح يتكون منهم هذا الجيش خمسة آلاف رجل، خرجوا من مراكش صوب أغمات في الثامن من ماي، وقد مكثوا بضعة أيام وكان على رأسهم مولاي زيدان نفسه.

** شجاعة باشا مولاي أبي حسون :*

أثناء ذلك دخل باشا مولاي أبي حسون ليلا مراكش وبدأ ينادي بسيده ملكا في كل أنحاء المدينة، وقد أطلق سراح كل السجناء وانسحب من جديد دون أن يتعرض لأي أذى. ولو كان هذا الباشا قد تجرأ على المرور بجوار مخيم مولاي زيدان فانه كان يكفيه أن يردد عبارة: *"عاش مولاي أبو حسون"* ، ليبعث الاضطراب داخل هذا المخيم، ذلك لأن جيوش مولاي زيدان أصيبت بفزع كبير لما علمت أن ذلك الباشا كان يوجد بالمدينة. وقد فر أغلب الجنود من المخيم، لدرجة أن هذا الأخير أصبح شبه فارغ في اليوم التالي،

حيث لم يبق به غير مولاي زيدان ونسائه وخدمه. ولم يرجع الجنود إلى معسكرهم إلا بعد أن تأكدوا أنه لم يقع في مراكش أي شيء يهدد سلامتهم.

وقد سببت مناورة باشا مولاي أبي حسون غضب واستياء مولاي زيدان الذي أمر بنقل مخيمه إلى جوار أغمات على بعد أربعة فراسخ من مراكش وذلك لقطع الطريق على العدو ومنعه من الوصول إلى المناطق السهلية. في نفس الوقت قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول وضع على رأسه القائد العلج حدو طبيب الذي أمره بالتمركز في مداخل بعض الجبال التي يمكن أن يأتي منها العدو، في حين بقي هو على رأس القسم الثاني في المكان الذي أقيم به المخيم بينما أمر الباشا مصطفى والذي يوجد على رأس القسم الثالث بالابتعاد عن القسمين الآخرين. وعلى الرغم من انفصال هذه الفرق الثلاث فانها بقيت على مرأى من بعضها بحيث يمكن للواحدة منها تلقي النجدة من غيرها في حالة الضرورة.

* *المواجهة بين مولاي زيدان وأبي حسون :*

في الثاني عشر من يونيو نزل مولاي أبو حسون من الجبال على رأس جيش قوامه ستة آلاف من الفرسان ،وقد ترك في مداخل الجبال فرقة من البربر نجحت في مهاجمة الكتيبة التي يقودها حدو طبيب والتي ولت هاربة مع قائدها. إثر ذلك هب كل من مولاي زيدان و الباشا مصطفى لنجدة الكتيبة المهاجمة، وفي الطريق التقيا بالقائد حدو طبيب، وكان مولاي زيدان ناقما عليه بسبب فراره، لذا انقض عليه ضربا حيث كاد يرديه قتيلا وصاح به في النهاية قائلا : "*بهذه الطريقة يجب معاملة يهودي مثلك*" .

وقد واصل مولاي زيدان تقدمه، وعند اقترابه من العدو، خلع عمامته وألقى بها بعنف أرضا حتى ارتفع الغبار من المكان الذي رماه بها وصاح في رجاله :"*هيا، يا أبناء النبلاء، ليظهر كل واحد منكم ماهو قادر على فعله من أجل استرداد عمامتي*". وقد أذكى ذلك حماسا كبيرا بينهم إذ تقدموا بثبات نحو العدو، ولما رأى هذا الأخير ماهم عليه من حماس، أدار لجام فرسه

وانسحب دون فزع أو اضطراب، ذلك لأنه كان يسعى إلى جلب رجال مولاي زيدان نحو الجبال حيث يمكنه عند ذلك الانقضاض عليهم ، لكن الباشا مصطفى الذي كان يطارد العدو لم يجرؤ على التوغل في تلك الجبال، لذا عاد مباشرة لينضم إلى بقية جيش مولاي زيدان.

هذه المعركة وقعت على الساعة السادسة مساءً، ولم تسفر عن أي ضحايا من هذا الطرف أو ذاك ، باستثناء إصابة ابن القائد حدو طبيب بجروح خطيرة. بعد المعركة عمت فرحة كبرى جيوش مولاي زيدان الذين احتفلوا بالانتصار طيلة تلك الليلة.

وقد اعتقد مولاي زيدان أن الخطر الذي يشكله عليه مولاي أبو حسون قد ولى إلى الأبد، لكن تخمينه كان خاطئا حيث إنه بعد ثلاثة أيام فقط من تلك المعركة نزل مولاي أبو حسون من الجبال على رأس ستة آلاف من الفرسان وألفين من المشاة وأقام مخيمه على مرأى من مولاي زيدان، غير أن تهاطل الأمطار حال دون وقوع المواجهة بين الطرفين.

وخلال اليوم الثامن من وجوده بتلك المنطقة السهلية، أصيب مولاي أبو حسون بداء الطاعون حيث لفظ أنفاسه الأخيرة على الساعة الثانية صباحا، وكان ذلك في الثالث والعشرين من يوليوز. وقد بكاه كثيرا الأعراب والبرابرة الذين نقلوه إلى الجبال من أجل دفنه بها، وبالتالي ليؤكدوا للجميع بأنه مات فعلا بالطاعون، خصوصا مع ما أشاعه مولاي زيدان من أنه منح أحد شيوخ البربر عشرة آلاف أوقية ليضع له في الطعام كمية من الماس.

بعد موته تفكك جيشه، وقد كان ذلك من حسن حظ مولاي زيدان، لأن كل الدلائل كانت توحي بأنه سيصبح ملكا على مراكش، خصوصا وأنه كان يتمتع بجميع صفات الملك من شجاعة وحب الناس، لكن الموت لم يمهله لتحقيق حلمه.

** ادعاء أحد خياطي الجلابيب للملك بفاس :*

في الوقت الذي كان مولاي زيدان يواجه تمرد أبي حسون، ثار في فاس ضد مولاي الشيخ شخص كان يشتغل بخياطة الجلابيب الصوفية وقد بدأ تمرده في الجبال حيث ادعى الملك، ولإخماد ذلك التمرد هيأ مولاي الشيخ جيشا وضع على رأسه علجا برتغاليا يدعى *إبراهيم گوتييري Gutierre*، وهو رجل مسن وعارف بخبايا شؤون تلك المملكة. وقد بين هذا القائد حنكته عندما نجح في إرسال من يقوم باغتيال ذلك المتمرد مقابل هبات مالية لأنه بذلك نجح في القضاء على خطر كان قد بدأ يستفحل حيث إن صاحبه استطاع أن يجمع حوله عددا كبيرا من الناس، كما شاعت عنه بعض الكرامات.

** موت القائد إبراهيم گوتييري:*

عند ذلك انسحب القائد گوتييري إلى فاس، وقد توفي بعد مدة قصيرة عن عمر يناهز التسعين عاما.

** إرسال مولاي زيدان من يجمع الجبايات من سكان دكالة:*

بعد موت مولاي أبي حسون، عاد مولاي زيدان إلى قصره بمراكش لقضاء أيام الحر الشديد التي تعرفها المنطقة خلال تلك الفترة من الصيف، وقد أرسل إثر ذلك اثنين من القواد الجدد هما حدو طبيب والقائد عبد القادر على رأس كتيبة إلى دكالة لجمع الجبايات من الأعراب.

** إرسال الولايات العامة الهولندية لمبعوث خاص إلى مولاي زيدان :*

في تلك الأيام وصل إلى مراكش قادما من هولندا مبعوث الكونت *ماوريثيو Mauricio* واسمه *صامويل بلاشي Samuel Pallache* ، حيث هنأ مولاي زيدان على عودته إلى الملك، وعرض عليه تسهيل عملية التصدير وأساسا استيراد كل ما يريده من هولندا. وقد طلب منه مولاي زيدان أن يأتيه بأربع سفن حربية وأربعمائة جندي مسيحي، كما أرسل معه إلى

الكونت *ماوريثيو* كميات هامة من العنبر الأسود وريش النعام، وكذا رسالة أكثر فيها من الشكر والإطراء على الكونت.

* *رفض الأعراب دفع الضرائب :*

تعرضت الكتيبة التي أرسلها مولاي زيدان إلى دكالة لصعوبات كثيرة، وذلك بسبب رفض الأعراب دفع الجبايات. وقد حدثت اشتباكات بين الأعراب وجنود مولاي زيدان لكن لم تنجم عنها أضرار كبرى في أي طرف، خصوصا وأن الأعراب انسحبوا بسرعة، لكنهم ما لبثوا أن عادوا من جديد بعد أن عززوا صفوفهم بقوات جديدة.

* *تحطيم مولاي زيدان لأولاد عمار :*

وقد علم مولاي زيدان أن قبيلة من الأعراب وتدعى أولاد عمار كانت تنوي الانضمام إلى أعراب دكالة في تمردهم، لذا أرسل الباشا مصطفى مع بقية الجند الذين كانوا قد تخلفوا بمراكش، وقاموا بتدمير هذه القبيلة، حيث أضرموا النيران في الخيام وأسروا النساء والأطفال، ولم ينج من بطشهم إلا أصحاب الخيول الذين فروا إلى مملكة سوس. إثر ذلك عاد جيش مولاي زيدان إلى مراكش.

* *تقديم أعراب دكالة لستمائة ألف أوقية إلى مولاي زيدان :*

لما رأى سكان دكالة ما جرى لقبيلة أولاد عمار، اتفقوا فيما بينهم على تقديم ستمائة ألف أوقية إلى مولاي زيدان الذي قبل بالعرض، خصوصا وأنه سيعفيه من مشقة القيام بمغامرة جديدة. وقد رفضت إحدى قبائل المنطقة وتدعى أولاد بوعزيز دفع القسط المترتب عليها، مما حذا ببقية القبائل للسعي من أجل مهاجمتها، لكن سكان هذه القبيلة التجأوا إلى حصن مازاگان وبذلك لم يجرؤ أحد على الاقتراب منهم.

وكان الحظ السعيد قد ابتسم لمولاي زيدان خلال تلك الأيام؛ ففي الاحتفالات التي أقامها بمناسبة ازدياد مولود له، أنشدت إحدى المطربات

أمامه وكانت خليلة القائد سعيد بن عزوز ما يلي: *"أيها الملك، لو كنت تعرف ما أعرفه لحصلت على أموال كثيرة"*. وقد كررت هذا الإنشاد مرات عديدة، مما دفع بمولاي زيدان إلى سؤالها. *"وماذا تعرفين"* ؟، فأجابت غناء: *"أعرف مكانا دفن فيه كثير من الأموال والمجوهرات، أعطني البشارة، وأقول لك أين يوجد"*. فأجابها مولاي زيدان: *"سأفعل إذا كان ما ستقولينه يستحق ذلك"*. إثرها توقفت عن الغناء وقالت: *"سيدي، كنت خليلة القائد سعيد بن عزوز، وعند هزيمة مولاي أبي فارس أمام مولاي عبد الله بن الشيخ، انتزع سيدي من خليلاته كل المجوهرات التي كانت عندهن وقام باخفائها، وقد أحسست باهانة كبرى، لذلك تجسست عليه حتى عرفت المكان الذي دفنها فيه، وإذا أردت الحصول عليها، فهي توجد بمنزله تحت العمود كذا في بهو كذا"*.

* *عثور مولاي زيدان على أموال كثيرة :*

عند ذلك أرسلني مولاي زيدان والباشا مصطفى لنتأكد من صحة كلام المرأة، وقد وجدنا في نفس المكان الذي حددته مائة ألف مثقال بالإضافة إلى المجوهرات التي تقدر قيمتها كذلك بمائة ألف مثقال، وقد سر مولاي زيدان كثيرا بهذه الثروة غير المنتظرة.

في نفس الأسبوع سلمه فقهاء مسجد سيدي بوعمار خمسين ومائة ألف مثقال كان مولاي أبو حسون قد طلب منهم حفظها، وبما أن مولاي أبا حسون توفي فقد سلموها إلى مولاي زيدان وذلك بسبب تخوفهم من أن يفتضح أمرها.

وسوف يبتسم الحظ لمولاي زيدان مرة ثالثة، فأثناء الاحتفالات المقامة بمناسبة مولد ابنه، أرسل القائد عمارا وهو علج من الخصيان أصله من كويڤاس *Cuevas* ليقوم بتهييئ غرفة خاصة لأم المولود القادمة من سوس. وكانت تلك الغرفة في حالة من الإهمال حيث كدست بها الأواني الخزفية، كما كان يوجد في أحد جوانبها كميات كبيرة من الصوف، وعند قيام الخدم

بازالتها عثروا على أحد عشر كيسا، وقد تم فتح أحدها لمعرفة محتواه، فوجدوه مملوءا بالتبر، وكان كل واحد من هذه الأكياس يزن ست خروبات، وسوف يسر مولاي زيدان كثيرا لهذه الثروة، واعتبر مولوده الجديد طالع يمن عليه.

وكان مولاي أبو فارس هو الذي وضع الذهب بتلك الغرفة عند هزيمته، وقد دخل مولاي عبد الله مرتين إلى القصر الملكي، كما دخله مولاي *أبو حسون*، لكن لم يعثر عليه أحد إلى أن عاد مولاي زيدان للمرة الثانية إلى مراكش، إنه الحظ عندما يبتسم!

* *اتجاه مولاي زيدان إلى مملكة فاس :*

وصل خبر الصلح الذي تم بين مولاي أبي فارس ومولاي الشيخ إلى مولاي زيدان، كما وصلته أصداء استعدادهما للقيام بحملة إلى مراكش. وقد أعد العدة للمواجهة، حيث هيأ جيشا من سبعة آلاف من المشاة، وألف وخمسمائة من الفرسان، الذين دفع لهم أجورهم مقدما وأمرهم بالاستعداد لمواجهة العدو. لكن الباشا مصطفى كان له رأي آخر، حيث قال لمولاي زيدان : *"مولاي، ليس من مصلحتك انتظار عدوك بالقرب من مراكش، لأن مولاي أبا فارس محبوب لدى سكان المدينة الذين لن يترددوا في خيانتك والوقوف بجانبه"*. وقد عمل مولاي زيدان بالنصيحة وقرر الاتجاه إلى فاس.

بالنسبة للعدو فإنه عندما كان قادما نحو مراكش، أخطأ الطريق لذا لم نصطدم معه، ولما وصل إلى نهر أم الربيع وجد من أخبره أن مولاي زيدان مر من هناك وأنه في طريقه مع جيشه نحو فاس. اثر ذلك قفل مولاي عبدالله ـ الذي كان يقود الجيش ـ راجعا بسرعة كبيرة ليتمكن من اللحاق بنا.

وكان مولاي زيدان قد أقام مخيمه خلف بعض الجبال القليلة الارتفاع، على بعد ربع فرسخ من نهر أبي رقراق على الضفة المؤدية لفاس. وأثناء وجود معسكره بتلك المنطقة قام بعض الفتيان الذين يوجدون ضمن الجيش

بالاتجاه إلى النهر لسقي الخيول، وهناك التقوا ببعض الفتيان من معسكر مولاي عبد الله جاءوا لنفس الغرض، ذلك لأن مولاي عبد الله كان قد أقام مخيمه خلف بعض الجبال المحاذية لضفة النهر المؤدية إلى مراكش. وقد سأل الفتيان بعضهم بعضا عن من يكونوا، فصاح بعضهم: *"حفظ الله مولاي زيدان"*. وصاح آخرون: *"حفظ الله مولاي الشيخ"*. عند ذلك جاءت كل مجموعة تخبر محلتها بوصول العدو.

* *معركة أبي رقراق* :

على إثر هذا أرسل مولاي زيدان القائد عبد الصادق بوطويرة مع مائتين من الفرسان لاستقصاء أخبار العدو، وكان مولاي عبد الله ومعه فرقة من الفرسان قد اقترب من مخيمنا لنفس الغرض، وبذلك التقت الكتيبتان، حيث وقعت مناوشات بينهما. وبما أن رجال مولاي زيدان كان عددهم قليلا بالمقارنة مع أعدائهم، فقد اضطروا إلى الانسحاب لكن رجال مولاي عبد الله واصلوا مطاردتهم إلى أن اقتربوا من مخيمنا.

ولما رأى الباشا مصطفى ذلك قال لمولاي زيدان: *"مولاي، اركب حصانك لنقوم بواسطة الفرسان الذين معنا بمهاجمة العدو الذي يطارد رجالنا، وإننا بفعلنا ذلك سوف نقدم النجدة لرجالنا ونرغم مولاي عبد الله على الانسحاب لأننا أكثر استعدادا منه، كما أن عدد فرساننا يفوق عدد فرسانه"*. من جهتي قلت للملك : *"ماذا تنتظر لإعطاء الأوامر من أجل مهاجمة مولاي عبد الله ؛ إننا نتوفر على فرقة من الفرسان أحسن من التي يتوفر عليها هو، لذا يجب اغتنام هذه الفرصة لمهاجمته"*.

وقد أرسل مولاي زيدان عند ذلك الباشا مصطفى ليخبر فرقة المشاة بالاستعداد للمعركة، بينما قمنا نحن الذين نشكل فرقة الفرسان بمطاردة مولاي عبد الله على امتداد النهر، وبما أننا كنا على مقربة كبيرة منه فقد تمكن حملة البنادق في فرقتنا والذين يصل عددهم إلى خمسين ومائتين من

تصويب طلقاتهم بفعالية كبيرة إلى العدو الذي لم يجرؤ على عبور النهر خوفا من طلقات البنادق، ولم يتمكن مولاي عبدالله من تلقي أي مساعدة من فرقة المدفعية التابعة له والتي كانت توجد كلها على الضفة الأخرى من النهر.

* *انتصار مولاي زيدان على مولاي عبد الله :*

ولما وصل مولاي عبد الله إلى منحنى قريب من المكان الذي توجد به مدفعيته لم يقم بعبور النهر بل أخذ الطريق المؤدية إلى فاس، بالرغم من أن رجاله في الضفة الأخرى كانوا يصيحون قائلين: *"مولاي، اعبر النهر وسوف نقوم بحمايتك"*. لكن يظهر أن كلامهم لم يقنعه لأن الفزع كان قد تمكن منه واليهودي دخل جسمه[1]، وهكذا انهزم مولاي عبد الله بسبب حماقة أخرى من حماقاته. وقد انتهت المعركة دون أن يقتل ولو شخص واحد كما أن فرقتي المشاة من الجانبين لم تطلقا ولو رصاصة واحدة.

وبعد أن لاحظ أفراد فرقة المدفعية التابعون لمولاي عبد الله فرار هذا الاخير مع فرقة الفرسان ،اقترحوا على مولاي زيدان أن يسلموا أنفسهم وأسلحتهم على أن يتعهد بعدم مسهم بسوء، وقد قبل اقتراحهم، وبعدما قاموا بتسليم أنفسهم، سألهم هل يريدون خدمته، وقد قبل بعضهم في حين رفض البعض الآخر، اثر ذلك دفع الأجور للذين أظهروا القبول، وترك الذين رفضوا يذهبون أحرارا إلى حال سبيلهم .

**رحيل مولاي الشيخ إلى اسبانيا :*

بعد هذه المعركة انتقل كل من مولاي عبد الله ومولاي أبي فارس إلى منطقة توجد بين تافيلالت و تلمسان حيث أقاما عند بعض أصدقائهما من الأعراب، في حين أن مولاي الشيخ فر نحو العرائش، وبسبب مطاردته من

---

(1) ـ هذا التعبير يكنى به عن الخوف (المترجم)

طرف الباشا مصطفى الذي كان على بعد خمسة فراسخ من المدينة ابحر مع عائلته في اتجاه إسبانيا.

دخول مولاي زيدان إلى فاس :

كان هذا الانتصار مصدر فخر واعتزاز لمولاي زيدان خصوصا وأنه تمكن بواسطته من أن يخضع لسلطة ملك واحد ممالك مراكش وفاس وسوس وهو شيء لم تعرفه البلاد منذ موت مولاي أحمد.

فيما يتعلق بدخوله إلى فاس، فقد تم بشكل سلمي، حيث لم يظهر خلال الأيام الأولى التي قضاها بها شيء من قسوته المعهودة.

في ذلك الحين جاء من مراكش من أخبره أن أخاه مولاي عبد الله الذي كان قد عينه نائبا عنه بها ينوي ادعاء الملك لنفسه، وقد أرسلني مولاي زيدان إثر ذلك لتقصي الحقائق ومعرفة مدى صحة هذه الأقوال. ولما وصلت إلى مراكش تبين لي أن كل تلك الادعاءات كاذبة، لأن مولاي عبد الله كان لا يزال يحكمها باسم أخيه الذي يكن له كل تقدير واحترام، ولم يسع أبدا إلى البحث عن مجد شخصي. وقد كتبت إلى مولاي زيدان أطلعه على حقائق الأمور، لكن يظهر أن وقع الاتهامات الكاذبة كان أكثر تأثيرا عليه من الحقيقة.

** مجيء مولاي زيدان إلى مراكش وتركه الباشا مصطفى نائبا عنه بفاس :*

تحت تأثير تلك الإشاعات الكاذبة قرر مولاي زيدان العودة إلى مراكش، وقد ترك أمر فاس بيد الباشا مصطفى الذي بقي معه جيش مكون من أربعة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان.

وكان مولاي زيدان أثناء دخوله إلى فاس قد ألقى القبض على قواد مولاي عبد الله، وعند مغادرته لها أمر الباشا مصطفى بأن يقوم بقطع رؤوسهم ؛ ومن بين الذين لقوا هذا المصير القائد علي التطواني جنرال فرقة المشاة.

كان هؤلاء القواد وعلى رأسهم علي التطواني، قد جاءوا بأنفسهم لتهنئة مولاي زيدان بانتصاره لما سمعوا أنه أعلن عفوا عاما، وقد استقبلهم الباشا مصطفى الذي خاطبهم بما يلي: *"كيف تتجرؤون يا قلوب اليهود على مقابلتي وطلب مقابلة سيدي الملك، إنني أتساءل كيف يمكن أن يوجد بين المسيحيين أناس على هذه الدرجة من الوضاعة والخيانة. إنكم لم تمتلكوا الشجاعة الكافية لمرافقة سيدكم مولاي عبد الله الذي جعل من بؤساء مثلكم كبار قواده وحكام ولاياته. لقد كانت لهفتكم في الحصول على ما حصلتم عليه من أملاك ومنازل لا تقاوم، حيث لم تترددوا من أجل تحقيق ذلك في تشريد أمرائكم، والآن تأتون للتملق لأعدائكم، أهذا ما يستحقه مولاي عبد الله الذي عظم ومجد أناسا عديمي الضمير مثلكم ؟! لكن الوقت حان لتؤدوا ثمن ما ارتكبتموه من فجور، وإنني سوف أرسلكم عند الإله وليس عند سيدي الملك، لأنني لو أرسلتكم إلى هذا الأخير، فسوف يقول لي، انظر كيف هم أبناء المسيحيين وما هو مفهوم الوفاء عندهم، إنني لست مستعدا لأسمع إهانة من هذا النوع بسبب أناس عديمي الضمير مثلكم.*

لقد تبعت سيدي الملك في السراء والضراء، وكنت أرافقه في الصحارى، وأمنحه ثيابي الخاصة كي يفترشها، بينما أنام أنا على الأرض الجرداء. وكنت أحرم نسائي وأبنائي من الهدايا من أجل الحفاظ على وفائي له، لذلك رفع من منزلتي، حيث تحولت من أسير ضعيف إلى الرجل الثاني في مملكته، وإنه بسبب كل هذا لا يمكن أن أنظر إلى أعدائي إلا والرمح في يدي".

وعند انتهائه من توبيخهم، نهض متجها إلى منزله دون أن يودعهم وقد كان قواد مولاي عبد الله من السذاجة بحيث لم يفهموا قصده إلا بعد أيام من ذلك، عندما أمر بقطع رؤوسهم.

** تمرد سيدي إبراهيم بمملكة سوس :*

في تلك الأيام أعلن تمرده بمملكة سوس أحد الفقهاء ويدعى سيدي

إبراهيم[1]، ولنشر دعوته التجأ إلى حيلة تتلخص في تزيينه حصانا يمتلكه بجميع أنواع الحلي، وكان يمر بالشوارع قائلا : *"سوف يأتي صاحب هذا الحصان ويكون ملكا عليكم"*. وقد استطاع أن يجمع حوله كثيرا من الأتباع الذين كان يقول لهم عندما يدفع لهم الأجور : *"إنني أدفع لكم هذه الأجور من أموال الملك الذي سوف يغدق عليكم العطايا لما يأتي، مقابل ذلك عليكم طاعتي، لأنني مساعده"*. وقد وصل عدد الرجال الذين التفوا حوله إلى أربعة آلاف، دخل بهم مرة إلى مسجد عبدالله مبارك حيث قاموا بنهبه، وكان بالمسجد كمية كبيرة من الذهب أخفاها هناك بسرية تامة صاحب المسجد وعدد من أصدقائه وذلك على اعتبار أنه مكان آمن.

* *موت سيدي إبراهيم بسوس :*

كان سيدي إبراهيم يعد العدة لاحتلال تارودانت عندما فاجأه وباء الطاعون الذي قضى على حياته، وذلك بعد ستة أشهر من تمرده. وقبل وفاته عين ابن أخيه المدعو أبا حسون وريثا له، وكان شابا اشتهر بالشجاعة بين البربر. وقد ورث كل أموال عمه، إضافة إلى جيش مكون من أربعة آلاف رجل.

أثناء ذلك كان يتولى الحكم في سوس باسم مولاي زيدان القائد جرمان وهو علج برتغالي، وقد أرسل يخبر سيده بتمرد أبي حسون وتزايد خطره ويطلب منه إيجاد حل للمشكل قبل استفحاله.

لما وصل مولاي زيدان الخبر، هيأ جيشا قوامه ثلاثة آلاف رجل وضع على رأسه القائد محمدا بن سبيار الذي أمره بالانطلاق لتوه نحو سوس، وكان الجنود لم يتقاضوا أجورهم بعد، وقد رد عليه محمد بن سبيار بقوله : *"أين تريدني أن أذهب بجنود لم يتقاضوا أجورهم، وأغلبهم لا يتوفرون على*

---

(1) ـ يتعلق الأمر هنا دون شك بسيدي إبراهيم أوعلي تلميذ سيدي سعيد أو عبدالنعيم الذي توجد زاويته في منطقة إيدوتنان.

سيوف، إن ما عليك القيام به أولا يا مولاي، هو دفع أجور الجنود، لأن إرسال رجال دون أجور يعني إرسال المزيد من الأعداء".

* *إرسال مولاي زيدان للقائد حدو طبيب على رأس ثلاثة آلاف جندي إلى سوس :*

أغضب كلام محمد بن سبيار كثيرا مولاي زيدان لدرجة أنه أعفاه من تلك المهمة، وعين مكانه القائد حدو طبيب وهو علج من كبار القواد، وأخبر الجنود كذبا أنهم سيقبضون أجورهم في تارودانت.

عند وصول القائد حدو طبيب إلى تارودانت، تبينت له خطورة تمرد البربر وما هم عليه من عزم وإرادة. وقد كتب إثر ذلك إلى مولاي زيدان يخبره أن الأمر خطير ويطلب منه في نفس الوقت إرسال عدد آخر من الرجال، لأن القوة التي معه غير كافية ليدخل بها المعركة.

* *إرسال مولاي زيدان امدادات جديدة قوامها خمسمائة وألف رجل إلى تارودانت :*

وقد أرسل له مولاي زيدان خمسمائة وألف رجل مع القائد عبد القادر عامل مراكش، هؤلاء شأن من سبقهم ذهبوا مرغمين ودون أن يتقاضوا أجورهم، وقد كان جلهم من سكان مراكش حيث سبق لمولاي زيدان أن سجنهم وذلك حتى لا يفروا من المدينة، وقبل انطلاقهم نحو تارودانت أمر بإعطاء كل واحد منهم مثقالا قيمته عشرون ريالا فقط.

هذه هي الأحداث التي عرفتها الممالك المغربية إلى غاية العشرين من أبريل 1609.

الفصل الخامس

الاحداث التي عرفتها الممالك المغربية

الى نهاية عام 1610

** وصول سفير الولايات العامة الهولندية إلى مراكش :*

في تلك الأيام وصل الى مراكش سفير هولندا ومعه أربع سفن حربية وأربعمائة جندي سبق لمولاي زيدان أن بعث في طلبهم، وذلك قصد إرسالهم مع جنود مغاربة إلى حصن العرائش للقيام بحمايته.

ومما تناوله ذلك السفير مع مولاي زيدان، القيام بتحصين المعمورة ونزول الهولنديين بها ، مقابل ذلك تعهد هؤلاء لمولاي زيدان بدفع إيجار سنوي معلوم. وقد تم الاتفاق بينهما أن يبقى كل ذلك في سرية تامة، وأن يبين مولاي زيدان للعموم أن عملية تحصين المعمورة هي مبادرة فردية لادخل للهولنديين فيها.

كما ناقش مولاي زيدان مع المبعوث الهولندي إمكانية قيام الولايات العامة الهولندية بترميم معامل قصب السكر والعودة إلى زراعة هذا المنتوج في المغرب بشكل واسع. مقابل الاستفادة من هذه المشاريع أبدى المسؤول الهولندي استعداد بلاده لدفع قيمة محددة من الضرائب لمولاي زيدان. ولتفادي تكرار ما حدث بعد وفاة مولاي أحمد حيث قام الأعراب بالسطو على هذه المعامل وتخريبها ، اقترح السفير الهولندي بناء حصنين يتمركز بهما الجنود الهولنديون، الأول بجوار معامل قصب السكر والثاني بمحاذاة شاطئ سانتاكروث.

ومن النقاط الأخرى التي تم التطرق إليها، السماح للسفن الهولندية بالنزول بالشواطئ والموانئ المغربية بكل حرية، وقد تعهد السفير الهولندي بأن تقوم بلاده بترميم تلك الموانئ لتصبح صالحة لرسو السفن، كما طلب من مولاي زيدان السماح للسفن الحربية الهولندية باستعمال الموانئ المغربية في حالة تجدد الحرب مع إسبانيا، خصوصا وأن اللجوء إلى هذه الموانئ عند الضرورة، سيسمح للجنود الهولنديين بتنظيم صفوفهم وضمان سلامتهم، ثم إن نزول هؤلاء الجنود بالموانئ المغربية سيحول دون مهاجمتها من طرف الإسبان. في نفس اللقاء تم الحديث عن منح مولاي زيدان للهولنديين ممرا بريا يسمح لهم بالوصول إلى القلاع التي تحتلها اسبانيا ببلاد البربر قصد محاصرتها. وأكد السفير الهولندي أن بلاده وبعد احتلالها لهذه القلاع ستدفع لمولاي زيدان إيجارا سنويا بشكل منتظم، كما أنها ستعيدها له مستقبلا.

** القرار الذي اتخذه مولاي زيدان بشأن إقامة جنود هولنديين بالعرائش :*

ولما رأيت عزم مولاي زيدان على السماح بنزول كتيبة من الجنود الهولنديين بالعرائش، وإدراكا مني بأن ذلك لن يكون في صالح جلالتكم، قلت له إن عليه أن يفكر كثيرا قبل أن يتخذ قرارا من هذا النوع، لأنه إذا كان هو الذي سيسمح للهولنديين بدخول العرائش، فربما لن يكون بيده قرار إخراجهم في المستقبل. كما أن المسلمين عندما يرون وجود قوات هولندية بحصن العرائش، فإنهم سيعتقدون أن مولاي زيدان باعه لهم، مما سيمس بالسمعة الحسنة التي يتمتع بها بينهم، وبالتالي سيدركون أنه في حالة من الضعف بحيث لم يستطع أن يحافظ على مانالة بشجاعته وعدله. وقد طلبت من مولاي زيدان كذلك عدم تصديق ما يقال بشأن تسليم مولاي الشيخ لهذا الحصن للإسبان، لأنه لايمتلك أصلا أي شيء في مملكة المغرب، وأن الذي يهم في هذا الوقت بالذات هو عدم التسرع في اتخاذ قرار غير

مناسب قد تنجم عنه عواقب خطيرة تمس شرفه وسمعته. واضفت إلى ذلك الكلام حججا وأدلة أخرى كلها تصب في نفس الاتجاه، مما جعل مولاي زيدان يتراجع في النهاية عن قراره المتعلق بالسماح للقوات الهولندية بالنزول في حصن العرائش.

فيما يخص تحصين المعمورة، قلت لمولاي زيدان إن الإسبان عندما يعلمون بأن الهولنديين يقومون بذلك من أجل نزولهم بها، فإنهم سينزعجون أشد انزعاج، ذلك لأن لهم الكثير من الحدود مع المناطق الساحلية لبلاد البربر، ومن دون شك فإن اسبانيا سوف تستغل وجود مولاي الشيخ بديارها وترسله على رأس حملة عسكرية ليعلن الحرب عليه. وبينت له أن ملك اسبانيا يمكنه زعزعة الاستقرار بحصن المعمورة، لذا فإنه من الأفضل أن يكون في علاقة ودية مع جار قوي على أن يدخل في تحالف مع بلد بعيد كهولندا، خصوصا وأن هذا التحالف قد يحمل له من الضرر أكثر مما قد يحمله من الفائدة. وبفضل هذه الحجج، بدأ مولاي زيدان يماطل الهولنديين في شأن تحصين المعمورة.

* *القرار الذي تم اتخاذه في شأن إعادة تشييد معامل قصب السكر :*

فيما يتعلق بإعادة تشييد معامل قصب السكر، فقد وافق مولاي زيدان على اقتراح السفير الهولندي، لكنه رفض رفضا قاطعا بناء حصون يقوم بواسطتها الهولنديون بحماية تلك المعامل. بالنسبة لبقية النقاط التي طرحها معه السفير الهولندي فقد وعده بتنفيذها عندما يحين الوقت المناسب، وأكد له بأن على الولايات العامة الهولندية أن تعتمد عليه في كل ما قد تحتاجه من مساعدة.

وفي اليوم التالي أخبرني مولاي زيدان، أنه يتخوف كثيرا من احتلال القوات الهولندية حصن العرائش إذا ما سمح لها بالنزول به، لهذا ولتفادي هذه الوضعية قرر عدم السماح لهم بذلك. وقد سألني عن الطريقة التي يمكن أن يعيد بها السفير إلى حال سبيله دون أن يدرك هذا الأخير أنه لا يثق

بوعود الهولنديين، فطلبت منه أن يكتب إلى السلطات الهولندية يخبرها أنه لأسباب خاصة لا يمكنه في الوقت الحاضر تنفيذ ما تم الاتفاق عليه، وفي نفس الوقت طلبت منه أن يدفع مصاريف السفن والجنود الهولنديين الذين جاءوا مع ذلك السفير، ويرسل للكونت *ماوريشيو* رسالة شكر وهدية يبين من خلالهما امتنانه لكل ما أبداه من أجل مساعدته، وقد قام مولاي زيدان بتنفيذ كل ذلك كما اقترحته عليه.

** خوض مولاي أبي فارس ومولاي عبد الله معركة ضد الباشا مصطفى :*

في تلك الأيام جاء مولاي أبو فارس ومولاي عبد الله على رأس جيش مكون من أربعة آلاف من الفرسان لمواجهة الباشا مصطفى الذي كان مولاي زيدان قد عينه نائبا عنه في فاس. وقد خرج هذا الباشا للقائهم على بعد ستة فراسخ من المدينة نحو الجهة المؤدية إلى تلمسان، وكان بمعيته أربعة آلاف من المشاة ومائة من الفرسان.

وقد اعتمد مولاي عبد الله ومولاي أبو فارس بالأساس على سلاح الفرسان لمهاجمة العدو الذي كان يتألف من كتيبة واحدة تضم المشاة في الوسط والفرسان في الجوانب، هذه الكتيبة وبسبب الحدة التي هوجمت بها أصيب أفرادها بفزع كبير اضطروا معه إلى الفرار.

** موت الباشا مصطفى :*

ولما رأى الباشا مصطفى حالة الارتباك التي كان عليها رجاله أثناء المعركة، نزل عن فرسه وتقدم بين المشاة حيث بدأ يحارب بنفسه إلى أن قتل، وكان بإمكانه الفرار لكنه رفض ذلك، حيث قال لبعض الجنود إنه يفضل الموت على العودة منهزما ليقابل سيده.

ويعود أصل هذا الباشا إلى كورسيكا، وكان يتميز بنبل وشهامة خصوصا مع المسيحيين الذين لم يبخل عليهم بمساعدة، كما عرف بوفائه

النادر لسيده، وقد اشتغلت أمه في البلاط الملكي كمربية لمولاي زيدان، لذا وبحكم معاشرته له منذ الطفولة، نشأت بينهما محبة وود كبيران. وعندما أصبح من كبار قادة الجيش حصل لوالديه على حريتهما، وأعطاهما هبات مالية تمكنهما من العيش حياة كريمة، كما أنه قام بأعمال أخرى حميدة، تعبر كلها عن شهامته ودمه المسيحي.

وكان لموت هذا القائد أثر كبير في نفس مولاي زيدان الذي لم يحزن على فقدان مملكة فاس بأكملها مقدار أسفه على مقتل الباشا مصطفى، هذا الحزن وصل لدرجة انقطع معها عن الناس لأيام كثيرة وأهمل شؤون الحكم، مما كان له أثر سلبي جدا على البلاد.

** إهمال مولاي زيدان يؤدي إلى انتشار المجاعة بمراكش :*

استغل الأعراب حالة الارتباك التي كانت تعيشها البلاد، فكثفوا من أعمال النهب والسرقة التي كانوا يقومون بها، خصوصا السطو على المؤن التي كانت تستقدم إلى مراكش من جهات مختلفة، وقد وصل الوضع لدرجة استحال معها دخول أية امدادات للمدينة. وكان من عواقب ذلك أن مراكش عرفت خصاصا كبيرا ارتفع معه ثمن فنقة واحدة من القمح إلى مائتي ريال، كما ارتفعت أسعار بقية المواد الغذائية بنفس الوتيرة، وهكذا عمت المجاعة المدينة، وكان شيئا مؤسفا أن ترى كل صباح جثث الأهالي الذين ماتوا جوعا وهي مرمية بالشوارع.

** خلاف بين القائد عبد القادر والقائد حدو طبيب:*

في تلك الأيام كذلك حدثت معركة في مملكة سوس بين أحد المتمردين وجيش مولاي زيدان، الذي كان يتكون من أربعة آلاف رجل، على رأسه القائدان حدو طبيب وعبد القادر، وقد حدثت المواجهة بين بعض الأودية الواقعة بجبال سوس.

وقبل وقوع المعركة نشأ خلاف بين القائدين بشأن من تكون له القيادة

العامة للجيش ؛ فحدو طبيب كان يعتبر نفسه أحق بذلك لاعتباره قائدا قديما وله تجربة واسعة، في حين أن القائد عبد القادر وباعتباره عاملاً لمراكش كان يرى أنه أحق بتولى أمر الجيش، وأمام عدم اتفاقهما ، بقي كل واحد منهما على رأس الجنود الذين يقودهم مشكلين وبدون انتظام كتيبتين.

* *انتصار المتمرد أبي حسون على جيش مولاي زيدان :*

تمكن المتمرد أبو حسون الذي كان يقود جيشا من ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل من مهاجمة جيوش مولاي زيدان والانتصار عليها. ولم يسع القائدان حدو طبيب وعبد القادر إلا الفرار، حيث التجآ إلى مسجد يقع بين الجبال. وعلى الرغم من أنه لم يمت أحد من رجال مولاي زيدان في المعركة، فقد عانوا كثيرا بعد ذلك من جراء الجوع الذي قضى على أغلبهم، ولم ينجح في العودة إلى مراكش إلا القليل منهم.

ولم يكن هناك من يجرؤ على إيصال خبر الهزيمة إلى مولاي زيدان، لذا أمرتُ بأن يكتب الخبر في ورقة توضع على وسادة بالمكان المخصص لجلوسه، ولما جاء إلى قاعة الاستقبالات وهم بالجلوس، أبصر الورقة وقرأها ، ودون أن ينطق بكلمة واحدة، انسحب من جديد من المجلس عائدا إلى قصره.

وفي اليوم التالي، سألني هل توصلت برسالة من مملكة سوس، وقد أجبته بنعم، وأن ذلك كان قبل دخول رجالنا المعركة، عند ذلك قال لي: *"لقد انهزم أولئك اليهود"* .

وكيفما كان الحال، فإن الوضع كان يحتم إعادة جمع المنهزمين لتكوين جيش جديد يتولى أمره القائد محمد بن سبيار الذي طلب مني مولاي زيدان التوجه إلى منزله، وإخباره بأنه بإمكانه المجيء إلى القصر الملكي، وكان مولاي زيدان قد غضب من هذا القائد وأمره بعدم الخروج من بيته.

* *خصاص في السلاح والرجال بمملكة سوس :*

ولم يكن قد بقي مع مولاي زيدان قواد أو جنود يمكنه الاعتماد عليهم،

كما انعدم السلاح من بنادق ورماح وسهام، ونفدت النعال المخصصة للخيول والمواد المخصصة لصناعة الرصاص وذلك في وقت لم تعد فيه خزائن مولاي زيدان تتوفر على الأموال التي يمكن بواسطتها شراء الأسلحة، وإن كل هذا جاء نتيجة للمعارك الكثيرة التي كان هذا الملك يأمر بخوضها. ومما زاد في حدة الوضع، توقف التجار الانجليز عن جلب السلاح، والفرنسيين عن جلب الحديد. هذا الخصاص كان يقابله فائض في شيء واحد هو وباء الطاعون الذي استفحل بشكل رهيب وأتى على الأعراب والحضر على السواء.

هذه الوضعية جعلت مولاي زيدان يعيش حالة من الارتباك دفعته لاتخاذ بعض القرارات الارتجالية مثل تعيين قواد جدد دون أية تجربة، من بين هؤلاء مجموعة من الغلمان الذين كانوا يشاركونه شهواته وفجوره.

وقد قرر مولاي زيدان كذلك ضم عناصر جديدة إلى الجيش، ولتحقيق ذلك استعمل أسلوب الإغراء حيث أمر بأن تدفع الأجور مقدما لكل الجنود الجدد، وكان قد خصص لذلك ستمائة ألف أوقية، لكن هذه الأموال بقيت على حالها لأنه لم يوجد بمراكش من يريد الانضمام إلى جيش مولاي زيدان عن طواعية.

أمام هذه الوضعية بدأ بإرغام الأهالي على الانضمام إلى الجيش، وكان القواد الجدد الذين عينهم يمرون بالشوارع ويلقون القبض على كل من يجدونه بها، وبعد أن يربطوا في طرف جلبابه قطعة نقدية من قيمة أربعة دوكادوس، يأخذونه إلى السجن حيث يبقى هناك إلى أن يقدم الضمانات الكافية بأنه لن يفر من الجيش. ولم يكن يستطيع مغادرة السجن إلا الأغنياء، وذلك بعد أن يقدموا للقواد الأموال التي يطلبونها منهم.

* *مغادرة سكان مراكش منازلهم :*

وبفضل ابتزاز الأموال من سجنائهم، تمكن هؤلاء القواد من تكوين ثروات مهمة في مدة وجيزة، في هذه الأثناء أصبحت مراكش شبه خالية من

السكان، لأن الأهالي غادروا بيوتهم بشكل جماعي وتوجهوا إلى الجبال وذلك حتى لا يعانوا المزيد من الطغيان.

ولما رأى مولاي زيدان أن المدينة أصبحت شبه فارغة، أرسل في طلب عرب الشبانات يدعوهم إلى المجيء للإقامة بمراكش، وقد نزل هؤلاء بأحسن المنازل، وبما أنهم غير متعودين على السكن في المنازل فقد حولوها إلى خراب في أيام قليلة ؛ ذلك لأنهم كانوا يدخلون الخيول إلى الغرف والتي رصفت أرضيتها بدقة بالغة حيث كلفت الكثير، كما أنهم كانوا يخلعون خشب سقف المنازل لبيعه أو لاستعماله مكان الحطب في إيقاد النار، وبهذه الطريقة خرب عرب الشبانات ما يزيد عن عشرين ألف منزل، وإذا أضفنا إلى ذلك المنازل التي أصابها الخراب من تلقاء نفسها بعد أن غادرها أصحابها، تبين لنا كيف أن مراكش التي كان بها حوالي مائة ألف منزل أصبحت عبارة عن أطلال.

**تكوين مولاي زيدان لجيش من ثلاثة آلاف رجل:*

وعلى الرغم من الصعوبات التي وجدها مولاي زيدان في ضم عناصر جديدة، فقد استطاع تكوين جيش من ثلاثة آلاف رجل، كما قام بجمع بعض قطع المدفعية التي كان لا يزال يحتفظ بها، لكنه لم يعثر على الخشب الضروري لصنع العربات المخصصة لجر المدافع، ذلك لأن الأعراب كانوا قد قطعوا كل الأشجار وكسروا كل الأبواب الموجودة بمراكش، كما أنه لم يعد لديه الأشخاص الذين بامكانهم تشغيل هذه المدافع.

** إرسال مولاي زيدان سفيره إلى هولندا :*

ندم مولاي زيدان كثيرا على رفضه السماح للهولنديين بالنزول بحصن العرائش، خصوصا بعد ما ضيع مملكة فاس، وقد تبين له استحالة الحفاظ على ممالكه اعتمادا على الجنود المغاربة فقط، لذلك أرسل القائد حمو بن بوخيار في سفارة إلى هولندا من أجل استقدام ستة آلاف جندي هولندي.

وقد حمل هذا السفير معه إلى هولندا كمية هامة من العنبر الأسود، إضافة إلى العديد من مجوهرات مولاي زيدان، قصد بيعها أو رهنها، لأن مولاي زيدان أنفق كل ما كان معه من المال، في وقت لم يعد فيه يمتلك القوات الكافية التي يمكن بواسطتها إرسال حملات ترغم الأعراب على أداء الضرائب التي تضمن مداخيل جديدة، لذا أوصى سفيره بالقيام بكل ما في وسعه قصد استقدام الجنود الهولنديين وكذا جمع أكبر قدر من المال عن طريق بيع العنبر والمجوهرات. وكان يرى أنه بواسطة الجنود الهولنديين سيتمكن - بالإضافة إلى الحفاظ على ممالكه والانتصار على أعدائه - من إرغام الأعراب على أداء الضرائب.

خلال تلك الأيام أرسل مولاي زيدان قائد فرقة المدفعية إلى بعض الجبال التي كان يظن أنه يوجد بها الخشب وذلك لأجل استعماله في صنع العربات التي تجر قطع المدفعية. في نفس الوقت أمر ذلك القائد بإرغام بربر تلك الجبال على أداء الضرائب ولتنفيذ ذلك أرسل معه خمسمائة من المشاة وخمسين من الفرسان.

* *قتل البربر لقائد المدفعية :*

عندما وصل قائد المدفعية إلى الجبال أراد صناعة العربات، وفي نفس الوقت إرغام البربر على أداء الضرائب، لكن هؤلاء لم يكونوا بالسهولة التي تصورها، حيث إنهم تمكنوا من قتله، وأخذوا من الجنود الذين يرافقونه سلاحهم وجردوهم من ثيابهم وأرسلوهم عراة إلى مراكش.

في ذلك الوقت كانت المصائب تنهال على مولاي زيدان من كل حدب وصوب، وكان يقاوم كل ذلك ما استطاع، حيث يخرج القوة من الضعف. وقد عقد العزم على إرسال جيشه إلى الجبال لمعاقبة البربر، لكنه عدل عن رأيه في آخر لحظة حيث قرر الاحتفاظ بالجيش لمواقف تكون أكثر خطورة.

* *معارضة الفقهاء لاحتلال أبي حسون لتارودانت :*

وقد حاول ذلك المتمرد احتلال تارودانت، لكنه اصطدم بمعارضة فقهاء مملكة سوس الذين أكدوا أن مولاي زيدان أحق بتلك المدينة لأن جده هو الذي بناها، ولن يسمحوا بأن يأخذها منه إلا من كان من سلالة جده.

وإذا كانت مملكتا سوس ومراكش الواقعتان تحت سلطة مولاي زيدان توجدان في حالة من الاضطراب، فان مملكة فاس لم تكن أحسن حالا، خصوصا وأن مولاي عبد الله قام بقتل عمه أبي فارس. وكان قد وقع بينهما قبل ذلك اتفاق مبدئي يتولى بمقتضاه مولاي أبو فارس عرش مراكش مدى حياته ويعين مولاي عبد الله وارثا له على عرش تلك المملكة، ولتنفيذ هذا الاتفاق قررا القيام بحملة إلى مراكش ، يقودان فيها جيشا مكونا من خمسة آلاف رجل. أثناء ذلك ذهب بعض الشراركة عند مولاي أبي فارس وقالوا له: *"مولاي ، إننا ساعدنا كثيرا مولاي عبد الله،وحققنا من أجله انتصارات باهرة، لكن وبما أنه لازال فتى تنقصه التجربة فإنه لم يعرف الحفاظ على ممالكه، أما أنت يامولاي ، فإنك رجل ناضج، متفهم ومحبوب ، لذا فإننا نريدك ملكا علينا ، وسوف نحارب من أجلك حتى نموت أو ننتصر على أعدائك، وإنه من مصلحتك أن تتولى الملك وتحافظ عليه ، وإذا أذنت لنا فسنلقي القبض على مولاي عبد الله ونسلمه لك لتفعل به ما يظهر لك"* .

* *خيانة الشراركة لمولاي أبي فارس واتهامه بما لم يقترفه :*

وقد شكر مولاي أبو فارس الشراركة على عرضهم،لكنه أخبرهم أنه يرفضه لأنه لايتماشى مع ضميره و سمعته، وأنه إذا كان يريد الحفاظ على مملكته فليس بالطريقة التي اقترحوها عليه، ذلك لأن مولاي عبد الله هو ابن أخيه، كما أنه يوجد بينهما اتفاق لايمكنه نقضه. وحول تقصير مولاي عبد الله في الحكم مما أدى إلى وقوع بعض النكبات، فقد أجابهم أن كل شيء بيد الله وهو يفعل ما يريد، أما مولاي عبد الله فهو أمير شجاع وذكي يمكن للمغاربة الاعتماد عليه كملك قوي عند وصوله سن النضج.

وقد أحس الشراكّة بالاهانة ، لعدم قبول مولاي أبي فارس لعرضهم ، لذا ورغبة في الانتقام منه، ذهبوا عند مولاي عبد الله وقالوا له : "مولاي، *ذهبنا عند مولاي أبي فارس لتحيته ، وطلب منا الجلوس، ثم اسمعنا كلاما مشينا بك ويضر بشخصك، استنتجنا منه أنه يريد أن يلقي القبض عليك ويتولى هو الملك"* .

إثر ذلك شكر مولاي عبدالله الشراكّة، وفي ليلة نفس اليوم توجه مع عدد من الخصيان وبعض الخدم إلى مأوى مولاي أبي فارس، حيث وجده منهمكا في القراءة، ولما لاحظ هذا الأخير أن مرافقي مولاي عبدالله أشهروا خناجرهم، صاح به : *"لقد قررت الخيانة"* ! فرد عليه مولاي عبدالله : *"أنت هو الخائن، وستدفع ثمن خيانتك"* . وبما أنه كان ينوي قتله بحد الخنجر، فقد قال له مولاي أبو فارس : *"لا أراد الله أن تريق دمي، وإذا كان حظي التعيس ووفائي لك قد أوصلاني إلى هذه الوضعية، وكنت تريد أن تنهي حياتي، فإني أطلب منك أن تفعل ذلك خنقا وليس باراقة دم ملك، ولاحظ أنه بالرغم مما أنا فيه فلازلت أقدم لك النصيحة، وإنني أطلب منك قبيل تنفيذ ما نويته أن تتركني أؤدي الصلاة"* .

* *موت مولاي أبي فارس :*

وقد سمح له مولاي عبدالله بالصلاة، وبعد انتهائه قال لخدمه : *"اخنقوه"* . عندها قام هؤلاء بتنفيذ ذلك بواسطة خمار كان حول عنقه، وحسب بعضهم فإن مولاي عبدالله ساعدهم بيده على خنقه ؛ مما يعبر بوضوح عما كان يتصف به من فظاظة وقسوة.

* *خصال مولاي أبي فارس :*

وقد عرف مولاي أبو فارس برصانته وحلمه، كما أنه على عهد والده كان دائما مطيعا له، ثم إن حياة اللهو لم تكن تغريه كثيرا، لكن كل هذه الخصال لم تحل بينه وبين النهاية التعيسة التي عرفتها حياته. فيما يتعلق

بمولاي زيدان فإنه سر كثيرا لما علم بالخبر، خصوصا وأن ذلك يعني تخلصه من أحد ألد أعدائه ؛ لأن مولاي أبا فارس كان محبوبا من طرف سكان مدينة مراكش وكذا من طرف الأعراب والبربر، وهو من دون شك أحسن ملك حكمهم من بين أبناء مولاي أحمد. ورغم أن مولاي زيدان كان سعيدا لتلك الحادثة، فقد تظاهر بالحزن وكان يقول إنه سينتقم لمقتل أخيه مولاي أبي فارس.

** وصول مولاي الشيخ إلى صخرة بادس وتسليمه العرائش للمسيحيين :*

في تلك الأيام كذلك وصل إلى صخرة بادس مولاي الشيخ الذي قام بتسليم العرائش للمسيحيين. وقد نزل ذلك الخبر كالصاعقة على مولاي زيدان، الذي أصيب بصدمة بقي على إثرها طريح الفراش لعدة أيام، وما إن استجمع قواه حتى استدعى الفقهاء وشيوخ الأعراب وأعيان المدينة، وبدأ يبين لهم فداحة ما قام به مولاي الشيخ بتسليمه العرائش للمسيحيين. وفي نهاية الاجتماع تقرر إشهار الحرب على هؤلاء، لكن لم يرد أحد من الحاضرين المشاركة في تلك الحرب أو المساهمة فيها بالأموال على الرغم من تعهدهم بذلك. وقد استغل مولاي زيدان فرصة قرار إعلان الحرب، ليرغم الناس على الانضمام إلى الجيش بدعوى محاربة المسيحيين الذين يحتلون أراض مغربية.

حينئذ قلت لمولاي زيدان إنه إذا كان المغاربة قد حقدوا كثيرا على مولاي الشيخ لتسليمه للإسبان العرائش فقط، فماذا سيكون موقفهم منه هو عندما سيعلمون باستقدامه للهولنديين الذين سوف يتواجدون بمختلف أنحاء المغرب، حيث سيستخدمهم في محاربة المغاربة وإرغامهم على أداء الضرائب، وأضفت قائلا إن هناك خطرا آخر غير مستبعد ويتمثل في احتمال قيام الهولنديين باحتلال مملكته برمتها. وقد أثر فيه كلامي لدرجة عبر لي معها عن ندمه في إرسال سفارة تسعى لجلب جنود هولنديين، وأضاف أن

سعادته ستكون كبيرة لو فشلت تلك السفارة في مهمتها، عند ذلك أجبته بأنه بإمكانه تدارك الوضع ومعالجة الموضوع بإرسال أحد رجاله إلى هولندا ليطلب من السفير إيقاف الإجراءات المتعلقة بجلب الجنود الهولنديين.

** إرسال مولاي زيدان من يأمر سفيره بعدم تجنيد الهولنديين :*

وبعد اقتناعه بما قلته له، أرسل إلى هولندا أحد رجاله لينقل إلى السفير أمره بايقاف الإجراءات المتعلقة بتجنيد ستة آلاف هولندي، وأن يحصر مهمته في بيع الماس والياقوت الذي حمله معه، ثم يعود بالنقود في أسرع وقت، ذلك لأن مولاي زيدان وبعد أن تعذر عليه القيام بحملات لإرغام الأعراب على أداء الضرائب، أصبح في أمس الحاجة إلى المال من أجل دفع أجور الجنود الذين أرغمهم للانضمام إلى جيشه.

** مصادرة مولاي زيدان أربعمائة ألف أوقية كانت في ملك التجار المسيحيين :*

وكان التجار الانجليز والفرنسيون الموجودون بمراكش يصدرون كميات كبيرة من الشمع والنيلة وريش النعام ومواد أخرى مماثلة، وقد أخفى هؤلاء بين الطرود الموجهة للتصدير كمية من المال تقدر بأربعمائة ألف أوقية من قطع أربع ريالات، بالإضافة إلى كمية كبيرة من التبر، غير أن خبر هذه الثروة تسرب إلى مولاي زيدان الذي أمر بمصادرتها، بدعوى أن هؤلاء التجار قد خالفوا قوانين المملكة عندما سعوا لتهريب الأموال إلى البلاد المسيحية.

في تلك الأيام كذلك قام بعض التجار باستجلاب ست خروبات من اللؤلؤ الصغير، وما إن علم مولاي زيدان بخبرها حتى أخذها منهم عن آخرها وذلك بدعوى أنهم لم يؤدوا العشر.

** شراء مولاي زيدان لكمية كبيرة من السلع من القراصنة :*

وقد جاء إلى ميناء آسفي في ذلك الحين بعض القراصنة ومعهم

أربعمائة وألفا صندوق من السكر، وكمية كبيرة من المرجان، والصمغ وأنواع كثيرة من النسيج من بينها النسيج الحريري المشجر، وتوابيت خاصة برفات القديسين المسيحيين، وكؤوس فضية وكثير من الرسوم، وباختصار فقد كان مع هؤلاء اللصوص ست بواخر مملوءة عن آخرها بالثروات.

وقد ابتاع مولاي زيدان من هؤلاء كل ما استطاع، وكان ذلك بثمن شبه مجاني، حيث إن الثمن الذي اشترى به كل صندوق من السكر يحتوي على عشرين خروبة هو ستون ريالا، وبعد إعادة بيع ما اشتراه، تمكن من ربح أموال كثيرة سمحت له بتنظيم جيشه من جديد، كما أدى أجور الجنود وابتاع الخيول لخدمه.

* *شراء مولاي زيدان السلع بالدين من التجار المسيحيين :*

في نفس الوقت ابتاع مولاي زيدان من التجار المسيحيين الموجودين بمراكش كل ما كان معهم من أنواع النسيج، مثل القماش والنسيج القطني والقلنسوة، وأخبرهم بأنه سيدفع لهم بالمقابل السكر الذي كان قد اشتراه من القراصنة، لكن ذلك كان مجرد خدعة حيث لم يدفع لهم أي شيء.

* *وصول أحد القراصنة وبحوزته ستمائة ألف دوقة :*

في تلك الأثناء جاء من سان مالو أحد القراصنة المعروفين، وبحوزته أربع سفن فرنسية محملة بالأسرى، إضافة إلى ما يعادل ستمائة وألف دوقة، كل ذلك حصل عليه من عمليات النهب التي قام بها في كل من سان لوكار وقادس وإشبيلية. وكان هدف هذا القرصان من زيارته للمغرب، القيام بعمليات مقايضة تسمح له باستبدال الفضة التي معه بالذهب. وقد قدم كهدية لمولاي زيدان سفينتين مملوءتين بالنقود، وبما أنه كان من أصل هولندي فقد حمله مولاي زيدان اعتذاره إلى السلطات الهولندية، إثر ذلك غادر المغرب في اتجاه فلورانسيا.

** عودة السفير الذي أرسله مولاي زيدان إلى هولندا:*

في تلك الأثناء عاد إلى مراكش السفير الذي كان مولاي زيدان قد بعثه إلى هولندا، وقد حمل معه كميات مهمة من الأموال تحصلت لديه من المجوهرات التي قام ببيعها، في نفس الوقت حمل معه ألف رمح وبعض البنادق والخناجر، إضافة إلى رسالة من المسؤولين الهولنديين، إلى مولاي زيدان يقترحون عليه من خلالها مشاريع كثيرة. وقد عاد برفقة السفير، أحد خدم الكونت *ماوريشيو*، والذي كان يحمل رسالة من سيده إلى مولاي زيدان.

** الاقتراح الذي تقدم به صامويل بلاشي لمولاي زيدان:*

وقد جاء كذلك إلى مراكش مسؤول من الولايات العامة الهولندية هو *صامويل بلاشي*، وتقدم مع بعض المورسكيين المطرودين من إسبانيا باقتراح لمولاي زيدان يهم القيام بعملية سطو على سواحل مالقا، حيث ينزلون ليلا بمكان يعرف باسم برشيلس *Percheles*[1] ويقومون بنهبه، وأكدوا لمولاي زيدان نجاح العملية التي ستمكنهم من الحصول على الكثير من المتاع والأسرى، ووعدوه بأن يقدموا له الربع من كل ما يحصلون عليه، مقابل ذلك طلبوا منه أن يزودهم بثمان سفن وألفين من حملة البنادق، وحثوه على طلب السفن والأسلحة الضرورية من هولندا.

وقد وعدهم مولاي زيدان بتنفيذ ذلك وأمرني بأن أكتب باسمه رسالة إلى الولايات العامة الهولندية يطلب فيها البواخر الثمان وبقية الأمور اللازمة، ويوضح أن ذلك لتنفيذ مهمة تعود بالمنفعة على الجميع. وقرر إرسال سفير آخر يقوم بالإضافة إلى تسليم الرسالة، تزكية اعتذاره السابق المتعلق بالستة آلاف جندي الذين تراجع عن قراره في شأن قدومهم إلى المغرب.

---

(1) برشيلس *Percheles* : اسم لحي ساحلي بضواحي مالقا، سمي كذلك اشتقاقا من كلمة Perchas مشجب والذي تعلق به الأسماك للتجفيف.

* *الخدمة التي اسديتها لجلالتكم :*

ولما تبين لي الضرر الكبير الذي سيلحق بملكي وسيدي الفعلي من هذه العملية، خصوصا وأنه سينجم عنها أسر الكثير من المسيحيين، ذهبت عند أم مولاي زيدان وأخبرتها بما ينوي هذا الأخير القيام به، وبينت لها عواقب ذلك خصوصا وأن الأمر يتعلق بمهاجمة سواحل ملك الكاثوليك والذي يتوفر على جيش قوي يسمح له بالانتقام، ووضحت لها كيف أن بإمكانه الوصول بسهولة إلى المغرب، خصوصا وأن له معه حدودا كثيرة قد ينطلق منها للقيام بعمليات عسكرية مزعجة، لذا فإن الحل الأمثل هو تفادي منح هذه الفرصة لجار قوي. وقد أضفت لذلك حججا أخرى كلها تصب في نفس الاتجاه، وفي الأخير وعدتني بأنها ستقنع الملك بالعدول عن القيام بتلك العملية.

وفي اليوم التالي، أخذت إلى مولاي زيدان الرسائل التي كان قد أمرني بكتابتها إلى كونت هولندا بغية توقيعها. عند ذلك أخبرني أنه أعاد النظر فيما كان قد اقترحه عليه *صاموبل بلاشي* والموريسكيون في شأن طلب السفن من الولايات العامة الهولندية، حيث تبين له أن الهجوم على السواحل الإسبانية لن يكون في صالحه. وقد قرر في النهاية أن يرسل سفيرا إلى هولندا هو القائد أحمد الحيتية الباسكي، ليعتذر عن تراجعه في طلب ستة آلاف جندي، وفي نفس الوقت يقوم باقناع الهولنديين ليبعثوا له ثلاث أو أربع سفن يستعملها في أغراضه الخاصة، بالإضافة إلى البنادق والرماح وأشياء أخرى مماثلة.

* *إرسال مولاي زيدان لأحمد الباسكي إلى هولندا :*

وقد حمل هذا السفير إلى الكونت *ماوريشيو* بعض هدايا مولاي زيدان مثل حصانين وخنجر منمق بالذهب وخروبة واحدة من العنبر الأسود بالإضافة إلى رسائل شكر، وكان يرافق هذا السفير في نفس السفينة *صاموبل بلاشي* الذي عاد إلى بلاده.

في تلك الأيام توقفت بميناء آسفي بعض السفن الهولندية حيث نزل منها ستون بحارا كانت مهمتهم تتلخص في إصلاح المدافع التي أصابها الخراب والقيام بالإشراف على سلاح المدفعية. أثناء ذلك انتقل مولاي زيدان إلى خارج مراكش حيث أقام على بعد أربعة فراسخ منها، وكان يسعى جاهدا إلى ضم عناصر جديدة إلى جيشه، ولتحفيز الناس على هذا، أشاع أن الهدف هو القيام بحملة على المسيحيين، لكن على الرغم من ذلك، لم ينضم أحد طواعية إلى هذا الجيش، بل كل الذين انخرطوا فيه تم ضمهم قسرا.

في تلك الأثناء أرسل إلى مملكة فاس كتيبة مكونة من ألفين من المشاة وخمسمائة من الفرسان على رأسها القائد العلج حدو طبيب، ولإعطاء سمعة أكبر للحملة أرسل معها أخاه مولاي عبدالله بن أحمد، الذي طلب منه ومن القائد حدو طبيب العمل على إقناع أعراب مملكة فاس للاتجاه إلى مراكش قصد العمل في جيشه.

وبفضل الأموال التي تجمعت لديه أرسل إلى الجبال من يقوم بشراء السلاح الذي أصبح منعدما في مراكش. وقد قام البربر ببيعه كميات لا بأس بها، وهكذا فبعد انتقال رجاله إلى هذه الجبال عدة مرات تمكنوا من جمع خمسمائة وألف بندقية وثمانمائة خنجر. وكان مولاي زيدان طيلة هذه المدة يرسل عناصر جديدة قصد تعزيز الكتيبة التي أرسلها إلى مملكة فاس. وبما أن المغاربة كانوا غاضبين على مولاي الشيخ بسبب تسليمه العرائش للمسيحيين فإن مولاي زيدان اعتقد أنه بعد أيام قليلة سيصبح السيد الفعلي لمملكة فاس.

* *تعليلات مولاي الشيخ بعد تسليمه العرائش :*

وبما أن مولاي الشيخ كان مطالبا بإعطاء تعليل لتصرفه المتعلق بتسليم العرائش للمسيحيين، فقد ادعى أنه فعل ذلك للحصول على حريته، حيث إنه لما أرغم على مغادرة المغرب هربا من طغيان مولاي زيدان كان ينوي الذهاب إلى تركيا، لكن بسبب العواصف البحرية أجبر على النزول

بإحدى الموانئ الإسبانية، وقد أسره المسيحيون ولم يقبلوا بإطلاق سراحه إلا بعد أن وعدهم بالتنازل عن العرائش.

وبما أنه كان محبوبا من طرف أعراب مملكة فاس والذين بقي ملكا عليهم لمدة طويلة، فإن قضية العرائش لم تؤثر كثيرا في موقفهم منه وبذلك رفضوا تقديم الدعم لمولاي زيدان.

* *فأل مولاي زيدان :*

وبما أن المغاربة يؤمنون كثيرا بالفأل، فقد تبين لي أن أورد هنا إحدى الطرائف التي وقعت لمولاي زيدان، وكان قد أقام مخيمه على بعد أربعة فراسخ من مراكش، لذا أرسل في طلب أهم فقهاء المدينة، وفي المساء خرج من خيمته وجلس بجانب الأسطبل مع أولئك الفقهاء. وكان الحديث يدور حول قضية العرائش، وقد أخبرهم بأنه طلب من أحد كبار المنجمين أن يقرأ طالعه، فأنبأه بأنه سيقوم بغزو إسبانيا حيث ستقع المعركة الأولى في قارمونة وسوف يفر على أثرها ملك إسبانيا إلى طليطلة التي سيتم أسره بها، عند ذلك ستصبح إسبانيا كلها تحت سيطرته، وأضاف قائلا إن ذلك سيتحقق في وقت قريب لا يتعدى ستة أشهر.

وما إن انتهى مولاي زيدان من كلامه، حتى افلتت بغلتان من الاسطبل، واتجهتا جريا الواحدة تلو الأخرى حيث اخترقتا المكان الذي كان مولاي زيدان يجالس فيه الفقهاء. وكانت البغلتان أثناء جريهما تتركان خلفهما فضلاتهما. وقد ارتبك مولاي زيدان كثيرا لهذا الإرهاص المشؤوم، ولم يستطع النطق بكلمة. ولما رأى الفقهاء ذلك، أرادوا التخفيف عليه فقالوا له : *"مولاي، لا تكترث لذلك، لأن الجن تقمص البلغتين ليثنيك عن قصدك"*. لكن ذلك لم يخفف شيئا من حالة الارتباك التي كان عليها، لذا انسحب الفقهاء، بينما دخل هو إلى خيمته.

** أمر مولاي زيدان بقتل أحمد الكلابري :*

وهو قائد من العلوج أصله من كلابريا ،لما شاهد ما حدث قال للفقهاء مستهزئا وكان الملك قد دخل إلى خيمته : *"أرأيتم كيف عبرت البغلتان عن قرار ملكنا بغزو إسبانيا"* ؟. هذا الكلام تم نقله إلى مولاي زيدان الذي من شدة غضبه أمر بأن يجلد هذا القائد على بطنه إلى أن تنفجر أمعاؤه.

** أمر مولاي زيدان بقتل مصطفى الأڤيلي وأحمد العسيري :*

في تلك الأيام كذلك، أمر مولاي زيدان بقتل اثنين من قدماء القواد واللذين كانا قد عملا مع والده مولاي أحمد، وذلك لتجرئهما على القول إن مولاي زيدان يهمش القوادالأكفاء المحنكين ليضع محلهم فتيانا لا يتمتعون بأية تجربة. هذان القائدان هما مصطفى بويمبارادوس وكان عاملا على آسفي وأصله من *أڤيلا Avila* ، وأحمد العسيري الذي كان يشغل منصب قائد الأسرى المسيحيين ؛ بهذه الطريقة كان مولاي زيدان يقضي على قواده الذين سوف يحتاج إليهم كثيرا فيما بعد.

** اجتماع عرب الشراڭة وغيرهم لمساعدة مولاي عبدالله :*

وكان جيش مولاي زيدان قد تقدم كثيرا داخل مملكة فاس في وقت لم يعد مع مولاي عبدالله إلا القليل من الرجال والأموال، لذا ذهب عند عرب الشراڭة يرجوهم مساعدته. وقد جمع حوالي ثلاثة آلاف من الفرسان، وبعد أن شرح لهم الحالة التي يوجد عليها، وبين لهم المكان الذي يتمركز فيه العدو، أخبروه أن الوقت غير مناسب لمهاجمته، حيث يستحسن تركه يتقدم أكثر داخل المملكة، ووعدوه بأن يهبوا جميعا لمساعدته عندما يحين الوقت. إثر ذلك عاد كل واحد إلى حال سبيله، لأن مولاي عبدالله لم يكن معه ما يكفيه لتحمل مصاريف جيش بأكمله لأيام قد تطول.

** إرسال مولاي زيدان إمدادات جديدة لتعزيز كتيبته بمملكة فاس :*

وقد بعث مولاي زيدان القائد عبدالقادر على رأس خمسمائة من المشاة

وخمسين من الفرسان إلى مملكة فاس قصد الانضمام إلى جيشه الموجود هناك، وأمرهم بعدم خوض أية معركة قبل قدومه شخصيا مع كل الجنود الذين تخلفوا معه، وأكد لهم بأنه سوف يلتحق بهم في وقت قريب .

في تلك الأيام أرسل مولاي زيدان مبعوثا إلى القائد الميرا عامل اقليم درعة يأمره بأن يكون جيشا يضم إليه أكبر عدد ممكن من الجنود، يقوم بواسطته بفرض الضرائب على البربر والأعراب. وقد كون هذا القائد - وكان أسود اللون - جيشا من حوالي خمسمائة وألف رجل أغلبهم من السود، ومما تجدر الإشارة إليه أن تكوين هذا الجيش أثار فضول الأعراب واستهزاءهم، ذلك لأنهم كانوا يعتبرون السود أناسا جبناء ضعيفي الهمة، ثم أنه لم يسبق أن عرفت هذه البلاد في تاريخها تكوين جيش أسود. وليرغم القائد الميرا الأهالي على تسليم ما معهم من أموال، قام بالبطش بهم، لهذا مات عدد كبير منهم تحت وطأة التعذيب.وقد قام كذلك بمحاولة للقبض على أحد كبار فقهاء المنطقة، لكن هذا الأخير استطاع الفرار، حيث التجأ إلى الصحراء.

** أمر مولاي زيدان قواده بالاجتماع في تادلة :*

وقد أرسل مولاي زيدان إلى القائد الميرا يأمره بالقدوم إلى ولاية تادلة مع كل القوات التي معه، في نفس الوقت أرسل إلى القائد سيمبيا يأمره بالمجيء إلى نفس المكان مع أكبر عدد ممكن من الجنود، وكان مولاي زيدان قد اتجه كذلك إلى ولاية تادلة على رأس جيش آخر.

** مقتل القائد جرمان نائب السلطان في سوس :*

في تلك الأيام وصل إلى مولاي زيدان خبر مقتل عامل سوس، القائد جرمان وهو علج برتغالي كان من المقربين إليه ومن الذين أشرفوا على تربيته، وقد حزن كثيرا لموته. والحقيقة أن هذا القائد عرف بإخلاصه الكبير لمولاي زيدان، وكذا بمعرفته بأمور الحكم في مملكة سوس. وقد عين مولاي زيدان مكانه القائد أحمد بن سبيار وهو من الأغنياء، لكنه كان متقلب الطباع ودون شجاعة تذكر.

* *مقتل متمرد سوس :*

وأثناء تنظيم هذا المتمرد لحفل كبير، أطلق عليه أحد أبناء عمه[1] رصاصة أردته قتيلا، وبعد أن سيطر القاتل على كل أملاك المتمرد وتولى قيادة الجيش الذي كان تابعا له، خرج في إحدى الليالي نحو حصن أگادير (يمكن انطلاقا منه السيطرة على شاطئ سانتاكروث) وقام باحتلاله بعد أن طرد منه رجال مولاي زيدان. وقد تمكن من الحفاظ عليه لبضعة أيام، سلمه بعدها إلى القائد محمد بن سبيار نائب السلطان بسوس، مقابل كمية متواضعة من المال.

* *عودة سيدي محمد بن إبراهيم إلى مملكة سوس :*

في ذلك الوقت عاد إلى مملكة سوس محمد بن إبراهيم وهو أحد كبار فقهاء المنطقة، وكان قد فر إلى الصحراء بعد أن طارده القائد الميرا كما سبقت الإشارة. وكانت عودته إلى مملكة سوس بطلب من أحمد بن عبدالله[2] زعيم فقهاء صحاري ليبيا[3]، الذين سوف يعلن تمرده ويدعي الملك كما سنرى لاحقا ،وقد كلف أحمد بن عبد الله محمد بن إبراهيم بالسعي لعقد تحالفات مع المتمرد الجديد وغيره من فقهاء المنطقة ثم الرجوع بعد ذلك إلى صحراء ليبيا.

إلى ذلك الحين لم يكن الجيش الذي أرسله مولاي زيدان إلى مملكة فاس قد دخل المعركة ضد مولاي عبدالله بن الشيخ. كما أن الكتيبة التي أرسلها

(1) ـ يتعلق الأمر بأبي الحسن علي بن محمد بن سيدي أحمد أوموسى المعروف باسم سيدي علي، الذي سيصبح أقوى رجل في سوس بعد موت خصمه يحيى أبي زكريا، حيث سيوسع مجال نفوذه الذي امتد من تازروالت إلى سجلماسة، والتي لم يطرد منها إلا في عهد السلطان العلوي مولاي محمد الشريف. وقد توفي عام 1660 في زاويته بتازروالت.

(2) المقصود هنا هو ابن أبي محلي.

(3) يظهر أن خورخي دي هنين وقع له خلط بين ليبيا وصحراء الجزائر، لأن ابن محلي كان مقيما في وادي الصاورة بالجزائر.

مع القائد عبدالقادر لم تكن قد وصلت بعد، وكان عليها بالإضافة إلى تعزيز الجيش بعناصر جديدة، إخبار القائد حدو طبيب بقرار مولاي زيدان والذي يأمره فيه بعدم دخول المعركة والانتظار إلى أن يلحق به هو مع بقية القوات.

ولما علم مولاي عبدالله بذلك، قرر دخول المعركة في أسرع وقت، لتفادي وصول مولاي زيدان بقوات جديدة، وقد اتصل لتوه بأصدقائه الأعراب بالقرب من فاس وأخبرهم بقراره.

* *وقوع المعركة بين مولاي عبدالله الشيخ ومولاي عبدالله بن أحمد :*

وقد هنأه الأعراب على ذلك القرار، وفي اليوم التالي اجتمع منهم ثلاثة آلاف من الفرسان بالقرب من المكان الذي كان فيه مولاي عبدالله بن أحمد برفقة جيش مولاي زيدان، وشنوا عليه هجوما اضطر معه إلى الفرار اتجاه مراكش.

* *مقتل قواد مولاي زيدان :*

وقد مات في هذه المعركة أهم قواد مولاي زيدان ومنهم : القائد حدو طبيب جنرال ذلك الجيش، وابنه، وأخوه وابنا أخيه، والقائد إبراهيم وهو رجل مسن كان يتمتع بتقدير كبير داخل الجيش، إضافة إلى عدد كبير من المشاة. لكن كل هؤلاء قتلوا أثناء فرارهم، في حين لم يمت أحد في المواجهة، وذلك لأن رجال مولاي زيدان لم يبدوا أية مقاومة، فبمجرد ما هاجمهم العدو حتى اغمدوا سيوفهم وفروا هاربين ؛ وإنه بموتهم بتلك الطريقة يكونون قد دفعوا ثمن تهاونهم.

بالنسبة لمولاي عبدالله، فإنه لم يستفد كثيرا من هذا الانتصار، حيث يمكن حصر الفائدة التي جناها في تمكنه من سلاح وبعض خيام العدو.

وعند عودة مولاي عبدالله بن أحمد هاربا ، التقى في الطريق بالقائد عبدالقادر مع خمسمائة من المشاة وخمسين من الفرسان ورجعا معا إلى ولاية تادلة.

** اتجاه مولاي زيدان نحو فاس :*

لما علم مولاي زيدان بهزيمة جيشه قرر الاتجاه نحو فاس، وكان معه ثلاثة آلاف من المشاة أغلبهم من الموريسكيين الذين طردوا من إسبانيا. ونزل أولا بتادلة حيث أقام مخيمه، وكان قد أمر قواده بالانسحاب نحوها إذا ما دعت الضرورة.و بعد التحاق هؤلاء به، قرر إحصاء كل رجاله فكان عددهم ستة آلاف من المشاة وخمسمائة وألفا من الفرسان، وثمانين من الفلاندريين وأربع عشرة قطعة من المدفعية. وما يمكن ملاحظته هو أنه بين هذه الحشود لم يكن يوجد إلا قائد واحد من القدماء، بينما باقي القواد كلهم من الجدد.

بالنسبة للمشاة فقد كان جلهم ممن أرغم على الانضمام إلى الجيش، لذا ولضمان عدم فرارهم وضعت في أعناقهم سلاسل حديدية طويلة حيث ربط كل عشرين منهم بسلسلة واحدة، بينما ترك الذين أظهروا الضمانات الكافية بعدم فرارهم دون قيود. وكان كل هؤلاء الجنود قد تقاضوا كأجرة مقابل انضمامهم إلى الجيش أربع دوقات فقط.

** إرسال مولاي عبدالله بن الشيخ سفيره إلى مملكة سوس :*

ولما كان مولاي زيدان قد تعود الالتجاء إلى تارودانت بمملكة سوس كلما أرغمته الهزيمة على ذلك، فإن مولاي عبدالله لما علم باقترابه مع جيشه من مملكة فاس، قرر إرسال القائد العلج سليمان إلى تارودانت ليقنع فقهاءها بالتمرد على مولاي زيدان وفي نفس الوقت السماح لبعض خصيان مولاي عبدالله بالدخول إلى القصر الملكي، وكذا تقديم الدعم للقائد سليمان ليتولى السلطة في مملكة سوس باسم مولاي عبدالله، الذي وعدهم بإعفائهم من الضرائب لسنوات طويلة إذا قبلوا بما اقترحه عليهم.

ولم يحقق القائد سليمان أي نجاح في المهمة التي كلف بها، ذلك لأنه بقي مع الخصيان الذين يرافقونه لمدة طويلة بالجبال إلى أن انفقوا كل النقود التي كانت معهم، واضطروا بعد ذلك إلى العودة. وقد وجدوا سفينة فرنسية

كانت متجهة إلى تطوان ارتأوا الرجوع على ظهرها، لكن القائد سليمان ما إن صعد إلى الباخرة حتى خلع العمامة وارتدى قبعة وأخبر قبطان السفينة أنه يريد أن يعتنق من جديد الديانة المسيحية، وطلب منه أن يرجعه إلى إسبانيا حيث ينتمي أصلا، وقد قبل القبطان بذلك وهنأه على قراره، أما الخصيان الذين يرافقونه وكانوا مغاربة، فقد أخبروا القبطان بأنهم لا يريدون الذهاب إلى البلاد المسيحية وفضلوا النزول بنفس الميناء الذي كانوا سيبحرون منه.

** ترك مولاي زيدان لنسائه في مسجد سيدي إبراهيم واتجاهه إلى فاس:*

بعد أن استراح في تادلة لمدة شهر قرر مولاي زيدان التقدم نحو فاس، خصوصا وأنه اعتقد أن مولاي عبدالله لم يعد له جيش يذكر وأنه رحل ليعيش بين الأعراب. وقبل أن يتوجه إلى فاس مر بجبال أولاد قاسم حيث ترك ما يزيد عن أربعمائة من نسائه في مسجد الولي سيدي إبراهيم الذي منحهن حمايته. بعد ذلك تابع مولاي زيدان طريقه صوب فاس التي أقام مخيمه بجوار أبوابها، ثم دخل المدينة التي سيطر عليها. وقد أثار استغراب أهاليها وجود ذلك العدد الكبير من العناصر الجديدة بالمدينة، خصوصا الجنود السود وطوابير طويلة من الرجال المكبلين بالسلاسل. وبما أن سكان فاس لم يسبق لهم أن شاهدوا شيئا شبيها بهذا من قبل، فقد كان باعثا على استهزائهم، خصوصا وأن مولاي زيدان رفض إزالة القيود من أعناق أولئك الجنود، ولم يفعل ذلك إلا يوم المعركة.

** جمع مولاي عبدالله بن الشيخ لخمسة آلاف رجل :*

ألتف حول مولاي عبدالله لمحاربة مولاي زيدان، ألفان من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان وذلك دون أن يدفع لهم أية أجور، لأنه أصلا لم يكن يتوفر على المال، وقد أبدى هؤلاء الأعراب استعدادهم لخدمة مولاي عبدالله دون مقابل، لأن ذلك سيسمح لهم بمحاربة عدوهم الأول مولاي زيدان

الذي قتل الكثير من الشراركة من أبناء جلدتهم عندما دخل إلى مراكش لأول مرة، وكان هؤلاء الشراركة يتخوفون كثيرا من انتصار مولاي زيدان وعودته إلى فاس ليتولى الحكم عليهم. وهكذا يمكن القول إن الحرب الحقيقية كانت بين مولاي زيدان والأعراب. وإن ما زاد من حماس هؤلاء لخوض هذه المعركة، ما يمثله من شرف بالنسبة لهم محاربة ملك مثل مولاي زيدان.

ولما علم مولاي زيدان أن مولاي عبدالله عائد إلى فاس برفقة قوات هامة، انسحب من المدينة حيث تمركز في مكان استراتيجي بقي يراقب منه قدوم العدو.

** المعركة بين مولاي زيدان ومولاي عبدالله بن الشيخ :*

وبعد أيام قليلة من ذلك تراءت لمولاي زيدان جيوش العدو، وكانت تتشكل من كتيبتين الأولى من الفرسان وعلى رأسها القائد محمد الكرني الشركي والثانية من المشاة وعلى رأسها مولاي عبدالله. بالنسبة لجيوش مولاي زيدان فإنها كانت مكونة من كتيبتين، الأولى من الفرسان وعلى رأسها أخوه مولاي عبدالله بن أحمد والقائد العلج عبد الرحمن، والثانية تولى أمرها بنفسه وكانت تتكون من المشاة.

المواجهة الأولى وقعت بين الفرسان، حيث تمكنت جيوش مولاي عبدالله من تحقيق الانتصار، وأرغمت كلا من مولاي عبدالله بن أحمد والقائد عبد الرحمن من الفرار في اتجاه تمسنا. وقد تعقبهما في البداية القائد الكرني، لكنه تراجع عن ذلك حيث فضل التوجه إلى مخيم مولاي زيدان وسطا عليه بسهولة، خصوصا وأن رجال مولاي زيدان كانوا قد قاموا بشحن كل الخيام وبقية الأثاث على ظهر الجمال.

المواجهة بين المشاة، حسمت لفائدة مولاي زيدان الذي أرغم مولاي عبدالله على الفرار، حيث تراجع هو الآخر عن ملاحقته، واتجه إلى خيامه التي سطا عليها، وبهذه الطريقة أخذ كل طرف خيام عدوه ؛ لكنها كانت

مقايضة مربحة بالنسبة لمولاي عبدالله، لأن خيام مولاي زيدان كانت أحسن بكثير، كما أن مخيمه كان به الكثير من الأثاث بالإضافة إلى الدواب والجمال الجيدة التي نجح رجال مولاي عبدالله في أخذها عن آخرها.

** مولاي زيدان سيد المعركة :*

وقعت هذه المعركة يوم الخميس بعد الظهر، وقد مات فيها عشرون من المشاة، في حين لم يمت أحد من الفرسان، لأنهم لاذوا بالفرار قبل بداية المواجهة. وإذا كان مولاي عبدالله قد ظفر بأكبر عدد من الغنائم بفضل سطوه على مخيم مولاي زيدان، فإن هذا الأخير يبقي هو المنتصر الحقيقي فيما يخص المواجهة في ساحة المعركة.

وقد عاد مولاي زيدان من المعركة وهو في حالة إرهاق شديد، كما أن العدو وكما سلف ذكره تمكن من السطو على مخيمه بكامله بما في ذلك ملابسه الخاصة، لذا أرسل القائد رحان مع خياط من العلوج إلى فاس ليأتياه ببعض الملابس، ولما دخلا المدينة وكانت الساعة العاشرة ليلا، سمعا الناس يصيحون : "*حفظ الله ملكنا عبدالله بن الشيخ*" . ذلك لأن أهالي فاس لما شاهدوا العديد من مروضي الدواب وحراس الخيام بمعسكر مولاي زيدان قد فروا إلى المدينة بعد أن سطا القائد الگرني على مخيمه، اعتقدوا أن مولاي زيدان قد خسر المعركة.

ولم يجرؤ القائد رحان ومرافقه على دخول المدينة بعدما سمعا من هتاف الأهالي بحياة مولاي عبدالله، وقد عادا لتوهما لإخبار مولاي زيدان بما شاهداه، إثر ذلك مباشرة، وكانت الساعة حوالي الثانية صباحا، رفع مولاي زيدان مخيمه ونقله إلى مكان يبعد نصف فرسخ عن فاس.

** أوامر مولاي زيدان بنهب فاس :*

وقد عم الارتباك سكان فاس عندما شاهدوا جيوش مولاي زيدان، في وقت لم يظهر فيه أثر لمولاي عبدالله. وأمام هول المفاجأة، اتجه أعيان فاس

إلى مولاي زيدان قصد الاعتذار عما صدر من سكان المدينة، لكنه لم يقبل اعتذارهم، وأمر رجاله بتجريدهم من ثيابهم حيث عادوا عراة إلى منازلهم. بعد ذلك أرسل جنوده لنهب المدينة، وقد بدأوا بتنفيذ ما أمروا به، لكن أمام تخوفهم من تمرد كل سكان المدينة، توقفوا بعد وقت قصير، حيث انسحبوا في اتجاه مخيمهم.

وبما أن مولاي زيدان لم يبق معه إلا عدد قليل من الرجال، فقد أرسل في طلب الرجال من فاس، لكن وبسبب عدم ثقته بأهلها، أمر باستقدام كل الموركسيين الذين يعيشون بالمدينة، وأخبرهم بأنه سيدفع لهم الأجور، وهددهم بقتلهم كلهم إذا رفضوا المجيء. وأمام هذا التهديد، انتقل كل هؤلاء إلى مخيم مولاي زيدان الذي اختار منهم ستمائة، في حين أمر الباقي وكلهم من العجزة بالعودة إلى حال سبيلهم. عند ذلك عين أحدهم - وكان من الأغنياء - قائدا عليهم، وأمره بأن يدفع لهم الأجور من ماله الخاص، بعد أن وعده بأنه سيعيد له أمواله في وقت لاحق.

* *مواجهة ثانية بين مولاي زيدان ومولاي عبدالله :*

وفي يوم الأحد الموالي جاء مولاي عبدالله ومعه أربعة آلاف من الفرسان لمهاجمة مولاي زيدان، وقد أمر هذا الأخير فرقة الفرسان بالخروج للمواجهة، لكن أمام تواضع عدد أفرادها، تراجعت بسرعة نحو المكان الذي كانت توجد به فرقتا المشاة والمدفعية، هذه الأخيرة كانت تشتمل على أربع عشرة قطعة يشرف عليها التجار الهولنديون. وقد تعقب مولاي عبدالله الفارين، لكن أمام عدم امتلاكه للأسلحة النارية، لم يستطع شيئا خصوصا وأن البحارة الهولنديين أطلقوا بفعالية كبرى قذائف مدافعهم ورصاص بنادقهم، مما أرغم مولاي عبدالله على الفرار مع جنوده. ولم يجرؤ مولاي زيدان من جهته على ملاحقة العدو، وذلك لأنه لم يكن يتوفر على العدد الكافي من الفرسان كما سبقت الإشارة.

* *مواجهة ثالثة بين مولاي زيدان ومولاي عبدالله :*

بعد فرار مولاي عبدالله، اعتقد مولاي زيدان أن المواجهة قد انتهت وأن الأمر حسم لصالحه، لكن سرعان ما خاب أمله، حيث عاد مولاي عبدالله يوم الأربعاء الموالي، ومعه ستة آلاف من الفرسان، قاموا بهجوم كاسح على العدو الذي اندهش لرؤية ذلك الكم الهائل من الرجال. أمام هذا الوضع لم يجد جنود مولاي زيدان من حل غير إغماد سيوفهم والفرار. لكن هذه المرة لم ينشغل مولاي عبدالله بجمع الغنائم، بل استغل تفوقه العددي وطارد العدو، حيث تمكن من قتل أغلب الهاربين، أما مولاي زيدان فلم ينجح في الفرار إلا بصعوبة كبيرة، وكان يرافقه خمسون من الفرسان. ولولا الحظ لما تمكن من النجاة، حيث تعقبه حوالي مائتين من فرسان مولاي عبدالله، وكان بإمكانهم اللحاق به وقتله أو سجنه، خصوصا وأن حصانه كان في حالة تعب شديد. وكان مطاردوه يصيحون به : *"مولاي، استفد من هذا الدرس الذي لقنه لك أعراب مملكة فاس، وابتعد عنهم إلى الأبد. إننا لن نفعل معك هذه المرة ما نحن قادرون عليه، لكن إذا عدت إلى هنا فاعلم بأنك ستجد رجالا لن يغفروا لك ؛ إننا ننصحك بأن تقنع بمملكة مراكش، ولن نذهب إلى هناك لمهاجمتك أو إزعاجك"*. وقد عاد هؤلاء اثر ذلك إلى حال سبيلهم.

لكن وبعد وقت يسير فوجئنا بمجموعة أخرى من فرسان مولاي عبدالله كانت قد تمركزت بمداخل الجبال حيث قطعت علينا الطريق. أمام هذا الخطر المحدق نزل مولاي زيدان من صهوة حصانه، وبعد أن كسر قوائمه ولى هاربا على الأقدام، إلى أن وصل إلى الجهة الأخرى من الجبال، حيث وجد بعض الفرسان من جيشه والذين كانوا قد نجحوا في الفرار. عند ذلك تقدم منه كاتبه الخاص القائد عبد الصادق وقال له : *"مولاي، امتط بسرعة هذا الحصان، وانج بنفسك، لأن عددا كبيرا من الأعداء يقومون بمطاردتك، وقد أقسموا على قتلك"*. ولما امتطى مولاي زيدان الحصان، وأثناء اعتداله على صهوته، قال له ذلك القائد : *"سيدي، إذا قتلني الأعداء، فتذكر بأني كنت وفيا لك، واعتن بأبنائي، والله يحفظك"*.

إثر ذلك فر مولا ي زيدان بسرعة كبيرة، ولم يتوقف للاستراحة إلا بعد وصوله إلى سلا، وكانت قد مرت ثلاثة أيام لم تذق فيها الخيول طعاما ولا شرابا، ورغم أن الماء كان موجودا على امتداد الطريق، فقد أمر مولاي زيدان بألا تسقى الخيول حتى لا تصاب بالتعب.

وفي سلا قضى ثمانية أيام، استراح خلالها وهدأ من روعه. وقد تمكن من جمع عشرين ومائة من الفرسان والذين نجحوا في الفرار. هؤلاء هم الذين رافقوه إلى أولاد قاسم حيث ترك عائلته ونساءه.

ولم يكن قد عرف شيء في مراكش عن مولاي زيدان طيلة أربعين يوما، أي منذ أن انهزم أمام مولاي عبد الله إلى أن دخلها مع نسائه. وكانت هاته النساء في حالة من التعب لدرجة أن عددا منهن متن في الطريق، في حين أن أخريات غرقن في النهر أثناء العبور دون أن يجدن من ينقذهن.

** ما قاله الأعراب بعد عودة مولاي زيدان :*

عند دخوله المدينة، ردد الأعراب مستهزئين : *إن مولاي زيدان خرج من مراكش بجيش من الرجال وعاد إليها بجيش من النساء.*

بالنسبة لمولاي عبد الله، فإنه لم يعرف كيف يستفيد من ذلك الانتصار، فلم تكن له الشجاعة الكافية ليقوم بإرسال من يأتي بنساء مولاي زيدان اللواتي كن على بعد عشرين فرسخا فقط من فاس، كما أنه كان ساذجا عندما لم يرسل أحد قواده إلى مراكش، فلو فعل ذلك، لما تجرأ مولاي زيدان على دخولها.

** محالفة الحظ لخمسين من الفتيان الباسكيين :*

وإذا كانت هذه المعركة قد أضرت كثيرا مولاي زيدان ولم يستفد منها مولاي عبد الله إلا القليل، فإن الرابح الحقيقي فيها هم خمسون من الغلمان الباسكيين الذين كان مولاي زيدان يستخدمهم في نزواته وفجوره، وكان هؤلاء يرتدون ملابس النساء ويتزينون على طريقتهن، وكان مولاي زيدان قد

أمرهم باعتناق الإسلام لكن عندما ألقي عليهم القبض من طرف رجال مولاي عبد الله وجردوا من ثيابهم تبين أنه لم تتم بعد عملية ختانهم وأنهم لا زالوا مسيحيين، الشيء الذي حذا بمولاي عبدالله على إعطائهم كفدية لبعض التجار الذين أخذوهم إلى إسبانيا. وعندما علم مولاي زيدان بالخبر، حزن كثيرا وأقسم أن يحرق التجار الذين فعلوا ذلك أحياء إذا قبض عليهم.

* *طغيان مولاي زيدان ووزرائه :*

وما إن رجع إلى مراكش، حتى عاد ليمارس من جديد طغيانه على الأهالي، فتحت وطأة التعذيب كان يرغم السكان على تسليمه أموالهم وممتلكاتهم، كما أنه كان يلقي القبض على الكثيرين ويرغمهم على الانضمام إلى الجيش. في نفس الوقت أرسل القائد الميرا ليتولى الحكم من جديد في ولاية درعة، وأمره بأن يضم إلى جيشه أكبر عدد ممكن من الرجال ليقوم بواسطتهم بإرغام الأعراب والبربر على أداء الضرائب. وقد استعمل هذا القائد كل أنواع البطش والتنكيل لتنفيذ أوامر مولاي زيدان وإرغام الأهالي على إظهار الأموال التي يخفونها، وبلغ عدد الذين قتلهم من جراء التعذيب حوالي أربعمائة شخص. وسوف يؤدي ذلك العنف إلى تمرد الأهالي كما سنرى لاحقا.

* *التجاء مولاي زيدان للحيل قصد ابتزاز أموال السكان:*

وكما هو الحال مع حاكم درعة، فقد أمر مولاي زيدان حاكم مراكش القائد عبد القادر بأن يرغم أهالي المدينة على تسليمه أكبر قدر ممكن من الأموال، ولتحقيق ذلك أمره باللجوء إلى حيلة تتمثل في كتابة رسائل باسم مولاي عبد الله موجهة إلى أهالي مراكش، ثم رسائل موجهة إلى هذا الأخير من سكان المدينة يعبرون فيها عن متمنياتهم بعودته ليتولى الملك، وعن حقدهم واحتقارهم لمولاي زيدان. وكان القائد عبد القادر يظهر تلك الرسائل أمام الملإ، وبعد أن ينسبها لمن يحلو له، ويتهمه بخيانة مولاي زيدان، يأمر باستقدامه ويقوم بتعذيبه إلى أن يسلمه كل أمواله، إثر ذلك يأمر بذبحه.

وأمام خوف أهالي مراكش من أن يصيبهم نفس المصير وتلحقهم تلك الاتهامات الباطلة، فقد كانوا يهجرون منازلهم ويذهبون خارج مراكش ليعيشوا بين البربر والأعراب.

**قتل مولاي عبد الله لأخيه مولاي إدريس:*

في تلك الأيام وصلت إلى مولاي زيدان أخبار مفادها أن مولاي عبد الله قام بقتل أخيه مولاي إدريس، وكان ذلك كما يلي ؛ فقد ذهب بعض الأعراب عند مولاي الشيخ وأخبروه بما يقوم به مولاي عبد الله من تصرفات لا تليق بملك، وبينوا له عدم أهليته للحكم في مملكة فاس. وقد طلب منهم مولاي الشيخ بأن يأتوه بابنه مولاي إدريس، لينفذ لهم بعد ذلك كل ما يريدون. إثر هذا عاد الأعراب إلى فاس وقرروا تهريب مولاي إدريس بعد أن يتنكر في لباس امرأة. لكن الخبر تسرب إلى مولاي عبدالله الذي أمر قائده حدو فيليب بأن يقوم بمراقبة كل النساء اللواتي يخرجن من باب القصبة، لذا عندما خرج مولاي إدريس، قال له : *"سيدتي، ارفعي الحجاب عن وجهك"*. وأمام رفض مولاي إدريس تنفيذ ذلك قام برفع الحجاب عن وجهه عنوة، ولما تبينت له حقيقته، أخذه عند مولاي عبدالله الذي سأله : *"لماذا أردت الهرب"*. فأجابه والدموع في عينيه أنه يريد رؤية والده. وما كان من مولاي عبدالله إلا أن تقدم منه وقام بخنقه بيده ؛ وإنه بتصرفه ذاك وقتله أخا له لازال طفلا في الخامسة عشرة من عمره، أظهر للجميع ما هو عليه من قسوة وبطش.

** عزل أهل فاس لمولاي عبدالله :*

وقد أثر ذلك الحادث كثيرا على سمعة مولاي عبدالله الذي حقد عليه أهل فاس وقاموا بعزله، حيث عين مكانه أربعة من أعيان المدينة تولوا تسيير شؤون البلاد، بينما أمر هو بالاعتكاف في بيته، ومنحت له أجرة يومية قدرها خمسون ومائة أوقية.

* *وصول مبعوث ملك انجلترا إلى مراكش :*

في تلك الأيام استقبل مولاي زيدان مبعوث ملك انجلترا الذي جاء بهدف إحياء العلاقات الحسنة التي كانت بين المغرب وانجلترا في الماضي. وقد ذكر هذا المبعوث مولاي زيدان كيف أن هذه العلاقات كانت تتميز بالسلم والصداقة والمراسلات المستمرة في عهد والده مولاي أحمد وملكة انجلترا إليزابت، وأخبره بأن سيده الملك على استعداد ليقدم له المساعدة التي يحتاج إليها، كما طلب هذا السفير من مولاي زيدان الانصاف في شأن كمية كبيرة من النقود، أخذها بعض وزرائه عنوة من تجار انجليز.

وطيلة إقامته بالمغرب، حظي المبعوث الانجليزي بعناية كبيرة من مولاي زيدان الذي أمر بأن تمنحه يوميا ثلاثمائة أوقية إلى أن يعود إلى بلاده.

الفصل السادس

الأحداث التي عرفتها الممالك المغربية

إلى غاية 20 ماي 1612

** عودة سفير مولاي زيدان من هولندا ومعه ثلاث سفن :*

في تلك الأيام وصل إلى ميناء آسفي القائد أحمد الباسكي الذي أرسله مولاي زيدان في سفارة إلى هولندا. وقد أتى بثلاث سفن حربية كان مولاي زيدان قد أمره بشرائها من هناك، بالإضافة إلى ألف رمح وألف سيف وستمائة بندقية، علاوة على كمية أخرى من الأسلحة أرسلها الكونت *ماوريثيو* إلى مولاي زيدان. وكان يرافق القائد أحمد الباسكي سفير هولندا ويدعى *مارتن رايزبرگين* *Martin Raisberguen* وكذا *صامويل بلاشي* والذي كان وراء إقامة العلاقات بين مولاي زيدان وهولندا.

** إرسال مولاي زيدان لسفنه إلى سواحل هولندا :*

وبعد أن أنهى *مارتن رايز برگين* المهمة التي أتى من أجلها، طلب منه مولاي زيدان أن يقوم مع *صامويل بلاشي* بمرافقة سفنه إلى السواحل الإسبانية قصد القيام ببعض عمليات القرصنة. في تلك الأيام انتاب مولاي زيدان إحساس بغرور لا حد له، فقد بدأ يحلم بتكوين أسطول عظيم يمكن بواسطته غزو العالم بأسره ! إنه جنون شخص لعب الغرور بعقله.

** توديع مولاي زيدان لمبعوث ملك انجلترا :*

وقد عاد السفير الانجليزي إلى بلاده وكان يرافقه سفير مولاي زيدان

إلى ملك انجلترا، والذي كانت مهمته تتلخص بالإضافة إلى المصادقة على الاتفاقيات التي اقترحها السفير الانجليزي على مولاي زيدان، استقدام كميات من البنادق والرماح إضافة إلى عشر قطع من المدفعية وعدد من الجنود الانجليز قصد الإشراف على هذه المدفعية والقيام بصناعة العربات التي تجر المدافع.

** توجه مولاي عبدالله إلى مراكش على رأس خمسة آلاف رجل :*

وبفضل المساعدة التي قدمها له والده والمتمثلة في ثلاثة آلاف بندقية بالإضافة إلى كمية من المال، تمكن مولاي عبدالله من تكوين جيش من ثلاثة آلاف من المشاة وألفين من الفرسان، وقد دفع مثقالين لكل جندي ووعدهم بأن يدفع لهم أجورهم مقدما لمدة ستة أشهر فور وصولهم إلى سلا. ولما وصل إليها بدأ بدفع الأجور أولا للفرسان، وبعد أن تقاضوها كلهم، تمردوا عليه وأخبروه بعدم رغبتهم في الذهاب إلى مراكش بدعوى أن كل المشاة من المراكشيين، وأن هؤلاء ما إن يصلوا إلى مدينتهم حتى يلتجئوا إلى منازلهم للاحتماء بها، ويتركوا الفرسان دون أي دعم، وبينوا له أن والده يقصد من إرساله في هذه الحملة الانتقام منه بسبب قتله لأخيه مولاي إدريس، وأنه لو كانت بالفعل له نوايا حسنة لأرسل معه ستة أو سبعة آلاف من حملة البنادق من أهل فاس والذين لن يقوموا بخيانته، وأضافوا أن ما يريده والده من وراء إرساله إلى مراكش هو التخلص منه إلى الأبد.

** تفكك جيش مولاي عبدالله :*

وقد نصح هؤلاء الفرسان مولاي عبدالله بالعودة إلى فاس والتي رجع إليها برفقه ألف من المشاة الذين كانوا أصلا من فاس، بينما اتجه بقية المشاة إلى مراكش حيث توجد منازلهم، وهكذا فبسبب غياب الحماس بين رجال مولاي عبدالله، وعدم رغبة فرقة الفرسان في القتال تفكك ذلك الجيش من تلقاء نفسه.

وإني مذ عرفت هذا الأمير، لا أذكر ولو مرة واحدة تصرف فيها تصرفا صائبا، فلو كان قد تابع طريقه نحو مراكش، فإنه كان سيصبح سيدها المطلق دون حاجة إلى القتال، لأن مولاي زيدان لم يكن معه الجيش الذي يحارب به، لذا كان قد قرر الرحيل إلى مملكة سوس. لكن هؤلاء الناس ليس لهم العقل الذي يفكر، لذا أصبح التصرف بحماقة أمرا بديهياً بينهم.

وكانت سعادة مولاي زيدان كبيرة بقدوم أولئك المشاة إلى مراكش، والذين سيمكنونه من تكوين جيش جديد، وقد دعاهم كلهم للانضمام إلى جيشه، ودفع لهم أجورهم مقدما. وكان القائد يوسف الباسكي هو أول من جاء منهم عند مولاي زيدان، لذا وجزاء له على ذلك عينه قائدا عاما على كل تلك الجيوش في انتظار تعيين قواد آخرين.

** توجه القائد الميرا إلى تافيلالت قصد أخذ الجبايات :*

في تلك الأيام كتب القائد الميرا إلى مولاي زيدان يخبره أنه كون جيشا من خمسمائة وألفين من المشاة وستمائة من الفرسان، وأنه نجح في أخذ الجبايات من أهالي درعة، وكان هذا القائد قد استعمل كل أنواع البطش والتعذيب لأخذ تلك الجبايات. وقد أرسل إليه مولاي زيدان يأمره بأن يبعث له ستمائة ألف أوقية التي تحصلت له من الجبايات وكذا بالتوجه إلى تافيلالت قصد القيام بنفس الشيء، وعند وصوله إليها لم يتردد في استعمال نفس البطش الذي استعمله في درعة لارغام السكان على دفع الجبايات.

** تقديم سكان درعة الشكاوى إلى سيدي أحمد بن عبدالله :*

ولم يستطع سكان تافيلالت تحمل بطش وطغيان القائد الميرا، لذا أرسلوا أعيانهم لتقديم التظلمات إلى سيدي أحمد بن إبراهيم كبير مرابطي صحراء ليبيا. وقد شرح هؤلاء للمرابط كيف أن مولاي زيدان لا يقنع بالجبايات التي تقدم للملوك وكذا بالعشر وغيرها من الجبايات المتعارف

عليها، بل إن وزراءه يصادرون كل ممتلكات الأهالي، ويقومون بإبادة كل من يرفض تقديم ما يفرضونه عليه، وأنه من جراء ذلك فر الكثير من الأهالي، وكان هؤلاء يعتبرون من المتمردين، لذا فإن أملاكهم تصادر وتمنح للغلمان الغرباء الذين يشاركون أولئك الوزراء في نزواتهم وفجورهم، أما الفقراء من الأهالي، فبما أنهم لا يمتلكون شيئا يدفعونه كجباية فإنهم يأخذونهم عنوة إلى الجيش. وقد وضح هؤلاء الأعيان للمرابط أن سكان هذه المنطقة لم يعهدوا هذا التصرف من الملوك السابقين الذين لم يقوموا أبدا بضم أهالي تلك المنطقة إلى الجيش، وأنه إذا لم يكن لأهالي درعة الجرأة الكافية لتقديم تظلماتهم، فإن أهل تافيلالت لم يستطيعوا تحمل هذه الإهانة لذا جاءوا عنده، وهم يعقدون عليه الآمال لإنصافهم.

وفي تلك الأيام كذلك، استقبل المرابط أعيانا آخرين جاءوا من مراكش ودرعة قصد تقديم التظلمات ضد مولاي زيدان.

* *تحريض محمد بن إبراهيم لأحمد بن عبدالله :*

في تلك الفترة، فر من درعة إلى الصحراء محمد بن إبراهيم كبير مرابطي تلك المنطقة وذلك خوفا من بطش القائد الميرا، ولما علم بأمر الشكاوى التي قدمها سكان تافيلالت إلى أحمد بن عبدالله ذهب إليه بمسجده، واختلى به ثم قال له : *"سيدي، أنت صديقي لذا اعتبر من اللازم أن أنصحك ؛ إن عليك أن تغتنم هذه الفرصة وتعلن تمردك كمدافع عن المسلمين من طغيان مولاي زيدان، وإن الله معينك. ومن جهتي فبما أني امتلك الكثير من الذهب ورثت بعضه عن آبائي وحصلت على الباقي بنفسي، فإني مستعد أن أقرضك إياه عن آخره لتقتني به الخيام والجمال وغيرها من الأشياء اللازمة"* .

* *مكر أحمد بن عبدالله :*

وكانت لذلك المرابط قدرة كبيرة على المكر والخداع، لذا لما كان يكلمه

محمد بن إبراهيم تظاهر بالنوم وبقي على ذلك الحال حوالي ساعتين، ولما استيقظ من نومه المفتعل، سأله محمد بن إبراهيم هل فهم ما قاله له، فأجابه بالنفي بدعوى أن أحاسيسه كانت مع النبي، ورجاه ألا يزعجه بالأمور الدنيوية لأنه منهمك في الأمور الروحية. هذه الطريقة كان يستعملها كذلك مع أناس كثيرين، وبما أنه كان يعرف ما يريده منه هؤلاء، فقد كان يفكر دائما بالحيل التي يمكن أن يخدعهم بواسطتها، وكان يتظاهر باستمرار بعدم قبول ما يطلبونه منه وذلك حتى يتوسلوا إليه أكثر وبالتالي يقبلون ما يفرضه عليهم دون قيد أو شرط.

** ادعاء محمد دي ألقوثير De Alcocer بأنه مبعوث من الله :*

في تلك الأيام جاء إلى الصحراء شخص يدعى محمد دي ألقوثير، وهو طبيب ولد في مدريد، وكانت له كذلك قدرة كبيرة على الكذب والخداع. وقد انتظر إلى أن كان مسجد أحمد بن عبدالله مليئا بالمصلين، ودخل إليه وهو يصيح بصوت مرتفع : *"ماذا كان من أمر ذلك الولي الصالح الذي أرسلني الله لأخبره بأنه سيمتلك العالم ويجعل الديانة الإسلامية تنتشر في أرجاء الكون"* . اثر ذلك بدأ يبحث عن الشخص المقصود بين الناس، وبما أنه كانت له معلومات عن شكل وملامح أحمد بن عبدالله، فإنه لما اقترب منه خر ساجدا وقال له : *"أنت هو الولي الصالح الذي أبحث عنه، وإني اسعى للتبرك بك"* .

وبما أن الأهالي لم يسبق لهم أن رأوا ذلك الشخص الذي كان يتكلم عربية ركيكة تفهم بصعوبة، وكانت له لحية وشعر طويلان ويرتدي ملابس نصفها من لباس المسيحيين، فإنه أثار إعجاب الجميع، واعتقد أولئك البربر أنه لا محالة يحمل معجزة ما.

وبعد أن أدى الصلاة، قال للمرابط أمام الملأ : *"سيدي، إني كنت أعمل في بلاط ملك المسيحيين، وفي أحد الأيام رأيت في منامي النبي محمدا الذي طلب مني أن أذهب إلى الصحراء لأخبر وليا صالحا أن يرفع*

رايته لأنه سيصبح ملكا على العالم، وأنه على يده سيتمكن الجميع من النجاة، ثم اختفى بعد ذلك. وقد أسفت كثيرا لكوني لم أسأله عن اسم ذلك الشخص، لكنني سمعت فيما بعد صوتا يقول، اذهب إلى المكان المعين، وعندما تصل إلى هناك سأريه لك. ولما وصلت إلى هذا المسجد أخبرني بأنك الشخص المطلوب، وإني فعلت الآن ما أمرتني به السماء، لهذا إذا أذنت لي فإني سأعود إلى حال سبيلي". وقد أجابه أحمد بن عبدالله بأنه يجد نفسه أحقر من أن يتولى أمورا بهذه الدرجة من الجلالة، لكن كل شيء بيد الله، وطلب منه عدم الرحيل، ودعاه لمرافقته إلى بيته.

* *إدعاء المرابط أنه تلقى نبوءة هامة من محمد :*

وفي اليوم التالي خرج المرابط إلى مسجده، حيث أدى الصلاة بخشوع ثم تظاهر بنوم عميق، وبعد وقت غير طويل استيقظ وهو يصيح بصوت مرتفع : "*مولاي، أرجوك أن تختار شخصا آخر، لأني أعتبر نفسي أقل من أن أتولى هذه الأمور السامية الجليلة لكن افعل ما يظهر لك، وإني لست إلا عبدك الحقير*". وقد سأله الحاضرون عمن يكلم، فأجابهم : "*إني أكلم النبي محمدا، الذي طلب مني أن أرفع رايته وكذا أن أقوم بأشياء أخرى على درجة كبيرة من الأهمية*". وقد ترجاه الحاضرون ليروي لهم الرؤيا، فأخبرهم بأن محمدا اختاره ليدافع عن المسلمين بحد السيف ضد الملوك الظالمين الذين يمارسون طغيانهم على المسلمين، وأنه سيغزو هذا العالم لينشر فيه الإسلام الذي سيعم الكون، وسوف يحتل روما التي يقال إن عدد أبوابها يفوق عدد أيام السنة، وكلها من الذهب والفضة، كما أن سقوف كنائسها من فضة وأجراسها من ذهب. وسيحصل المسلمون الذين سيرافقونه إلى روما على ثروات لا تعد ولا تحصى، لدرجة أن الواحد منهم سيخاطب الآخر قائلا : "*يا هذا خذ هذا الذهب.*" فيرد عليه الآخر : "*خذه أنت، فإن معي ما يكفيني*". كما أن أقل واحد من المسلمين سيظفر بخمسين صبية مسيحية.

وللمرور إلى البلاد المسيحية لن يكون لزاما استغمال البواخر، لأنه

وبأمر من الله سوف تظهر قنطرة من النحاس تربط سبتة بجبل طارق، ومن مميزات تلك القنطرة أنه على جانبها تقوم سواقي جارية من الرصاص السائل. وبعد روما سوف ينتقل إلى القدس حيث يلتقي في مجمع ديني بيسوع المسيح والنبي محمد، اثر ذلك تصبح الحياة خالدة، ويتولى هو حكم العالم إلى الأبد. وسوف يحاول الإسبان مهاجمة بلاد البربر، حيث يسعون لاستعمال تلك القنطرة النحاسية، لكن وبعد أن يكون كل الجنود الإسبان عليها، سوف تنزل تلك السواقي من الرصاص السائل على أجسادهم حيث تغطي نصفها، ويصلبون في مكانهم، ويبقون على ذلك الحال إلى الأبد، ليكونوا عبرة لغيرهم. وأضاف أن على المسلمين أن يفكروا جيدا فيما يفعلون، وأن الطريق القويم يتمثل في اتباعه، لأنه لن ينجو أحد غير الذين يتبعون رسالته والتي توجد محفوظة بالطلاسم في بعض خزائن مملكة سوس. وقد نجح ذلك المرابط بهذه التفاهات والأكاذيب في اقناع الحاضرين الذين ما إن انتهى من كلامه حتى هموا جميعا إلى تقبيل الأرض المحاذية للمكان الذي يجلس فيه، وكأن الأمر يتعلق بملك حقيقي، وأكدوا له أنهم سيموتون جميعا من أجل إعلاء رايته.

بعد ذلك أمر بقرع الطبول قصد جمع الرجال الذين يريدون أن يحاربوا معه. وطلب منهم ألا يخافوا من رصاص العدو لأنه عندما يصل إلى صدورهم يتحول إلى شمع لين، وسيعود بعد ذلك ليصيب صدور الذين أطلقوه، لكنه حثهم على الاحتياط من الرماح، التي وبخلاف الرصاص لا يستطيع أن يضمن لهم النجاة منها.

ولما انضم إليه حوالي ألف رجل أعلن الحرب على المسيحيين وعمل على اقناع أولئك البربر بأن مولاي زيدان ومولاي الشيخ هما مسيحيان لذا يجب أن تتم محاربتهما قبل غيرهما. وبما أنه كان يتمتع بسمعة الولي الصالح فقد تقاطر عليه الأعراب والبربر من مختلف جهات الصحراء قصد الانضمام إلى جيشه.

* *خوض المرابط لمعركة ضد القائد الميرا وانتصاره عليه :*

وقد اتجه بعد ذلك إلى تافيلالت، حيث خاض معركة ضد القائد الميرا، انهزم فيها هذا الأخير والذي اضطر إلى الفرار إلى ولاية درعة. وفي تافيلالت قام المرابط بفرض الجبايات على الأهالي، حيث أرغم الجميع على دفعها، وكان يسوغ قيامه بذلك بحاجته إلى الأموال قصد القتال في سبيل الله، وبهذه التعليلات تمكن كذلك من ضم عدد كبير من الرجال إلى جيشه.

* *عودة بواخر مولاي زيدان :*

في تلك الأيام عاد إلى ميناء آسفي *مارتن رايز برگين* الذي كان يقود ثلاث بواخر أرسلها مولاي زيدان للقيام بعمليات قرصنة في السواحل الإسبانية، حيث استطاع السطو على باخرتين فرنسيتين. وقد انتقل بعد ذلك مع بقية البحارة إلى موگادور بهدف القيام بإصلاح البواخر التي كان يقودها وكذا التي تم أسرها، لكن هناك باغتهم البحارة الإسبان الذين قاموا بإغراق تلك البواخر. وفر إثر ذلك *مارتن راز برگين* إلى *سانتا كروث* بحرا حيث انتقل منها إلى هولندا، بينما خرج بقية البحارة إلى اليابسة واتجهوا إلى مراكش. وقد احتفظ مولاي زيدان بالفرنسيين كأسرى بينما أرسل الهولنديين إلى سلا ومن هناك أبحروا إلى بلادهم على ظهر باخرة كان يمتلكها مولاي زيدان.

* *إرسال مولاي زيدان لصاموبل بلاشي إلى هولندا قصد جلب الأسلحة:*

وكان قد بقي بمراكش رفقة خادم الكونت *ماوريسيو*، حيث كلفه مولاي زيدان بالتوجه إلى هولندا لاستقدام بعض البواخر وكميات من الموادالمخصصة لصناعة الرصاص والذي نفد من مراكش، وطلب منه اتمام المهمة والرجوع في أقرب وقت، وقد حمله عددا من الهدايا إلى الكونت *ماورسيو* منها أربعة أفراس من الصنف الجيد، وكمية من العنبر. وكان مولاي زيدان قد أمر بصهر

قطع المدفعية بدعوى أخذ المعدن إلى هولندا لإعادة صنع مدافع أصغر حجما، لكن في الحقيقة أن السبب الفعلي لإرسال ذلك المعدن إلى هولندا ليس هو إعادة صنع المدافع، وإنما إعطاؤه كهدية *لصاموبل بلاشي*، والذي منحه بالإضافة إلى ذلك قطعة من العنبر وزنها خمس خروبات.

** تنظيم القائد الميرا لجيشه من جديد وعودته إلى تافيلالت :*

لما علم مولاي زيدان بالهزيمة التي لحقت بالقائد الميرا، وكيف أن المرابط قتل أغلب الرجال الذين يرافقونه حز في نفسه ذلك كثيراً، واستغرب لتطاول ذلك المرابط وجسارته. وكان القائد الميرا قد فر إلى درعة بعد هزيمته، حيث عاد إلى ممارسة جميع أنواع البطش والتعذيب ضد الأهالي قصد إرغامهم على تسليم ما معهم من أموال، في نفس الوقت قام بإعادة تنظيم قواته وقد تم ذلك بشكل سريع وعشوائي.

** إرسال مولاي زيدان القائد علي إلى درعة للإتيان بمليون أوقية.*

وقد أرسل مولاي زيدان إلى درعة القائد عليا بن منصور گوريتو ليأتي بمليون أوقية تحصلت للقائد الميرا من الجبايات التي أخذها من سكان درعة، لكن هذا الأخير امتنع عن تسليمها له بدعوى أن البربر سيقومون باعتراض طريقه والسطو عليه. وبما أن القائد علي بن منصور كان قد تلقى الأوامر بعدم العودة إلى مراكش دون تلك النقود فقد اضطر إلى الانتظار إلى أن يستتب الأمن.

** امتناع أعراب حاحا عن دفع الجبايات لمولاي زيدان :*

في تلك الأيام جهز مولاي زيدان جيشا من ألفين من المشاة وخمسمائة من الفرسان وضع على رأسه القائدين عبدالقادر بن قاسا عامل مراكش، وداود طاحيبا، وذلك لإرساله إلى حاحا قصد ارغام الأهالي على دفع الجبايات، ولما تبين لهؤلاء أن الجيش مكون من العناصر الجديدة التي تنقصها التجربة، تطاولوا عليه ورفضوا دفع تلك الجبايات. وقد حاول القائدان إرغامهم على الدفع عنوة، لكنهم قاموا بمهاجمتهما مما أدى إلى

حدوث اشتباكات طفيفة. ولما علم مولاي زيدان بذلك أرسل إلى القائدين يطلب منهما عدم المغامرة بالجيش والذي اكتفى باضرام النيران في بعض الخيام والمنازل الواقعة في سفوح أحد الجبال وعاد إلى مراكش.

** وقوع معركة بين محمد بن إبراهيم والقائد الميرا :*

وأثناء وجود المرابط أحمد بن عبد الله بتافيلالت حيث كان يرغم الأعراب والبربر على دفع الجبايات، أرسل صديقه محمد بن إبراهيم إلى درعة قصد احتلال قصبة تنزولين، وقد خرج هذا الأخير من تافيلالت ومعه ألف جندي، وفي الطريق انضم إليه عدد آخر من الرجال تمكن بواسطتهم من الانتصار على القائد الميرا الذي فر إلى بعض الجبال الوعرة مع ألف من رجاله.

** إرسال مولاي زيدان أخاه مولاي عبدالله بن أحمد لمحاربة المرابط :*

ولما لاحظ مولاي زيدان أن هذا المرابط يحقق انتصارا تلو الأخر، قرر إرسال أخيه مولاي عبدالله بن أحمد والقائد عبدالصادق بوطويرة على رأس جيش مكون من ألف من المشاة وأربعمائة من الفرسان من أعراب دكالة للالتحاق بالقائد الميرا الذي كان يوجد في مكان بين تنزولين وسيمبيا، وكانت أغلب العناصر التي تشكل هذا الجيش ممن جندت عنوة، لذا فقبل الوصول إلى سيمبيا تمكن من الفرار جل الفرسان وأغلب المشاة.

** مقتل القائد علي بن منصور گوريتو :*

وقد بقي مع مولاي عبدالله بن أحمد عشرون فارسا فقط ومع ذلك تابع تقدمه إلى أن التقى بالقائد الميرا، حيث وقعت مواجهة بين رجالهما ورجال المرابط قتل فيها القائد علي بن منصور گوريتو.

ولما علم مولاي زيدان بفرار أغلب الجنود الذين كانوا يرافقون شقيقه،

أرسل يأمر بعدم الدخول في أية مواجهة جديدة مع المرابط قبل أن يرسل إليهم عددا آخر من الرجال.

* *نجاح جان فيليب دي كستلان Juan Felipe De Castellanos في اقناع مولاي زيدان :*

في تلك الأيام جاء إلى مراكش جان فيليب دي كستلان وأصله من مارسيليا، وادعى أنه سفير ملك فرنسا، وكان مولاي زيدان قد استقبله بحفاوة بعد أن اطلع على بعض الرسائل التي كان يحملها، لكنني بينت لمولاي زيدان بعد اطلاعي على تلك الرسائل أنها مزورة وأن ما يدعيه جان فيليب دي كستلان ليس أكثر من أكاذيب، لكن مولاي زيدان طلب مني أن أكتم ذلك لأنه يود أن يعلم الناس أن ملوك المسيحيين يرسلون إليه سفراءهم وهو بهذا الشكل يستفيد من وجود جان فيليب في مراكش.

وكان جان فيليب هذا يحاول اقناع مولاي زيدان بإرسال سفارة إلى الامبراطور العثماني، يخبره من خلالها بما قام به مولاي الشيخ من تسليم العرائش للمسيحيين، ويطلب منه خمسة آلاف من الجنود الأتراك من الموجودين بالجزائر، ويبين له أنه بواسطة هؤلاء وبجنود آخرين يستقدمهم جان فيليب من فرنسا ثم الجنود المغاربة يمكنه محاصرة العرائش.

وقد اقتنع مولاي زيدان باقتراح جان فيليب، لذا قرر إرسال القائد حمو ابن بوخيار في سفارة إلى القسطنطينية، وطلب جان فيليب من مولاي زيدان السماح له بمرافقة السفير، وذلك بدعوى أنه يعرف معرفة كبيرة جدا الامبراطور وكبار الباشاوات، مما سيسمح له بلعب دور جد إيجابي في المفاوضات. عند ذلك أمر مولاي زيدان بتهييء الهدايا التي ستحملها السفارة للامبراطور العثماني ومن بينها بعض الألبسة الرفيعة وخنجر منمق بالماس والياقوت ثم عدة خروبات من العنبر.

ولما تبين لي أن تلك السفارة لن تكون في صالح ملكي وسيدي

الحقيقي، عدت من جديد لاحذر مولاي زيدان من جان *فيليب*، وقلت له بأنني كنت قد تعرفت عليه في القسطنطينية وأنه ليس أكثر من مشعوذ مخادع، لذا فمن غير المعقول أن يتخذ قرارا على هذه الدرجة من الأهمية اتباعا لنصيحة مخادع كاذب. وطلبت منه أن يفكر في العواقب التي ستنجم عن دخول الجنود الأتراك إلى المغرب، حيث إنه سيكون تحت رحمتهم، وربما لن يترددوا في احتلال مملكته كلها، كما كان الأمر في الماضي، لما دخلوا المغرب في ظروف شبيهة بالتي ينوي استدعاءهم فيها، وذكرته كيف أنهم قتلوا جده مولاي محمدا الشيخ واستولوا على مملكة سوس وكان عددهم أربعمائة فقط، ثم كيف أنهم لو كانوا قد تلقوا في ذلك الوقت الإمدادات من الجزائر لما ترددوا في احتلال المغرب، وسألته عن القوة التي عنده لمواجهة الخمسة آلاف جندي تركي إذا أرادوا احتلال مملكته. وفي الأخير بينت له أن الأتراك لا يحافظون على وعودهم إلا عندما تكون في ذلك مصلحتهم، وأنهم لا يدينون بالوفاء إلا لملكهم فقط.

هذه التعليلات وأخرى شبيهة بها جعلت مولاي زيدان يقتنع برأيي الذي شكرني عليه وقرر إلغاء تلك السفارة، مع الاحتفاظ بجان فيليب في مراكش أكبر وقت ممكن على اعتبار أن ذلك يخدم مصلحته.

** معركة بين الشراكة وأهل فاس :*

في تلك الأيام عرفت مملكة فاس معارك عنيفة بين الشراكة وأهل فاس، يعود سببها إلى غياب ملك يتولى أمر هذه المملكة ؛ ذلك لأن مولاي الشيخ لم يجرؤ على المجيء إليها، بينما كان الأهالي يرفضون رفضا قاطعا عودة مولاي عبدالله إلى الملك بدعوى أنه غير أهل له.

** معركة بين المرابط ومولاي عبدالله بن أحمد :*

ولما علم مولاي زيدان بأن المرابط عازم على الاتجاه إلى ولاية درعة أرسل إلى هناك أكبر عدد ممكن من الرجال، حيث إنه لما قام مولاي عبدالله

ابن أحمد والقائد الميرا بإحصائهم وجدوا أن عددهم حوالي ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثمائة من الفرسان، وكان عدد الرجال الذين يرافقون المرابط يقدر بخمسمائة وثلاثة آلاف. هذه المعركة وقعت بين بعض الأودية، وكان النصر فيها حليف المرابط، الذي أرغم جيشه مولاي عبدالله والقائد الميرا على الفرار مع رجالهما إلى قلاع سيبيار. وقد قتل في هذه المعركة من جانب مولاي زيدان حوالي خمسمائة وألف شخص أغلبهم من المشاة، لأن الفرسان فروا قبل أن يبدأ إطلاق الرصاص، مقابل ذلك لم يمت أحد من جانب المرابط. وبهذا الانتصار تحول المرابط إلى السيد الفعلي لولايتي درعة وتافيلالت. وقد واصل ما كان يقوم به من إرغام البربر والأعراب على دفع الجبايات وكذا ضم عناصر جديدة إلى جيشه، وكان يوضح للجميع أن كل ذلك يفرضه الاستعداد للحرب ضد المسيحيين.

** وصول عشرين ومائة من الأتراك إلى مراكش :*

في تلك الأيام وصل إلى ميناء المعمورة عشرون ومائة من الأتراك، وكان يرافقهم بعض القراصنة الانجليز الذين اغتنموا فرصة نزول الأتراك باليابسة للاستراحة وفروا بالبواخر. عند ذلك اتجه هؤلاء الأتراك إلى مراكش حيث استقبلهم مولاي زيدان استقبالا حسنا وعرض عليهم العمل في جيشه، وقد قبل بعضهم بينما رفض البعض الآخر، فسمح لهؤلاء بالذهاب إلى حال سبيلهم بينما أغدق الهبات على الذين قبلوا العمل معه، وكان يسعى بذلك إلى ربح ودهم حتى يقاتلوا من أجله عند ما يلزم الأمر.

** إعلان أحد العبيد الذين فروا من سان لوكار Sanlucar(1) نفسه ملكا بحاحا :*

في تلك الأيام كذلك فر من سان لوكار على ظهر باخرة انجليزية أحد العبيد المغاربة، وكانت الباخرة قاصدة موگادور. وقد أخبر قائدها أن أصله

1 ـ يتعلق الأمر بمولاي الشيخ ابن مولاي محمد المتوكل ملك المغرب بين 1574 ـ 1576، وقد أرسل من طرف والده والملك سيبستيان إلى مازگان في يوليوز 1578، أثناء معركة وادي المخازن، بعد ذلك نقل إلى البرتغال حيث اعتنق المسيحية وأطلق عليه اسم فيليب الإفريقي.

من موگادور، وأن بعض الأعراب الذين يعرفهم سيأتون للسفينة من أجل شراء بعض السلع، لذا ترجاه أن يعطي أوامره للبحارة حتى يعاملوه أمام أولئك الأعراب بأكبر قدر ممكن من التقدير والاحترام. عند ذلك منح لقائد السفينة مائتي سكودوس وللبحارة مائة كمقابل لتلك الخدمة، ثم ابتاع كمية من القماش والقطن والقلنسوة وطلب من القبطان تسليمها لأولئك الأعراب.

ولما صعد هؤلاء إلى الباخرة أرسل في طلبهم، وكلمهم بسلطة كبيرة حيث أخبرهم أن اسمه *فيليب الإفريقي* وأنه ابن الملك مولاي محمد الذي كان في صف دون سيبستيان خلال معركة وادي المخازن، وبما أنه كان صغير السن وقت تلك المعركة فقد أرغمه المسيحيون على اعتناق ديانتهم، وبقي هناك إلى أن تمكن من الفرار والمجيء إلى موگادور حيث يسعى إلى استرجاع ملك والده. وبين لهم أنه يضع ثقته في أهلها من أجل مساعدته، وأنهم إذا فعلوا ذلك فلن ينسى جميلهم، وسيمنحهم ما يستحقونه. وقد صدقه أولئك الأعراب وأجابوه بأنهم سيذهبون عند شيوخهم ليبلغوهم الخبر ثم يعودون عنده ليخبروه بما قرره هؤلاء.

عند ذلك أمر بأن يمنح القماش والقطن والقلنسوة التي ابتاعها آنفا لأربعة منهم. وقد نزل هؤلاء من السفينة وهم في أشد ما يكون من الإعجاب *بفيليب الإفريقي* المزيف. وذهبوا عند شيوخهم حيث أخبروهم بشأنه وما منحهم من لباس وقلنسوة، وكذا بالتقدير والاحترام الذي يحظى به من طرف ركاب السفينة والبحارة الذين يتهافتون على تنفيذ أوامره مما يدل على أهميته وعلو شأنه. إثر ذلك اتجه الشيوخ إلى الباخرة حيث تحدثوا إليه وقد نجح في اقناعهم بأصله الملكي، لذا وعدوه بأن يعملوا كل ما في وسعهم قصد مساعدته، وطلبوا منه أن يرافقهم، إذ نزل في خيامهم، وكانوا يعاملونه كملك. وقبل مغادرته السفينة ابتاع بكل ما كان معه من نقود كميات من القماش والنسيج وزعها على الشيوخ، وكان هؤلاء يطلبون من كل أهل حاحا مساعدة الملك الجديد والذي نجح في أقل من شهرين من جمع

حوالي ألفي رجل بالإضافة إلى كميات كبيرة من الأموال، ذلك لأن الأعراب كانوا يمنحونه العشور والزكاة. في نفس الوقت قام بتعيين القواد والقضاة كما يفعل أي ملك حقيقي.

إثر ذلك قرر التحالف مع المرابط، لذا أرسل سفارة للتفاوض معه، حيث اقترح عليه الاتحاد، وأخبره بأنه على الرغم من كونه الملك الذي يحق له تولي الحكم على هذه المملكة وكل ما فيها، فإنه لما علم أن المرابط ولي صالح اختاره المسلمون لحمايتهم قبل أن يتنازل عن نصف مملكته.

وقد أجابه المرابط بأنه سعد كثيرا لما علم بقدومه وأنه يشكر الله الذي نجاه من كل الأخطار التي كانت تحيط به حيث تمكن في الأخير من الوصول إلى مملكته التي هي في أمس الحاجة إليه، وأخبره أنه من جهته لا يسعى إلى أي شيء في هذه المملكة، لأن الله أمره بالتوجه إلى بلاد المسيحيين، لكنه قبل أن يفعل ذلك يريد أن يتركه هو ملكا على كل بلاد البربر. وبين له أنه يتمنى كثيرا رؤيته، لذا رجاه بالمجيء إلى درعة بأكبر عدد من الرجال إذا أمكنه ذلك. وقد عاد مع سفير *فيليب الإفريقي* سفير المرابط الذي جاء إلى حاحا بغية تهنئته بمقدمه السعيد.

كل تلك الكلمات المعسولة والاقتراحات المقدمة أطربت *فيليب الإفريقي* الذي قرر الرحيل إلى درعة قصد مقابلة المرابط، وفي اعتقاده الراسخ أنه لا يوجد من هو أكثر منه مكرا وخداعا.

* *مقتل فيليب الإفريقي المزيف :*

اثر ذلك اتجه *فيليب الإفريقي* ومعه ألفا رجل إلى ولاية درعة قصد الالتقاء بالمرابط، وعندما بقي نصف فرسخ على المكان الذي يوجد به هذا الأخير أمر بإقامة مخيمه، ثم أرسل من يبلغ المرابط بخبر وصوله وأنه يتمنى رؤيته والتبرك به. وقد خرج المرابط مع كل فرقة فرسانه لأجل استقباله وكان قد أمر بإعداد خيمة للاستقبال، ما إن دخلاها حتى أمر بقطع رأسه، وقام بعد ذلك بضم الجنود الألفين الذين كانوا يرافقونه إلى جيشه.

ولو كان *فيليب الإفريقي* المزيف هذا ذكيا فعلا، لبقي في مملكة حاحا حيث كان محبوبا من طرف الجميع، ومن هناك كان بإمكانه أن يقنع كل بلاد البربر بأنه الوريث الشرعي لمملكة المغرب، خصوصا وأن أعراب مملكة حاحا اقتنعوا بذلك وكانوا يرددون أنهم إلى ذلك التاريخ كانوا يعيشون في المعاصي لقبولهم بملوك لا ينحدرون من أصل ملكي.

وقد أشاع المرابط بأن ذلك الشخص هو فليب الإفريقي الحقيقي وأنه قام بقطع رأسه لارتكابه إحدى الكبائر والمتمثلة في اعتناقه المسيحية.

** استدعاء مولاي زيدان لفقهاء وأعراب دكالة:*

وقد سعد مولاي زيدان لمقتل هذا المخادع، لكنه كان منزعجا لتزايد نفوذ وقوة المرابط في وقت كان هو في حالة اضطراب وخصاص كبير في الأموال والأسلحة والجنود والقواد. وأمام عجزه عن إيجاد حل لتلك الأزمة استدعى فقهاء وأعراب دكالة وضواحي مراكش، وبعد أن شرح لهم بشكل مطول الوضعية الخطيرة التي توجد بها المملكة والتي يهددها مغتصب أجنبي، رجا الأعراب أن يساعدوه بتقديم الفرسان، والفقهاء باقناع الناس للانضمام إلى الجيش قصد مواجهة العدو. وقد وعدوه جميعا بالسعي إلى تنفيذ ما طلب منهم، لكنهم حثوه على البحث عن الأسلحة والمال من أجل تسليح الرجال ودفع أجورهم، وأكدوا له أنه لن يقبل أحد الانضمام إلى الجيش إذا لم تدفع الأجور. وقبل انسحابهم قال له الأعراب: "*مولاي نحن أعيان القوم وإننا على استعداد لخدمتك، لكن بحكم وضعيتنا فلن نستطيع المجيء إلا قبل يومين أو ثلاثة من وقوع المعركة، لكننا نعدك بعدم تغيبنا عنها*".

وبما أن مولاي زيدان لم يستطع جمع الأموال اللازمة، فقد أرغم نساء القصر على تسليمه المجوهرات التي كانت معهن، كما قام ببيع زخارف القصر الملكي لنفس الغاية.

** وصول باخرتين محملتين بالأسلحة إلى ميناء آسفي:*

في تلك الأيام وصلت إلى ميناء آسفي سفينتان الأولى قادمة من *خوان دي لاكروث* *Juan de la Cruz*[1]، ويقودها تاجر كورسيكي وكانت محملة بالحديد والرماح والنسيج والحبال المخصصة لصنع الخيام، والثانية قادمة من لندن وكانت محملة بالبنادق والسيوف، وقد أخذ مولاي زيدان كل ما كان بهما دون أن يدفع شيئاً لأصحابها.

وكان مولاي زيدان في أمس الحاجة إلى كل ماقام بمصادرته في السفينتين، ذلك لأن الرصاص والرماح والسيوف أصبحت شبه منعدمة بمراكش ؛ مما أدى إلى غلاء ثمنها بشكل فاحش، حيث إن الرمح الواحد تراوح ثمنه بين خمسين ومائة ومائتي ريال، وثمن رطل من الحديد وصل إلى ثمانية ريالات، نفس النقص كان حاصلا في القماش والقطن المخصص للباس الجنود.

** طغيان مولاي زيدان:*

أمر مولاي زيدان بأن تمنح الرواتب لكل من يود العمل في الجيش، لكن لم يرغب أحد في ذلك، حيث بقيت تلك الأموال على حالها، وكان الأهالي يفرون من المدينة خوفا من تجنيدهم، وقد التحق الكثير منهم بصفوف المرابط، وهكذا فشوارع مراكش والتي كانت تكتظ في الماضي بالرجال، لم يعد بها إلا النساء. أمام هذا الوضع أمر مولاي زيدان بدخول القواد إلى المنازل وإلقاء القبض على الرجال الذين يوجدون بها، وفي حالة عدم وجودهم، كانوا يكرهون النساء على الاعتراف بأماكن أزواجهن، وكذا بالأماكن التي يخفين فيها الأموال. كل ذلك جعل أهالي مراكش يحقدون كثيرا على مولاي زيدان، ويتمنون قدوم المرابط لانقاذهم. وكان هذا الأخير على علم بكل ما يجري لذا لم يتردد في الكتابة إلى الأهالي يحثهم على

---

(1) ـ ميناء في بلاد الباسك على الحدود الإسبانية الفرنسية الحالية.

الصبر ويخبرهم بأنه سيأتي في وقت قريب لإنقاذهم من البطش الذي يتعرضون له.

واستعدادا للمواجهة الحتمية، كون مولاي زيدان جيشا من ألفين من الفرسان كلهم انضموا عن طواعية، وخمسة آلاف من المشاة بعضهم انضم عن طواعية والباقي أرغم على ذلك. وكان مولاي زيدان قد اشترى كل الخيول من ماله الخاص، وقد ارتفع ثمن هذه الخيول بشكل كبير حيث تراوح بالنسبة لبعضها بين 1500 و 2000 أوقية، هذا الغلاء كذلك شمل طقم الخيول.

وبما أنه كان في حاجة للقواد القدماء والذين لم يبق منهم أحد، فقد اضطر إلى استقدام محمد بن سبيار نائب السلطان على سوس وعين بدله أحد السود من حاشيته.

وكان الجنود يعانون من نقص كبير في الغذاء، خصوصا وأنهم لم يعودوا يحصلون على الحصص المعهودة من القمح. ومما زاد من حدة تلك الوضعية أن الأعراب كانوا يقومون بقطع الطريق ومنع وصول المؤونة إلى الجنود، ولم يكن مولاي زيدان يجرؤ على معاقبتهم وذلك خوفا من انضمامهم إلى جيش المرابط.

* *موت عدد من نساء القصر الملكي جوعا:*

وبعد أن أخذ منهن مجوهراتهن وأموالهن، حرمهن مولاي زيدان من الطعام، وقد مات العديد منهن جوعا، كما أن أخريات وبسبب انعدام الخبز كن يأكلن البرتقال والليمون حيث يوجد الكثير من أشجاره بالقصر الملكي، وبما أنهن لا يتناولن أي شيء آخر فقد كن يمتن كذلك. وقد رفض مولاي زيدان أن تقدم أية مساعدة لهن؛ وأمر بقطع رجلي ويدي ولسان كل من تتجرأ وتشكوه حالتها. وكان شيئاً مؤسفا حقا أن ترى كل يوم جثث نساء متن جوعا يتم إخراجها من القصر الملكي.

قيام القائد أبي بكر خال مولاي زيدان بأعمال إجرامية :

وفي تلك الأيام اكتشفت في إحدى المطامير الموجودة ببيت القائد أبي بكر شقيق أم مولاي زيدان، وهو من عرب الشبانات، حوالي مائتي جثة من بينها جثة تاجر مسيحي، وقد قام بقتل ضحاياه ليأخذ منهم ملابسهم من أجل منحها لخدمه. هذه الجرائم ارتكبها على مراحل متقطعة. ولما أخبر مولاي زيدان بذلك لم يعر للأمر أدنى أهمية.

ومن الأفعال الأخرى للقائد أبي بكر، القيام بتزوير العملة بكميات كبيرة وبشكل شبه علني. ورغم تذمر الأهالي من هذا التصرف فإن مولاي زيدان كان يغض عنه الطرف مما جعل الحديث يكثر في مراكش عن تواطئه مع خاله في عمليات التزوير.

وفي مملكة فاس كان الصراع لا يزال قائما بين الشراركة وأهل فاس، وكان مولاي عبد الله في حالة خصاص كبير، حيث لم يجد ما يدفعه كأجور لخدمه، لذا منحهم بعض قطع المدفعية لصهرها من أجل صنع النقود، وكان عدد من هؤلاء الخدم يقومون ببيع ذلك المعدن للحدادين.

** ذهاب المرابط إلى قلاع سيمبيا :*

في ذلك الوقت كان المرابط الموجود بولاية درعة يعد العدة للتوجه إلى سوس، وقد انضم إليه الكثير من الناس الذين جاءوا من الصحراء وكان أغلبهم دون سلاح، حيث التحقوا به بدافع الإيمان، ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن السماء هي التي أرسلته ولن ينجو أحد غير الذين يتبعون طريقه.

وقبيل اتجاهه على رأس ذلك الخليط غير المتجانس من الناس إلى قلاع سيمبيا، أرسل مبعوثيه إلى القبائل التي سيمر منها ليطلبوا منهم تهييء المؤونة الضرورية لجيشه وكذا الجبايات التي اعتادوا على دفعها للملوك، وقد تمكن بفضل ذلك من جمع أموال كثيرة.

* *قيام المرابط بتحطيم قبيلة الكراويين :*

وكانت إحدى قبائل الأعراب الكراويين قد امتنعت من تقديم المؤونة والجبايات، ولما علم المرابط بذلك وكان قد تجاوز تلك القبيلة بحوالي عشرة فراسخ قرر العودة إليها والبطش بها ؛ حيث قام بقتل خمسين من أعيانها وجرد الباقي من رجال ونساء وأطفال من ثيابهم وتركهم عراة. بعد ذلك أضرم النيران في الخيام واستولى على الخيول والجمال والماشية إضافة إلى ستين ومائة ألف غرارة من القمح والشعير.

* *إرغام المرابط لأهالي سيمبيا على دفع ما يناهز مليون أوقية :*

وقد أقام مخيمه في تلال سيمبيا التي بقي بها حوالي خمسين يوما، قضاها في استخلاص الجبايات من الأعراب والبربر، وكان يرغمهم على دفع ذلك عنوة ؛ حيث تمكن من جمع ما يزيد عن مليون أوقية. ولم يكن أهالي هذه المنطقة قد دفعوا الجبايات منذ عهد مولاي أحمد. وأثناء تواجده بسيمبيا كتب إلى أعراب وبربر وحضر مراكش يخبرهم بأنه سيأتي في وقت قصير ليخلصهم من طغيان مولاي زيدان، الذي كان ينعته بالشيطان. كما طلب منهم تهييء المؤونة الضرورية لجيشه. وقد أبدى هؤلاء استعدادهم التام لتنفيذ كل ما طلبه منهم، وكان خضوعهم لأوامره وخوفهم منه يفوق كل تصور، وهو ما لم يحسوه أبدا اتجاه أبناء مولاي أحمد.

وقد كتب المرابط كذلك إلى بعض حراس مولاي زيدان يخبرهم بأنه سيجعلهم من قواده الرئيسيين إذا قبلوا الالتحاق به، وبما أن هؤلاء كتموا سر تلك الرسائل على مولاي زيدان، فانه لما علم بها أمر بربطهم بدواب وجرهم إلى أن يلفظوا أنفاسهم. ورغم أن هذا العقاب كان ينتظر كل من يحاول الفرار فان الأهالي لم يتوقفوا عن ذلك وبالتالي الانتقال إلى صفوف المرابط.

* *اعتناق مخادع انجليزي الإسلام على يد المرابط :*

في تلك الأيام جاء عند المرابط تاجر انجليزي يدعى *مارتن Martin* وكان

يميل إلى حياة اللهو والمجون، لذا ضيع كل الأموال التي كان مدينا بها لغيره وأصبح مفلسا. وقد أخبر المرابط أنه لما كان بانجلترا رأى في منامه النبي الذي قال له: *"اذهب إلى إفريقيا حيث ستجد هناك منقذ البشر الذي سينير سبيلك، ويريك الطريق الصحيح المؤدي إلى النجاة"*. ولتنفيذ ذلك الأمر الجليل وحبا في النجاة جاء عند المرابط. وكان جواب هذا الأخير أنه رأى نفس الرؤيا، وأخبره أن طريق النجاة يتلخص في اعتناق الإسلام وتلاوة القرآن. وكان رد الأنجليزي أنه جاء بالفعل لذلك الغرض، لذا اعتنق الإسلام وأطلق عليه المرابط اسم علي بن عبد الله، وبما أنه كان يتكلم العربية بطلاقة، فقد جعله من المقربين إليه ورفيقه السري في المكر والخداع.

** ابتداع المرابط لعدد من المعجزات بتواطؤ مع الأنجليزي:*

وكان المرابط بتواطؤ مع الأنجليزي يقوم بابتداع كثير من المعجزات، ففي إحدى المرات وضعا في إحدى الخيام جفنة كبيرة مليئة بالكسكس، ورغم أن عدد الأشخاص الذين أتوا لتناول طعامهم من تلك الجفنة تراوح بين مائتين وثلاثمائة فان الكسكس لم يكن ينفد أبدا، بل إن كميته كانت تبقى على حالها، ومرد ذلك بأن الجفنة كان بها ثقب وكان هناك نفق يؤدي إلى خيام المرابط حيث يوضع الكسكس من خلاله في أسفل الجفنة، ولقد غدت معجزة الكسكس هذه في نظر المغاربة من أهم المعجزات التي من بها النبي على المرابط.

إن بلاهة أولئك البرابرة وصلت للاعتقاد بأن المرابط كان يقرأ أفكارهم، لذا كانوا يجلونه ويحترمونه لدرجة يصعب تصورها، ولم يكن أحد يجرؤ على أن ينطق بشيء يمس سمعته. وبواسطة مثل هذه التفاهات استطاع المرابط أن يخدع كل من كانوا معه.

** إرسال مولاي زيدان لبعض الفقهاء عند القائد عزوز:*

لما تبين لمولاي زيدان أن المرابط أصبح على مقربة منه، وأن المواجهة

بينهما أصبحت حتمية، في وقت يعرف فيه معسكره خصاصا كبيرا في القواد ذوي التجربة، أرسل بعض الفقهاء ليطلبوا المجيء من القائد عزوز، وكان من كبار قواد مولاي أحمد، ويتمتع بسمعة حسنة بين المغاربة، كما كان يمتلك ثروة ضخمة، وقد التجأ إلى الجبال حيث استقر في قصبة يمتلكها، بعد هزيمة مولاي أبي فارس. كما أمر مولاي زيدان نفس الفقهاء بالاتصال بالقائد أحمد بن منصور گوريتو وهو كذلك من القواد الذين عملوا مع مولاي أحمد، وكان بدوره يقيم في تلك الجبال. وقد شرح أولئك الفقهاء للقائدين كيف أن مولاي زيدان يطلب منهما الالتحاق به لأنه في أمس الحاجة إليهما في المعركة التي سيخوضها ضد المرابط، وانه يعدهما بالمعاملة الحسنة كما يذكرهما بأن كل ما يمتلكانه من ثروة هو بفضل الهبات التي منحها إياهما والده، لذا من غير اللائق أن يتخليا عنه في وقت أصبحت مملكته مهددة من طرف عدو أجنبي.

عند ذلك أخبر القائدان الفقهاء أنهما في كامل الاستعداد للقتال بجانب مولاي زيدان إذا قدم لهما الضمانات المتعلقة بالسماح لهما بالرجوع إلى الجبال بعد انتهاء المعركة، وأضافا بأنه لما كان الصراع قائما بين أبناء مولاي أحمد فباعتبار أنهم أبناء ملك واحد فقد صعب عليهما تقديم الدعم لواحد ضد آخر، لكن وبما أن الأمر يتعلق بعدو أجنبي يريد اغتصاب الملك منهم فانهما على استعداد للقتال والموت في المعركة إذا لزم الأمر.

وقد قدم مولاي زيدان لهما الضمانات التي طلباها كشرط لمجيئهما، إثر ذلك طلب القائد عزوز من القائد أحمد بن منصور گوريتو أن يذهب هو أولا عند مولاي زيدان، ووعده بأن يلتحق به بعد يومين أو ثلاثة.

* *خيانة القائد عزوز لمولاي زيدان :*

وإذا كان القائد أحمد بن منصور گوريتو قد وفى بوعده حيث ذهب عند مولاي زيدان الذي استقبله بحفاوة، فان القائد عزوزا قد أخلف وعده ولم يتردد في الانضمام إلى المرابط، وهو بذلك عبر عما كان يتصف به من تصرفات البرابرة وأخلاقهم.

وبانضمامه إلى المرابط، منح لجيش هذا الأخير صيتا كبيرا ، وذلك لما كان يتمتع به من سمعة حسنة بين المغاربة الذين تبين لهم أن هزيمة مولاي زيدان أصبحت شبه مؤكدة، خصوصا وأن القائد عزوزا اشتهر بين المغاربة بأنه ساحر بارع ومتنبئ بالغيب. وعند انضمامه إلى المرابط أخذ معه أربعمائة من المشاة ومائة من الفرسان، وبفعله ذاك تنكر نهائيا للجميل الذي أسداه إليه مولاي أحمد، وذلك بسبب خيانته لابنه واستعداده لقتاله.

وكان المرابط ينوي التوجه إلى مملكة سوس أولا ، لكن القائد عزوزا نصحه بالسيطرة على مراكش، ووضح له أنه بتحقيقه لذلك سيصبح سيدا على سوس دون حاجة للقتال.

** انضمام القائد عبدالصادق إلى المرابط :*

وكان من أهم القواد الجدد في جيش مولاي زيدان، وقد حدث أن هذا الأخير أخذ منه حصانه الذي سلمه لقائد آخر هو يوسف الباسكي، ثم قام بتوبيخه، وقد حز ذلك كثيرا في نفس هذا القائد الذي أحس باهانة كبرى دفعته إلى الانضمام إلى صفوف المرابط.

ولما تبين لمولاي زيدان أن نشوب المعركة أصبح أمرا حتميا وأن المرابط لم تعد تفصله عن مراكش إلا مسافة ثلاثة أيام، أرسل عامل المدينة القائد عبد القادر ومعه ثمانون فارسا من حملة البنادق يطلب المساعدة من أعراب دكالة، لكن هؤلاء لم تكن لهم رغبة للمشاركة في المعركة، لذا عملوا على تأخير القائد عبد القادر عندهم إلى أن علموا بوقوعها. وهكذا لم يستفد مولاي زيدان من خدمات أعراب دكالة ولا من القائد عبد القادر ومرافقيه والذين كان في أمس الحاجة إليهم.

** وصول المرابط إلى سهول مراكش:*

ولما اقترب المرابط من مسجد أغمات، حيث أصبح على بعد أربعة فراسخ من مراكش أمر بإقامة مخيمه، وكان يرافقه حوالي عشرة آلاف رجل،

منهم خمسمائة وألف من الفرسان المسلحين بالرماح والتي كان بعضهم يحملها بالإضافة إلى الخناجر، كما كان معه خمسمائة وألفان من المشاة المسلحين بالبنادق والسهام، في حين أن الباقي لم تكن لهم غير المقالع لرمي الحجارة. وباختصار فان هؤلاء الجنود كانوا أناسا همجيين، شبه عراة، ولم يكن المرابط يدفع لهم أية أجور باستثناء كميات من القمح والشعير يسدون بها رمقهم.

* *أوامر مولاي زيدان بترحيل نسائه قبل وقوع المعركة :*

وكان مولاي زيدان قد أقام مخيمه بجوار ضفة نهر الويدان، على بعد فرسخين من مراكش. وفي اليوم الذي سيشهد حدوث المعركة قام بارسال أمه ونسائه إلى سفح جبل دمنات وكان يرافقهن القائد عامر وهو خصي من العلوج، إضافة إلى مائتين من عرب الشبانات من أقارب أمه. وكان مولاي زيدان قد أمر القائد عامرا بالتوجه إلى جبل سروة في حالة الهزيمة ليلتقي به هناك.

بعد ذلك رفع مولاي زيدان مخيمه وأقامه على مقربة من العدو الذي تقدم بدوره لدرجة أنه أصبح على مرأى من جيشنا. والحقيقة أن مولاي زيدان لم تكن له رغبة في القتال في ذلك اليوم، وإنما فقط تقدم ليصبح أكثر ظهورا للعدو. وكان لا يزال يعقد الآمال على مجيء القائد عبد القادر ومعه فرسان دكالة تلك الليلة، لكن آنذاك جاء أعرابي وقال له : "*مولاي، تهيأ للمعركة، وكن رجلا، لأن العدو قادم نحونا*".

عند ذلك أمر مولاي زيدان برفع المخيم وشحن الخيام على الجمال، وبقي فقط الجناح الملكي وكانت كلا بابيه مفتوحتين. وقد نزل مولاي زيدان عن فرسه بسرعة ودخل إلى خيمته حيث طلب بعض الطعام، وبعد أن أكل قليلا عاد إلى فرسه وشمر عن ساعده الأيمن ثم طلب الرمح وبدأ باعطاء بعض التعليمات السريعة لرؤساء وشيوخ الأعراب، ومما قاله لهم : "*أيها الرجال النبلاء، يا أصحاب العقول النيرة، قد لا تجهلون الإهانة الكبيرة التي*

يريد أن يلحقها بنا عدو الله وعدوي هذا، وإنني أتساءل هل تسمحون بأن يقوم شخص دنيء مخادع ترافقه مجموعة من الهمجيين بهزم ملككم الشرعي والاستيلاء على مملكته ؟ كما أتساءل هل ستسمحون بأن يدخل أبناء الكلاب الذين يرافقونه إلى منازلكم ويستبيحون نساءكم وأبناءكم ؟ ألا تفضلون القتال حتى الموت على رؤية من كانوا بالأمس أقل من عبيدكم وهم ينتصرون اليوم عليكم؟ إنه ليس لي ما أقوله لكم أكثر من هذا، وإن ثقتي كبيرة في رجولتكم. إنني متأكد أن هذا اليوم سيكون ذا شأن وفيه ستقال واحدة من العبارتين: "حفظ الله مولاي زيدان المظفر أو رحم الله مولاي زيدان". وقد أجابه مخاطبوه بأنهم سيخوضون المعركة من أجل الانتصار أو الموت، وقال له الأتراك الثمانون الذين كانوا ضمن جيشه: *"مولاي، اسمح لنا بالتموضع في المقدمة، لأننا جئنا لنموت" وقد أجابهم بما يلي: "اختاروا المكان الذي ترونه مناسبا لكم، وإن ثقتي كبيرة فيكم"*.

* *طريقة انتظام جيش مولاي زيدان:*

وقد تم وضع القطع الأربع عشرة من المدفعية التي كان يمتلكها مولاي زيدان على شكل هلال، وأخذ المشاة مكانهم بينها، بينما تموضع الفرسان على الطرفين مشكلين بذلك كتيبتين، واحدة في الجانب الأيمن والأخرى في الجانب الأيسر، وكان هذا الجيش يوجد في سهل منبسط، أرضه مبللة بشكل كبير، ذلك لأن العدو حول مجرى إحدى السواقي نحونا، وقد أضر ذلك كثيرا بالجنود الذين أصبحوا يتحركون بصعوبة، بسبب كثرة الأوحال. في تلك الأثناء كان عدد من الجنود الذين ضموا إلى معسكر مولاي زيدان عنوة لازالوا مكبلين بالقيود، لأنه وتخوفا من فرارهم رفض فك قيودهم، ولم يفعل ذلك إلا مع بداية المعركة.

وقبل أن يعطي المرابط أمره لجيشه بالهجوم، قام ببعض الطقوس والتي تتمثل في أمره لكل رجاله بالانحناء للشرب مباشرة بالفم دون استعمال اليدين من ساقية كانت توجد قرب المخيم، وأخبرهم أنه من لا يفعل ذلك

فستكون حياته في خطر خلال المعركة. وبعد أن أدى صلاة مطولة قال لفرقة الفرسان: *"هاجموا أنتم أولا الأعداء، واقتلوهم كلهم دون أن تغفروا لأحد، لأنهم كلهم مسيحيون، ولا تهتموا بالغنائم لأنكم لا تقاتلون من أجلها، وإنما من أجل محمد، ولا تخافوا من الرصاص لإنه عندما سيصيب أجسادكم سيتحول إلى شمع ويعود بعد ذلك ليصيب أجساد من أطلقوه ويرديهم قتلى، أما الرماح فإنني أحذركم منها وأدعوكم لاجتنابها، لأنها يمكن أن تسبب لكم الأذى، ذلك لأن الرماح سلاح استعمله نبينا"*. بعد ذلك أمر المشاة وكان أغلبهم دون سلاح بأن يتبعوا الفرسان، وأكد لهم أنه لا يوجد أي خطر على حياتهم، ومما قاله لهم: *"باسم الله، عليكم أن تهاجموا أعداءكم المسيحيين، وإن محمدا هو الذي سيضمن لكم النصر، ومن يدير منكم ظهره فانه لن يدخل الجنة"*.

* *حدوث المواجهة وانتصار المرابط على مولاي زيدان :*

وقد أطلق فرسان المرابط العنان لخيولهم بسرعة كبيرة، وكان خلفهم المشاة دون أي انتظام، وبسبب الأوحال الكثيرة لم يستطيعوا التقدم ولذا عرجوا جهة اليمين وقاموا بمهاجمتنا من الجوانب. وقبل أن تصل المواجهة إلى الاشتباك المباشر بواسطة السيوف والرماح كان رجالنا قد هموا بالفرار، ورغم ما قام به مولاي زيدان من مجهود لإعادة النظام لصفوف جيشه فانه لم يستطع شيئا، لأن هذا الجيش كان كله في حالة اضطراب.

بالنسبة للعدو، فانه لم يعر أي اهتمام للغنائم، حيث ركز كل اهتمامه على ملاحقة رجالنا، وقد تمكن بواسطة الرماح التي أطلقها من إبادة معظمهم، سواء الفرسان أو المشاة. وكانت هذه المعركة من العنف بمكان لدرجة يمكن معها القول إنه لم يسبق أن حدثت بين المغاربة معركة شبيهة بها.

وقد تمكن مولاي زيدان من النجاة بصعوبة كبيرة حيث فر مع ستة فرسان آخرين، وفي طريقهم نحو شيشاوة التقوا بالقائد عبد القادر والفرسان الذين يرافقونه مما هدأ قليلا من روع مولاي زيدان. وبواسطة هؤلاء وبعض

الذين قبلوا الانضمام إليه من الرجال الجدد اتجه من شيشاوة إلى آسفي حيث مكث مع أعراب عبدة.

ولما علمت عائلة مولاي زيدان ونساؤه بهزيمته، قرروا اللحاق به إلى شيشاوة، لكن عندما أرادوا شحن الأمتعة على الإبل تبين لهم أن نصفها اختفى، ذلك لأنه أثناء تواجدها بالمراعي قام بعض الأعراب بالسطو عليها، وقد اضطروا بسبب ذلك إلى التخلي عن أكبر عدد من الأمتعة.

* *فقدان أم مولاي زيدان لمجوهراتها :*

وكانت أم مولاي زيدان تمتلك كمية كبيرة من المجوهرات والنقود التي أخفتها في بعض الأفرشة، وكانت تعتقد عندما تقرر الرحيل إلى شيشاوة أن القائد عامرا سيقوم بشحنها قبل أي شيء آخر، لكن هذا الأخير لم يكن له علم بها، ووسط الارتباك السائد قام بشحن ما استطاعت الإبل حمله، بينما ترك الباقي وضمنه الأفرشة. ولم تتذكر أم مولاي زيدان المجوهرات إلا عند الوصول إلى شيشاوة، لكن كان الأوان قد فات، والأعراب استولوا على كل تلك الثروات.

* *مقتل مولاي عبد الله بن أحمد:*

وقد قتل في تلك المعركة جل الرجال السبعة آلاف الذين يشكلون جيش مولاي زيدان، وممن لاقوا حتفهم بالإضافة إلى مولاي عبد الله بن أحمد شقيق مولاي زيدان، عدد كبير من القواد من بينهم : أحمد بن منصور گوريتو القائد العام للجيش ومحمد بن سبيار نائب الملك على سوس ومحمد ابن علي الفشتالي وهو قائد قديم عاصر مولاي أحمد وعبد الصمد قائد الحرس الملكي ومحمد بتيسي قائد المشاة وعلي بن سليمان فتالا وعلي الشريف ومحمد دي سيلڤا ومحمد بن عجيبة وغيرهم.

* *شجاعة الجنود الأتراك الثمانين :*

ولم يستطع المرابط مع كل القوات التي معه هزم الجنود الأتراك

الثمانين وقائدهم الإسباني، وكان هؤلاء جنودا محترفين لذا لم يفروا كما فعل بقية رجال مولاي زيدان وإنما قاتلوا بانتظام كبير، حيث وجهوا نيران بنادقهم إلى الفرسان والمشاة من جيش المرابط الذين لم يتجرءوا على الاقتراب منهم، وإنما كانوا يصيحون بهم ويتوعدونهم من بعيد. وقد بقي هؤلاء في ساحة المعركة إلى أن حسم الأمر وتبينت النتيجة، ولم يستسلموا إلا بعد أن أرسل المرابط يطلب منهم ذلك، ويعدهم بأنه لن يصيبهم بأذى. وقد كان استسلامهم بشرف ودون أية إهانة ؛ وبفضل شجاعتهم في القتال أثروا كثيرا على سمعة المرابط وبطولته.

وكان التاريخ الذي حدثت فيه المعركة هو الجمعة 20 ماي 1612 على الساعة الثانية ظهرا.

** المناداة بالمرابط ملكا على العالم :*

في الساعة الرابعة ظهرا دخل القائد يونس ومعه عشرون فارسا إلى مراكش لينادي بالمرابط ملكا، وكان يردد العبارة التالية : *"بأمر من مولاي أحمد بن عبد الله حفظه الله، ملك العالم والمنقذ العظيم الذي أرسله الله ليعاقب الملوك الفاسدين ويجازي الملوك الصالحين، صدر عفو عام عن الجميع"*.

وقد أمر المرابط بعد ذلك بجمع الغنائم ووضعها على باب خيامه، وهدد بالقتل كل من يجرؤ على الاحتفاظ بشيء منها مهما كانت تفاهته. لذا وبسبب خوف أولئك البرابرة الشديد منه، كانوا يسلمونه حتى النقود التي وجدوها بجيوب المنهزمين الذين قتلوا بالمعركة. ورغم أن الغنائم بقيت ملقاة على الأرض لعدة أيام دون أية حراسة لم يتجرأ أحد على اختلاس شيء منها؛ وإن ذلك يعد بحق أكبر معجزة للمرابط، على اعتبار ما كان يتميز به المغاربة من قدرة على الاختلاس.

ولما رأى البربر أنه لم يمت أحد منهم في المعركة، تأكدت لهم صحة

معجزات المرابط، وخلق ذلك لديهم جرأة وثقة كبيرة في النفس، حيث أصبحوا يعتقدون أنه لا يمكن لأحد الانتصار عليهم. ولم يكن يدور من حديث بين الأعراب والحضر على السواء غير ذلك المتعلق بمعجزات المرابط. وكانوا يحسون بسعادة كبرى لقدسية ملكهم وجلاله.

* *سماح المرابط ببناء قبر لمولاي عبد الله بن أحمد :*

بعد المعركة اتجه أعيان مراكش وفقهاؤها عند المرابط لتهنئته بالانتصار وطلب الإذن لدفن مولاي عبد الله بن أحمد وكبار القواد في مقابر تليق بهم. وقد أجابهم بان أولئك مسيحيون لذا فهم لا يستحقون تلك المقابر ولا الدفن على الطريقة الإسلامية، وأنه إذا سمح بمنح قبر لمولاي عبد الله بن أحمد فذلك اعتبارا لنسبه الشريف وانتمائه لآل البيت.

ورغم أن الملك الجديد كان قد أصدر عفوا عاما، فانه تراجع عن قراره حيث أمر باعتقال الذين فروا من المعركة، ذلك القرار سرى علي كذلك، حيث تم اعتقالي، وسجنت بمنزل نائب السلطان.

وكان أمرا يثير الاستغراب أن ترى أولئك البرابرة العراة وأغلبهم دون أسلحة وهم ينتصرون على جيش أكثر تجربة وأحسن تسلحا مثل جيش مولاي زيدان.

* *مساعي مولاي زيدان للحصول على مساعدة أعراب عبدة :*

وفي آسفي بدأ مولاي زيدان يسعى لاقناع أعراب عبدة ودكالة لمساعدته بالفرسان من أجل القيام بمحاولة جديدة ضد المرابط. وقد وعده هؤلاء بتقديم ستة آلاف من الفرسان، في نفس الوقت بدأ الأعراب من جهات مختلفة يتوافدون على آسفي للانضمام إلى صفوف مولاي زيدان الذي شرع في توزيع القماش والكتان والقلنسوة عليهم، وكان قد بدأ الحديث عن إمكانية تكوين مولاي زيدان لجيش جديد. في تلك الأثناء جاء إلى آسفي عدد من الجنود الأتراك وقائدهم للانضمام إلى مولاي زيدان وذلك اعترافا منهم بالمعاملة الحسنة التي حظوا بها من طرفه فيما سبق.

ولما وصل خبر الاتفاق الذي حصل بين أعراب عبدة ومولاي زيدان إلى المرابط، اتجه على رأس قواته إلى آسفي، لكن ما إن علم الأعراب بذلك حتى تخلوا عن مولاي زيدان ووضحوا له أنه لا قدرة لهم لمواجهة هذه القوة الأجنبية العاتية التي تقضي على كل من يقف في وجهها.

وأمام خيبة أمله بسبب تخلي الأعراب عنه، أرسل أمه وأخته وأبناءه وبعض نسائه إلى سانتاكروث عن طريق البر، بينما اتجه هو اليها عن طريق البحر، مستعملا في ذلك باخرتين : الأولى هولندية والثانية فرنسية، هذه الأخيرة كانت في ملك جان فيليب دي كستلان الذي نجح مولاي زيدان إلى ذلك الوقت في منعه من السفر. وقد أبحر مولاي زيدان على ظهر السفينة الهولندية وحمل معه أمتعته ومجوهراته، بينما حمل معه جان *فيليب* بعض نساء مولاي زيدان إضافة إلى كتبه وبعض مجوهرات أمه.

وقبل إبحاره قام مولاي زيدان باحراق كل الأمتعة التي لم يستطع حملها معه، لكن أثناء ذلك جاءه القائد سعيد بن حميدو عامل آسفي وهو أعرابي من عبدة وطلب منه أن يفر بسرعة لأن العدو أصبح قريبا جدا. ولم يجد الملك المسكين بسبب تلك المفاجأة بدا من دخول البحر والاتجاه جريا نحو السفينة التي ألقى بنفسه فيها، لكن وبعد برهة لم يظهر أحد من الأعداء، مما جعله ينزل من جديد حيث غير ملابسه المبللة وبقي وقتا قصيرا يحدث عامل آسفي وسكانها، وقد شكرهم على مساعدتهم والكرم الذي أبدوه نحوه، وقال لهم إنه سيرحل لأن الحظ لم يساعده هذه المرة، لكنه سوف يعود في وقت قريب للانتقام من المرابط بسبب الإهانة التي ألحقها به. بعد ذلك صعد إلى السفينة في اتجاه سانتا كروث بمملكة سوس، وبعد وصوله ترك بها القائد خليلا وهو علج فرنسي في حين اتجه هو إلى تارودانت.

** فرار جان فيليب دي كستلان بأمتعة مولاي زيدان :*

وقد قام جان *فيليب* بعد رسو سفينة مولاي زيدان بسانتا كروث بالفرار وكانت لا تزال بباخرته كتب[1] هذا الأخير وملابس ومجوهرات أمه.

(1) هذه الكتب انتهى بها المطاف إلى خزانة الأسكوريال حيث كونت بقيمتها الرفيعة القسم العربي من هذه الخزانة، لكن معظمها تم إتلافه بسبب إحدى الحرائق التي شبت بالأسكوريال.

لكن عند مروره بمضيق جبل طارق ألقت عليه القبض بعض السفن الشراعية الإسبانية حيث أخذ أسيرا إلى قادس. وقد أرسل بعد ذلك مولاي زيدان القائد أحمد الجزولي إلى فرنسا ليطلب الإنصاف ويشتكي جان فيليب الذي سطا على أمتعته.

** الخطأ الذي ارتكبه مولاي زيدان والذي أدى إلى هزيمته :*

وكان بامكان مولاي زيدان قبل وصول المرابط إلى سهول مراكش أن يتجه على رأس جيشه إلى سفح أحد الجبال الذي يعرف باسم تينياس لإقامة مخيمه به، ذلك لأن التموضع بهذا المكان كان مناسبا جدا، حيث توجد به مجار كثيرة، كما أنه كان آهلا بالسكان الذين في مقدورهم تموين جيش مولاي زيدان بما يحتاج إليه، في نفس الوقت كان يوجد بهذا المكان ممر ضيق، لو أمر مولاي زيدان الجنود الأتراك بالتمركز فيه لاستطاعوا قطع الطريق نهائيا على قوات المرابط التي كانت ستنهار في أيام معدودة بسبب غياب الماء والمؤونة. لكن لم يحدث شيء من كل هذا، لأن أولئك البرابرة عاجزون حتى عن اختيار المكان المناسب لتواجدهم أثناء حدوث معركة، وإن الله وحده يعلم سبب عدم معرفتهم الاستفادة من الفرص التي تتاح لهم.

** جمع المرابط لأموال كثيرة بسبب الجبايات التي فرضها على دكالة :*

ولما علم المرابط أن مولاي زيدان تمكن من الفرار، أقام مخيمه قرب آبار سيرنو على بعد ثلاثة فراسخ من آسفي، وكان يرافقه في تلك الحملة القائد عزوز والذي له دراية بالطريقة المتبعة لأخذ الجبايات من الأعراب، لذلك وبايعاز منه، أمر المرابط باستقدام شيوخ الأعراب وطلب منهم التكفل بجمع الجبايات التي تدفع للملوك من أهالي قبائلهم. في نفس الوقت أمر رجاله بالاتجاه إلى آسفي واحتلالها. أثناء ذلك جاءه القائد سعيد عامل المدينة وسلمه مفاتيحها وكذا بعض الخيام والخيول التي كان قد تركها مولاي زيدان. وبما أن هذا القائد كان زعيم عشيرته، فان المرابط لم يتجرأ على مسه بأذى لكنه أمره بجمع الجبايات من أهل قبيلته.

وقد تمكن المرابط من جمع أموال كثيرة، بعد أن أرغم الأعراب على دفع الجبايات المترتبة عن كل السنوات التي لم يدفعوا فيها ضرائب لمولاي زيدان. ولم يكن المرابط ينفق شيئا من تلك الأموال، ذلك لأنه كان يدفع كأجور للفرسان ريالا واحدا في اليوم ونصفه للمشاة، وبما أنه كان يقوم ببيعهم القمح والشعير الذي كان يمنحه له الأعراب كغذاء للجيش، فانه كان يسترجع لتوه الأجور التي كان يدفعها لرجاله.

وكان هذا المرابط يضع ثقته في الفرسان والذين كانوا يعتمدون أساسا على الرماح، في حين لم تكن له ثقة كبيرة في الأسلحة النارية، لذا فان الكميات الكبيرة من البنادق التي تجمعت له من الغنائم قام بشحنها على ظهور الإبل وأرسلها إلى الصحراء.

* *عفو المرابط عن عرب الشبانات بفضل تدخل محمد بن إبراهيم :*

وأثناء وجوده بدكالة أراد المرابط أن يقتل كل عرب الشبانات، ذلك لأنهم - بالإضافة إلى كونهم لصوصا محترفين - كانوا أقارب لأم مولاي زيدان، لكن بفضل تدخل صديقه سيدي محمد بن إبراهيم قرر العفو عنهم، لذا استدعى شيوخهم واشترط عليهم مقابل العفو تسليم كل أسلحتهم وخيولهم. وقد وعده هؤلاء بأنهم سينقلون الخبر إلى أهل عشيرتهم ثم يعودون إليه، لكن بعد انصرافهم لم يعودوا قط، ذلك لأن عرب الشبانات قرروا التمرد على المرابط كما سنوضح ذلك لاحقا.

* *رواية ما حدث لي مع المرابط :*

في تلك الأيام، وكنت سجينا في بيت نائب السلطان، أرسل المرابط من يأمرني بتسليم مائتي ألف مثقال من قطع العشرين ريالا، وطلب من نائب الملك تعذيبي حتى القتل إذا لم اسلم تلك الأموال. أمام هذا التهديد أبديت استعدادي لأسلم كل ما أملكه مقابل حريتي، وقلت إنني لا أستطيع أن أقدم أكثر مما أملكه. هذا التعليل لم يُعجب نائب السلطان الذي أراد

تعذيبي، لكن وبفضل الله جاء في تلك الأثناء إلى منزله سيدي محمد بن إبراهيم وهو صديق حميم للمرابط ومن كبار المسؤولين، وقد توسلت إليه بأن ينصفني لأنني لم أرتكب أية جريمة تستحق التعذيب، وأنني إذا خدمت في الماضي مولاي زيدان فلأنه كان ملكا على هذا البلد، وإذا كنت قد حصلت على بعض الأموال، فذلك بطريقة شريفة، حيث إن مولاي زيدان منحني ما كنت استحقه، وكان راضيا عن الخدمات التي أؤديها له.

وقد وعدني سيدي محمد بن إبراهيم بأن يهتم بموضوعي، ويكلم الملك الجديد بشأني ثم يرسل إلي الجواب. وبعد ثمانية أيام من ذلك تلقى نائب السلطان الأمر باطلاق سراحي والسماح لي بالذهاب إلى البلاد المسيحية مقابل تسليم كل أملاكي.

إثرها ذهب نائب الملك إلى منزلي، وأخذ الثروات التي دفنتها به، حيث جمع ما بين النقود والتبر والمجوهرات حوالي خمسة وثمانين ألف مثقال. وقد تبين له من بعض الأوراق التي وجدها بمنزلي، أنني تقريبا قلت الحقيقة فيما يتعلق بعملي مع مولاي زيدان. بعد ذلك أخذني إلى مخيم المرابط قصد توديعه وتسلم رخصة الإبحار.

وعندما دخلت على المرابط، وقد أردت أن أقدم التحية بنفس التقدير والاحترام الذي تقدم به للملوك، صدرت منه حركة تعبر عن امتعاضه، وغطى وجهه بطرف جلبابه ثم صاح قائلا : "*اخرجوا عني هذا المسيحي، لأن رؤيته تدعو إلى الشفقة*". عندئذ لم أجد بدامن الخروج من الخيمة حيث بقيت واقفا بجانب الباب. وقد توجه على إثر ذلك المرابط لمن يجالسونه قائلا : "*لقد خدعتموني، لأنني كنت أظن أن ذلك المسيحي يريد المجيء إلي قصد اعتناق الإسلام. لشد ما أزعجني أن أراه وهو في لباس المسيحيين. إن أولئك المتصلبين لا يمكنهم الاقتراب مني، كما أني لا أود أن أعرف شيئا عنهم*". وبما أني كنت بجانب الخيمة فقد سمعت كل ما قاله. آنذاك بدأت أشعر بما قد يصيبني من خطر إذا لم أنجح في الرحيل إلى البلاد المسيحية ؛ فالأموال

التي معي سلمتها للملك الجديد، والملك القديم الذي كان لي نفوذ ومنزلة عنده قد انهزم، ثم إن المغاربة لن يترددوا في تقديم شكاوى ضدي إلى المرابط بسبب كثرة الصفقات التجارية التي مرت بيدي، وكذا الأموال التي اضطروا لتسليمها لمولاي زيدان عن طريقي.

كل هذه الدوافع جعلتني أرفع صوتي مخاطبا المرابط قائلا : "سيدي، *إن الله وضع في نفسي من نعمه بقدر ما وضعه في نفسك، لأنه جعلني إنسانا مثلك، وإنه ليس من الإنصاف أن ترفض الاستماع إلي وأنا أدافع عن نفسي لكوني فقط من ديانة مختلفة، لأن على الملك أن يستمع للجميع، وإني أناشدك الله ـ الذي أنت ملك بأمر منه ـ أن تستمع إلي وتجيبني*".

عند ذلك قال المرابط لمن يجالسونه : "*أسمعتم تعليلات وجسارة هذا الكافر، ما رأيكم أن نستمع لما يريد قوله*". فأجابه الحضور : "*إن رأيك هو رأينا*". فأمر بادخالي، ولما أديت التحية اللازمة، أمرني بالجلوس، وسألني من أين لي بهذه الجسارة التي تدفعني لرفع صوتي في حضرته، فأجبته بأنني ما كنت لأرفع صوتي لو لم تكن لي الثقة في رحمته وعدله، وأضفت قائلا : "*سيدي، إني جئت إلى هذه الممالك مبعوثا من طرف امبراطور المسيحيين إلى ملوكها، لكنني وجدت هؤلاء في حالة حرب عاقتني عن إنجاز مهمتي. ولما طلبت من مولاي زيدان السماح لي بالعودة إلى بلادي رفض ذلك، وأخبرني بأنه لن يرخص لي بالرحيل ما لم يستتب السلم في مملكته. ولما أخبرته أنني لا أتوفر على النقود الكافية لتغطية مصاريف إقامتي المطولة، اقترح علي أن أشتغل معه ووعدني بأنه سيكون كريما معي، وهكذا وبفضل عملي معه بكل إخلاص، وقيامي بالمهمات التي كان يطلبها مني حصلت على الذهب الذي منحتك إياه كفدية لتسمح لي بالرحيل إلى بلادي، وإنني لم أخنك كما لم أخن أي شخص آخر، وإذا كان بعض المغاربة يشتكونني فذلك لأنني نفذت ضدهم أوامر صادرة عن الملك الذي كنت أخدمه. وإنني متأكد من عدالة حكمك، وجلالة تقديرك، وأعرف أن أهواء بعضهم لن تستطيع التأثير*

عليك للمس بعدالة قضيتي. وكل ما أريده منك هو أن تحافظ على عهدك الملكي وتسمح لي بالرحيل إلى حال سبيلي، وإنني قبل أن أصل إلى بلاط سيدي الإمبراطور، سوف أمر بممالك كثيرة، سأكون فيها خير متحدث عن عدلك ومروءتك. وإن لي شعورا بأنك ستتصرف معي تصرف الملوك، وتذكر بأن النسور لا تضيع وقتها في ملاحقة الحشرات".

وحين أتممت كلامي، قبلت الأرض تعبيرا عن رجائي في الحصول على رد إيجابي. بعد ذلك ساد الصمت في المجلس لبضع لحظات خاطبني على إثرها المرابط قائلا : *"لقد فهمت مشكلتك، وإنه يظهر لي بأنك على قدر ما من الذكاء، ولي شعور طيب نحوك، لذا يؤسفني أنك بسبب ديانتك ستدخل جهنم، وإني أتمنى أن تعتنق الإسلام لأنه طريق النجاة، وسوف أعلمك مبادئ هذه الديانة، وبعد أن تطلع عليها كما يجب، سأرسلك على رأس جيش من المسلمين لاحتلال بلاد المسيحيين، لأن الله وهبني حكم العالم بأسره وإن لي كامل الحرية لأتقاسمه مع من أشاء".*

وبما أنني لم أكن أصدق شيئا من معجزاته، فقد أجبته بما يلي: *"سيدي، إنني لا أعرف مبادئ ديانتك، لكنني أعرف جيدا ديانتي التي لقنني مبادئها آبائي، وأنا مقتنع بهذه الديانة لذا لا أستطيع تركها، وقد أتظاهر أمامك باعتناق الإسلام، لكن لن يكون ذلك إلا خدعة، وإني لا أريد خداعك، وكم هو أسفي شديد لعدم قدرتي تلبية رغبتك في هذا الجانب، ما عدا هذا فاني على كامل الاستعداد لخدمتك وتنفيذ أوامرك ولو كان في ذلك خطر على حياتي".*

ورغم ما قلته له، فقد طلب مني أن أفكر جيدا في الأمر قبل أن أتخذ القرار النهائي، ومنحني لذلك مهلة شهر من الزمن، ثم أمر محمد بن إبراهيم بأن يرسلني إلى خيامه قصد تلقيني مبادئ الإسلام، وبهذا الشكل انتهت مقابلتي مع المرابط ذلك اليوم.

وكان سيدي محمد بن إبراهيم هذا أهم الفقهاء المرافقين للمرابط، وقد

قام مع بعض الفقهاء الآخرين بوعظي وتعريفي بديانة محمد ومعجزاته. ومن خلال احتكاكي به لعدة أيام اكتشفت اتصافه بالطمع، لذا قلت له إحدى المرات، إنه إذا كان يحاول إقناعي باعتناق الإسلام فانه يضيع وقته، لذا فأحرى به أن يطلب من الملك أن يرخص لي بالذهاب إلى البلاد المسيحية، مقابل ألفي مثقال وعدته بأن أقدمها له دون أن أخبر أحدا بذلك. ونظرا لأهمية القدر الذي عرضته عليه فقد ذهب إلى المرابط وبين له أنه ليس هناك أي رجاء في اعتناقي الإسلام، وأني في هذه الديانة سأكون نموذجا سيئا لغيري، لذا يستحسن إرسالي إلى حال سبيلي، وقد وافق المرابط على ذلك. وفي اليوم التالي ذهبت لأودعه حيث منحني الترخيص الذي يأذن لي من خلاله بالإبحار، وقال إنه لن يستطيع إدخالي الجنة بالرغم عني، وبامكاني أن أذهب إلى حال سبيلي في حفظ الله، وتمنى لي حظا سعيدا في ذلك، كما طلب مني أن أشيع أمره في الممالك التي أمر منها. وحذرني من الذهاب إلى مولاي زيدان، أو مولاي الشيخ أو ملك إسبانيا، لأنني إذا فعلت ذلك فان لعنته ستصيبني. بعدها ودعني وأمر عددا مهما من الفرسان بمرافقتي إلى آسفي. آنذاك كان قد بقي معي كمية قليلة من النقود، لكن وبما أن المغاربة منعوني من إخراجها من بلادهم، فقد تبين لي أن الطريقة المثلى لصرفها هو فدية خمسة أسرى إسبان.

ولما كنت في آسفي أتأهب للسفر، لحق بي مبعوث من المرابط، وأمرني بعدم الإبحار، ذلك لأن سيده يريدني في خدمة ما، وهكذا اضطررت للعودة ثلاثين فرسخا إلى الوراء حيث كان يوجد المرابط.

** تمرد عرب الشبانات على المرابط :*

في تلك الأيام أرسل مولاي زيدان ابن أخته محمدا أبا حسون ليحرض عرب الشبانات على القيام بأعمال النهب، وكان هؤلاء يصلون إلى أبواب مراكش ثم ينسحبون إلى الجبال ليحتموا ببعض البربر المتحالفين معهم.

وقد اعتبر المرابط ما يقوم به عرب الشبانات بمثابة إهانة كبرى، وعلى

الرغم من أنه كان آنذاك في دكالة حيث يقوم بجمع أموال كثيرة من الجبايات، فقد قرر ترك كل ذلك والعودة إلى مراكش قصد معاقبة المتمردين. ولما علم هؤلاء بما عزم عليه، توغلوا بشكل كبير داخل الجبال، بعد أن كلفوا عددا منهم بتولي مهمة الحراسة في قصبة توجد بها. ولم يكن المرابط يتوفر على المدافع والبنادق بأعداد كافية، كما أن عدد الفرسان الذين يرافقونه كان محدودا جدا، لذا لم يستطع احتلال القصبة.

* *الخدمة التي أسديتها إلى المرابط :*

ولما التحقت به من جديد، قال لي بأنه بعث في طلبي لأقترح عليه وسيلة ما يتمكن بواسطتها من السيطرة على القصبة، وأنه سيكون شاكرا لي إذا ما فعلت ذلك، وقد أجبته بأنني سوف أبذل ما في جهدي لأحقق رغبته. إثرها طلبت ستة آلاف أنبوب أمرت بملئها بالبارود. وقبل الفجر بساعتين، حملت معي ألفي رجل كلهم غير مسلحين وليس لهم أية تجربة في القتال واتجهنا نحو القصبة، ثم أمرت أصحاب الأسلحة النارية أن يتجهوا إلى أعلى القصبة، حيث بدأوا باطلاق الرصاص الذي اختلط دويه بدوي أنابيب البارود. وقد أصيب البربر الموجودون بالقصبة بذعر كبير، حيث اعتقدوا أن كل ما يسمعونه هو دوي البنادق. في نفس الوقت اتجهت إلى صخرة مرتفعة تشرف على القصبة وأمرت بالقاء الكثير من أنابيب البارود، مما زاد من فزع البربر الذين فروا مذعورين. وهكذا ما إن أشرق نور الصباح حتى كانت القصبة فارغة حيث قام المرابط بالسيطرة عليها. وإني أعتقد أنه يصدق على هذه الحادثة المثل القائل بأن الأعور يعد سليم البصر في مملكة العميان.

وقد توجه البربر الذين كانوا بالقصبة إلى بعض الجبال المتوسطة الارتفاع، وكان المرابط أمر رجاله بالتوغل في الجبال ومطاردتهم وكذا مطاردة كل من يجدونهم من عرب الشبانات والبربر المتحالفين معهم. وأثناء ذلك عثروا على مجموعة من هؤلاء قابعين بأحد الجبال، حيث قاموا بالقضاء عليهم.

* خوض المرابط لمعركة ضد الشبانات والمتحالفين معهم :

ولم يقنع المرابط بالانتصار الهام الذي حققه ضد المتمردين، بل أمر فرسانه بمواصلة الزحف نحو الواجهة الأخرى للجبال قصد مهاجمة بعض البربر الذين كانوا قد التجؤوا إلى هناك. وبما أن رجال المرابط كانوا لا زالوا يعتقدون بأن الرصاص لن يأخذ منهم شيئا، فقد تابعوا تقدمهم، وعند وصولهم إلى قمة أحد الجبال، فوجئوا بوابل من الرصاص ينهال عليهم، حيث نجح البربر في قتل ثمانمائة منهم، على رأسهم محمد دي ألقوثير الذي سبقت الإشارة إليه، وهو في الأصل طبيب ولد بمدريد، وكان قد ذهب إلى الصحراء ليساعد المرابط في نسج الأكاذيب. وبعد مقتل ذلك العدد الكبير من الرجال بالرصاص تبين للجميع أن المعجزات التي كان يدعيها المرابط ماهي إلا مكر وخداع.

ولو كان البربر الذين هاجموا فرسان المرابط على قدر ما من الذكاء، لقاموا بمطاردته هو الآخر ولتمكنوا من الانتصار عليه، لكن وبما أنهم أناس جبناء فقد آثروا الفرار إلى الجبال وتوغلوا بها أكثر ما استطاعوا. إثر ذلك نزل المرابط من الجبال وأقام مخيمه في أحد السهول. ومن فرط غضبه وحقده على أولئك البربر، أمر بقطع ستين ألف شجرة زيتون كان هؤلاء قد قاموا بغرسها في السفوح. وبسبب كثرة الجرحى في صفوف جيشه اضطر إلى نقل مخيمه من جديد إلى مراكش قصد توفير العناية اللازمة لهم.

وفي تلك الأيام طلب من المرابط الرجال الذين جاءوا معه من الصحراء السماح لهم بالعودة إلى ديارهم، وبما أنه كان في حاجة إليهم، فقد حاول بواسطة الكلام المعسول أحيانا وبواسطة النقود أحيانا أخرى إقناعهم بالبقاء، لكن العديد منهم قرروا الرحيل دون إذن منه. وكان الرجال الذين يرافقونه قد بدأ يتناقص عددهم بشكل كبير، حيث لم يبق معه غير ألف من الفرسان وأربعمائة من المشاة من حملة البنادق، وألف من الأتباع دون سلاح. ورغم ذلك كان هؤلاء لا زالوا يرددون بأن ملكهم سوف يعبر مضيق جبل طارق

قصد احتلال إسبانيا، وأن القنطرة النحاسية التي حدثهم بشأنها والتي ستربط جبل طارق بسبتة قد بدأت بالانكشاف. ومما تجدر الإشارة إليه، أن المرابط، قام بإرسال كميات كبيرة من الأموال التي جمعها إلى منزله في الصحراء.

** تزعم القائد سعيد بن حميدو لتمرد عرب عبدة:*

وفي آسفي تمرد باسم مولاي زيدان، سعيد بن حميدو قائد عرب عبدة، وهي أكبر قبائل دكالة، وكان المرابط قد عين عاملا على المدينة القائد علي ابن غنيمة شقيق القائد سعيد والذي سبق له أن سلم مفاتيح آسفي للمرابط.

ولما رأيت أن الأمور تزداد اضطرابا، ذهبت إلى المرابط وطلبت منه أن يسمح لي بالرحيل، وذكرته بالوعد الملكي الذي أعطاه لي، وكذا الخدمة التي قدمتها له. عند ذلك منحني رسالة موجهة إلى عامل آسفي ليسمح لي بالإبحار مع خدمي والأسرى الذين فديتهم، وقد أمر بعض الفرسان بمرافقتي إلى آسفي. وإنني أشكر الله على إنقاذه لحياتي من الأخطار والمعارك الكثيرة التي عشتها في بلاد أولئك البرابرة.

وإن واجبي كواحد من رعايا جلالتكم، دفعني أن أتجه مباشرة إلى مالقا حيث نزلت بها مع الأسرى الذين يرافقونني، ومنها اتجهت إلى البلاط الملكي معتبرا أنني برواية هذه الأحداث إلى ملكي وسيدي أكون قد أديت خدمة لله ولجلالتكم.

وكانت مغادرتي لبلاد البربر في 28 نوفمبر 1612، وفي 12 غشت من نفس السنة كاتبني بعض الأصدقاء من مراكش، حيث أخبروني أن المرابط لا زال ملكا عليها، وأن مولاي زيدان خاض ضده خمس معارك أخرى انهزم فيها كلها، حيث اضطر في الأخير إلى الانسحاب إلى جبال بن باردس وكانت رجله قد كسرت في ممطى فرسه.

* *ظهور متمرد بمملكة سوس :*

ظهر هذا المتمرد واسمه يحيى في جبال سوس حيث كان يمتلك مسجدا هناك، وقد تمكن من أن يجمع حوله ما يناهز عشرة آلاف رجل، لم يكن يتوفر منهم على السلاح إلا عدد يسير. وكان ينوي بواسطة هذا الجيش محاربة المرابط، لكن لما علم رجاله أن مولاي زيدان جاء إلى تارودانت، تفرقوا عنه ولم يبق معه إلا بعض خدمه.

* *ظهور متمرد آخر بمملكة فاس :*

وقد ظهر متمرد آخر في جبال أولاد قاسم حيث جمع حوله ما يزيد عن ألفي رجل وادعى الملك بمملكة فاس، وكان هذا المتمرد يقوم بواسطة الرجال الذين معه بقطع الطرقات وبأعمال النهب.

* *مجيء ابن المرابط من الصحراء على رأس خمسمائة وألفي رجل :*

وكان لمرابط مراكش ابن اسمه العربي، قدم من الصحراء بحوالي خمسمائة وألفي رجل من الفرسان والمشاة لتقوية جيش والده، وقد آواه هذا الأخير بالقصر الملكي بمراكش.

* *إشاعة المرابط أنه عثر على كنز كبير بالقصر الملكي :*

وعند مجيء ابنه، رافقه المرابط إلى مراكش حيث بقي بها ثلاثة أيام. وقد أمر بهدم أعلى أبراج القصر الملكي، وادعى بعد ذلك أنه وجد به أموالا كثيرة، كما قام ببيع زخارف القصر الملكي وكذا جواري وخليلات الملوك السابقين.

وبعد أن انسحب مولاي زيدان إلى تارودانت، أمر المرابط رجاله بالتوجه إلى ضواحي مراكش حيث أرغموا الأعراب على تسليم الأسلحة والخيول، كما فرض عليهم الجبايات، وقد أخذ منهم كل ما أمكنه من أموال.

** أوامر المرابط بقطع رؤوس أعيان مراكش:*

وفي مراكش أمر المرابط بقطع رؤوس أهم أعيان المدينة وكذا عدد من شيوخ الأعراب، وقد فعل نفس الشيء في آسفي. وفي تلك الأيام كذلك حدثت معارك عنيفة بين دكالة وتامسنا والتي كان يقود رجالها المتمرد المدعو يحيى.

** مقتل مولاي الشيخ :*

وقد توصلت فيما بعد بخبر من المغرب مفاده أن أحد الأعراب واسمه بوليفا قام بقتل مولاي الشيخ، وأن مولاي عبد الله بصدد تكوين جيش يقوم بواسطته بالانتقام لوالده.

** مقتل المرابط وكل رجاله والقائد عزوز:*

وقد أخبرت كذلك أنه في 26 أكتوبر 1612، نزح المرابط يحيى من جبال سوس نحو مراكش وشن معركة عنيفة على مرابط مراكش، حيث تمكن من الانتصار عليه، وقد قتله مع كل رجاله بما فيهم القائد عزوز وهو آخر الأحياء من قواد الملك مولاي أحمد.

وبهذه الطريقة تلقى المرابط ثمن خداعه ومكره، حيث فارق الحياة دون أن يتمكن من تحقيق حلمه الكاذب الذي كان يحلو له التباهي به، والمتمثل في أنه سيصبح ملكا على العالم بأسره. وقد بقي ملكا على مراكش تسعة عشر شهرا وثلاثة أيام.

استعادة مولاي زيدان لعرشه بفضل دعم المرابط يحيى :

بعد ذلك استدعى المرابط يحيى مولاي زيدان، وأعاد إليه مملكته، وقال له إن الذي دفعه إلى المجيء لمحاربة مرابط الصحراء ليس طمعه في الملك وإنما معاقبة مغتصب استولى على الملك دون حق، وإعادة هذا الملك إلى صاحبه الشرعي، واشترط عليه عدم البطش بالمغاربة كما كان يفعل في

الماضي، وحذره من مغبة القيام بذلك، حيث وضح له بأنه كما كانت له القدرة على إعادته إلى الملك، له القدرة على عزله منه. وقد قبل مولاي زيدان بما اشترطه عليه وشكره على ما قام به من أجله.

وبما أن مولاي زيدان لم يكن لديه العدد الكافي من الرجال لاقامة مخيمه خارج مراكش، فقد اتجه مباشرة للإقامة في القصر الملكي، وكان لا يزال به ابن المرابط الذي أمر مولاي زيدان بأن يربط بدابة ويجر بشوارع المدينة، حيث يبتر في كل واحد من هذه الشوارع طرفا من أطراف جسمه، وبتلك الطريقة المأساوية لفظ أنفاسه.

الجزء الثالث

خصوبة بلاد البربر وأهمية المداخيل الملكية بها

** الخراب الذي عرفته الممالك المغربية:*

مما تقدم تظهر لجلالتكم حالة الخراب التي توجد عليها هذه الممالك، وكيف أن الملوك لم يتوقفوا عن محاربة بعضهم بعضا، مما أدى إلى مقتل عدد كبير من القواد والجنود، الكثير منهم تمت تصفيتهم بأمر من هؤلاء الملوك دون عدل أو إنصاف، وكانوا من أشرف وأحسن أبناء هذه البلاد.

كانت هذه الحروب الأهلية سببا في ظهور وباء الطاعون الذي تفشى في بلاد البربر ولسنوات طوال، وكذا في انتشار المجاعة؛ خصوصا وأن الأهالي توقفوا عن حرث الأرض في الكثير من الجهات التي كانت مسرحا للمعارك. أما في الجهات الأخرى والتي لم تصبها الحرب فقد بقي النشاط الفلاحي قائما، وكان هناك فائض في المحاصيل، لكن بسبب انعدام الأمن وقيام الأعراب بقطع الطرقات، فان هذه المحاصيل لم تكن تصل إلى المناطق المحتاجة. وإنني أتذكر جيدا كيف أن فنقة واحدة من القمح وصل ثمنها في مراكش إلى مائتي ريال، بينما لم تكن في آسفي تتعدى ثلاثين ريالا. ورغم قصر المسافة بين المدينتين، والتي لا تتجاوز أربعة وعشرين فرسخا، فانه لم يكن أحد يجرؤ على استقدام الحبوب من آسفي إلى مراكش، وكان الملوك أنفسهم يجدون صعوبة في تأمين هذا الطريق.

ولابتزاز الأموال من أهالي مراكش، كان الأعراب يقومون بقطع جميع

الأشجار التي يغرسها هؤلاء بالأراضي المسقية، وذلك حتى يضطروا إلى شراء الحبوب منهم بأسعار مرتفعة جدا. هذه الوضعية استمرت إلى أن نفدت أموال سكان مراكش وكذا مخزوناتهم من القمح والشعير، وذهب عدد منهم للعيش في الجبال مع البربر. عند ذلك فقط سمح الأعراب لأهالي مراكش بحرث الأرض من جديد، وقد عرفت المدينة تلك السنة محاصيل مهمة في جميع أنواع المنتوجات الفلاحية.

** خصوبة الأراضي بالممالك المغربية :*

وتتميز هذه الأراضي بخصوبة كبيرة، بحيث إن فنقة واحدة من الحبوب تترك محصولا يتراوح بين ستين ومائة فنقة، هذا في وقت لا يحسن فيه أولئك البربر حرث الأرض، حيث إنهم لا يقومون إلا بتمرير المحراث على السطح مما يحول دون وصول الحبوب إلى العمق ؛ ولو تم حرث تلك الأراضي بنفس الطريقة المستعملة هنا، لكان المحصول أكبر بكثير.

** كيفية إكرام الأعراب لمن يمر بهم :*

ومن محاسن أولئك الأعراب إكرام الضيف، فعابر السبيل الذي يمر بقبيلتهم لا يصرف شيئا من أمواله، حيث يجد عندهم اللحم والخبز كما يجد الشعير لدابته. وتكون فرحة الأعراب كبيرة بزوارهم الذين يسمونهم ضيوف الله. ورغم أنه وعلى طول السنة لا يذبحون الماشية إلا في عيد الأضحى، فانه عند قدوم ضيف ما عندهم فمن اللازم إكرامه بتقديم وجبات من اللحوم.

وبين هؤلاء الأعراب لا يباع ولا يشترى أي شيء، فمن عنده فائض من الحبوب يكون مرغما على تقديم جزء منه لمن هو في حاجة إليه.

** تقديم الأعراب للملوك المؤونة الخاصة بجيوشهم :*

وعند قيام الملوك بحملة عسكرية، فانهم لا ينفقون أي شيء على

مؤونة الجيش، ذلك لأن قبائل الأعراب التي يمرون بها تكون مرغمة على تغطية كل حاجيات هذا الجيش. هذه القبائل تبدأ في إعداد كل ما عليها تقديمه أياما قبل مرور الجيش بها. ولو لم يكن الملوك يحصلون على المؤونة من هاته القبائل لما استطاعوا تموين الجيش خلال الحروب الكثيرة التي خاضوها. مقابل ذلك كان الأعراب يعفون من دفع الجبايات المتعارف على تقديمها للملوك، غير أن هذه الجبايات لم تكن وإلى غاية هزيمة مولاي أبي فارس ذات أهمية، ولم يرغم الأعراب على دفع جبايات مرتفعة إلا بعد تولي المرابط إبراهيم بن عبد الله الحكم بمراكش.

** الحاجة إلى الأموال دفعت بالملوك إلى الرفع من قيمة المثقال:*

وقد عمل الملوك باستمرار على رفع قيمة العملة، وهكذا فالمثقال الذي كان يساوي ست أوقيات في عهد مولاي أبي فارس، ارتفع إلى سبع أوقيات ونصف لما دخل مولاي عبد الله بن الشيخ إلى مراكش، ولما تولى مولاي زيدان الحكم بها ارتفع ثمنه إلى ثمان أوقيات ثم إلى اثنتي عشرة مع المتمرد أبي حسون، بعد ذلك قام مولاي زيدان بخفضه إلى عشر أوقيات. وقد كان هدف الملوك من وراء رفع قيمة العملة التمكن بواسطة أقل قدر ممكن من الأموال تسديد أجور الجنود، وليس إعاقة التجار المسيحيين عن نقل الذهب نحو بلادهم كما كانوا يدعون، لأن هؤلاء التجار لم يتضرروا من ارتفاع أسعار الذهب، لأنهم كانوا يرفعون من أثمان سلعهم بقدر ارتفاع ثمن الذهب الذي استمروا في إخراجه من المملكة بنفس الوتيرة، وكأن ثمن العملة الأصلي (ست أوقيات للمثقال) لم يقع عليه أي تغيير.

** مداخيل ملوك المغرب:*

أظن أنه من المفيد أن أقدم هنا فكرة عن الأموال التي كانت تدخل إلى خزائن الملك مولاي أحمد، مع ذكر للقبائل التي تقوم بأدائها، وقد اعتمدت في ذلك على معلومات نسختها من كتاب خاص بالمداخيل الملكية.

ـ عرب الشياظمة المقيمون في ولاية حاحا :	700.000 أوقية
ـ عرب عبده المقيمون في ولاية دكالة:	600.000 "
ـ عرب الشرارگة المقيمون بنفس الولاية:	200.000 أوقية
ـ أولاد بوعزيز :	160.000 "
ـ أولاد فراخة :	100.000 "
ـ أولاد عمران :	100.000 "
ـ عرب تامسنا على ضفة نهر أم الربيع :	600.000 "
ـ الحمراء بجوار عبدة والمجاطي وأولاد عمار :	50.000 "
ـ الكدية وابن إيدس وعكار أولاد الدليم :	50.000 "
ـ أولاد زمران :	240.000 "
ـ شرگة (بجوار مراكش) وعرب الشبانات	100.000 "
ـ الغرارة وتاسانت ورأس العين	200.000 "
ـ فشتالة والشاوية :	200.000 "
ـ تافيلالت ودرعة :	800.000 "
ـ دمنات وحمر ودناسة وامزميز وتزغين وايمن تانوت:	600.000 "
ـ ضرائب على تجارة القمح والشعير والخيول واللحوم:	600.000 "
ـ احتكار بيع المنتوجات التي يستقدمها القراصنة إلى آسفي :	150.000 "
ـ مزارع قصب السكر بشيشاوة ومملكة سوس :	2.000.000 "

- المداخيل المحصل عليها من مملكة فاس، أكثر من: 3.000.000 "

المجموع : 12.700.000 "

هذه الكمية من الأموال هي المداخيل القارة لمولاي أحمد، لكن يجب أن تضاف إليها الرسوم المفروضة على السلع المستوردة أو المصدرة من المملكة، وكذا العشور والضرائب المفروضة على القمح والشعير، بالاضافة إلى ما يتم تحصيله من مداخيل العنبر الأسود الذي يوجد في شواطئ سانتا كروث ومصب نهر ماسة وموگادور.

وإذا قمنا بتحويل هذه المداخيل من الأوقية إلى الريال القشتالي، فانه وعلى اعتبار أن قيمة الأوقية الواحدة هي أربعة ريالات قشتالية، سوف نحصل مقابل 000. 700. 12 أوقية على 181. 618. 4 دوقة من قطعة الاحد عشر ريالا.

* *العشور والرسوم المترتبة على السلع الأجنبية :*

هذه المعلومات تم نسخها من كتاب خاص بمداخيل ملك المغرب، وهي توضح قيمة العشور والرسوم الجمركية المتحصلة من السلع التي تدخل المملكة سنويا.

- 000. 50 دزينة من القلنسوة يؤدى عنها: 000. 120 دوقة
- 000. 30 قطعة من الكتان المستقدم من انجلترا وفرنسا وجهات أخرى يؤدى عنها : 500. 297 "
- 4000 طرد من الريان يؤدى عنها : 102.000 "
- أنواع أخرى من الكتان مثل النسيج البولندي، والنسيج الإنجليزي والخيش : 100.000 "

- أنواع من النسيج القطني الناعم : 30.000 "
- أنواع من النسيج المستورد من الهند الشرقية: 40.000 "
- التوابل : 50.000 "
- المجوهرات واللؤلؤ : 30.000 دوقة
- المرجان : 20.000 "
- الحديد ونعال الخيول والمسامير (كان الملك يعفي التجار من أداء الرسوم المستحقة على الحديد) : 25.000 "
- السكاكين والمشط والقصدير والمحلجات والخيط الخاص بها : 20.000 "
- النسيج الحريري والقُطيفة والنسيج الحريري المشجر وغيرها من أنواع الحرير: 35.000 "
- التبغ والأفيون والجاوي والبخور والخزامى وحشيشة المحمودية : 25.000 "
- القنب والكتان والخيط والحبل والمرايا : 15.000 "
- صمغ اللك والقرمز والصندل وخشب البرازيل والأبنوس : 10.000 "

*** ضرائب مفروضة على مواد أخرى :**

- العنبر والمرجان والسيلان والزجاج : 120.000 "
- حجر الشب والزنجار والزرنيخ والانتيمون والاسفداج : 6.000 "

- الرسوم المترتبة على صيد الأسماك : 140 .000 "

المجموع : 1.077.550 "

وإذا حولنا قيمة كل مداخيل الملك مولاي أحمد من الأوقية إلى الدوكادوس فان ما سنحصل عليه هو 681. 695. 5 دوقة، هذا بالإضافة إلى الجبايات التي كان يفرضها على الأعراب سنويا. وكان هؤلاء يؤدونها بكل انتظام، حيث يهيئونها قبل موعد أدائها، وما إن يزورهم قائد يبعثه مولاي أحمد حتى يسلموه إياها، وذلك لخوفهم من سلطته وجبروته. لكن في الفترات الأخيرة، لم يعد للجيش أية هيبة، وبالتالي فان الأعراب أصبحوا يرفضون دفع تلك الجبايات، ولم يعد بالامكان أن يؤخذ منهم ولو ريال واحد عن طواعية، لذا لايظفر منهم أحد بشيء اللهم ذلك الذي يأتيهم وبيده الرماح.

الجزء الرابع

الأسباب الداعية للقيام بغزو الممالك المغربية وسهولة تحقيق ذلك

** الأسباب الداعية للقيام بالغزو:*

هناك أسباب متعددة تجعلني أسعى لاقناع جلالتكم من أجل العمل على غزو هذه الممالك، أولها وأهمها هو واجبكم أمام الله والذي يلزمكم بنشر ديانتنا الكاثوليكية المقدسة بمملكة الكفار الذين قاموا في الماضي بغزو ممالك إسبانيا واستعباد أهاليها مما خلف دون شك رغبة ملحة للانتقام في نفوس بعض الاسبان الأباة. ولا أعتقد أنه ستوجد فرصة أخرى أحسن من التي تتاح اليوم للقيام بالغزو، ذلك لأن هذه الممالك وكما سيظهر لجلالتكم من التقرير الذي أقدمه لكم تعيش في انقسام وخراب، فملوكها في حالة من الخصاص المادي الناتج عن الحروب الكثيرة التي قتل فيها كل القواد والجنود الذين شكلوا في الماضي دعامة الجيش، والذي لم يعد به إلا مجموعة من البرابرة دون أي سلاح ولانظام أو تجانس، زد على ذلك أن الأهالي حقدوا كثيرا على أولئك الملوك بسبب طغيانهم.

وإن لجلالتكم العديد من الجنود في كل من فلاندرا وإيطاليا وجهات أخرى وهم يكلفون جلالتكم ملايين كثيرة. وإنني أعتقد أنه إذا سخر جلالتكم فقط عُشر الرجال الذين لكم في تلك الجهات، يمكنكم أن تنفذوا ذلك المشروع العادل المتعلق بغزو مملكة المغرب، والذي سيمكنكم بالإضافة إلى دحر المسلمين من الحصول على ثروات هائلة.

** سهولة تنفيذ هذا المشروع :*

هل يمكن لجلالتكم أن تتصوروا أن المرابط أحمد بن إبراهيم، وهو شخص بئيس ليس له من مؤهلات غير قدرته الكبيرة على المكر والخداع، تمكن من تولي الحكم بهذه البلاد ، وذلك بعد أن أقنع المغاربة والذين لهم ميل طبيعي إلى كل ما هو جديد من أنه ولي صالح. وبفضل الدعم الذي قدموه له استطاع أن يهزم الملوك الشرعيين، وليس معه من جيش إلا مجموعة من الرجال العراة الذين لايختلفون عن الحيوانات في شيء، والذين لم يكن معهم من سلاح غير بعض السهام والمقالع.

وإنني أعتقد أن جلالتكم سيرتكب خطأ فادحا بتفويت هذه الفرصة، لأنه لا توجد هناك أية صعوبة أو مغامرة، فهل للمغاربة قلاع حصينة للاحتماء بها ؟ وهل لهم جيوش متحمسة ومسلحة تسليحا جيدا ؟ وهل لهم الايمان الذي قد يدفعهم للجهاد ضد المسيحية؟ و هل لهم قواد محنكون يقومون بقيادة الجيش في المعارك؟ إنه ليس هناك شيء من هذا. إن كل ما لديهم هناك هو مجموعة من الأشخاص المغرورين، الدنيئين الذين يقبلون بأن يمارس عليهم أي نوع من العبودية.

** كيف انهزم الملك دون سبستيان ببلاد البربر:*

إن ذلك الجيش القوي الذي اعتمد عليه مولاي عبد الملك لمواجهة دون سبستيان لم يعد يوجد منه غير الاسم. لقد كان جيش مولاي عبد الملك أثناء تلك المعركة يتألف من عشرة آلاف من المسلمين الأتراك المسلحين بالبنادق، وثمانية آلاف من الموريسكيين الذين غادروا إسبانيا بعد سقوط مملكة غرناطة، وستة آلاف من حملة البنادق الذين تم اختيارهم من بين أكثر المغاربة شجاعة، وعدد كبير من المشاة من أصحاب السيوف والسهام. بجانب هذا كله كان هناك ثلاثة آلاف من الفرسان الآخرين المسلحين بالبنادق وأربعون ألفا من الأعراب أصحاب النبال والدروع، كل هؤلاء الجنود تلقوا أجورهم مقدما وبسخاء كما أنهم كانوا في حالة استعداد كامل للمعركة .

رغم ذلك فان دون سبستيان كان بامكانه الانتصار على المغاربة لولا الأخطاء التي ارتكبها قواده الذين لم تكن لهم تجربة في محاربة المغاربة ؛ ذلك لأن الجيوش البرتغاليين تمكنوا من هزم سلاح مدفعية العدو مما جعل المغاربة يشرعون في الفرار، لكن في تلك اللحظة أمر قواد دون سبستيان جنودهم بالانسحاب، وقد لفت ذلك انتباه المغاربة الذين ظنوا أن عدوهم يفر من المعركة، مما دفعهم إلى استجماع قواتهم بسرعة والعودة لمهاجمة جنود دون سبستيان الذين كانوا في حالة من الفوضى والاضطراب استحال عليهم معها القيام بأية مقاومة وكان ذلك سببا في هزيمتهم.

إن لكل شيء في هذا الكون نهاية، وإن نهاية سلالة الملوك الأعراب الذين يحكمون مملكة المغرب تعتبر شيئا حتميا، ذلك لأن هذه المملكة وبسبب الحروب الأهلية الكثيرة التي عاشتها أصبحت عبارة عن جسد عليل فقد كل أمل في العثور على الدواء الذي يمكنه من النجاة، وإذا كان هذا الجسد قد تمكن من الصمود إلى الآن فلأنه لم يجد من يهاجمه ويضع حدا له.

إن الإسبان قد تعودوا دائما النظر إلى الأمام دون تردد، فعندما قرروا الذهاب لاكتشاف وغزو الهند الغربية لم يكونوا يعرفون شيئا عن هذه البلاد ولا عن خيراتها أو سكانها الذين كان عليهم محاربتهم. لقد كان سلاحهم الرئيسي هو تفاؤلهم وإيمانهم بأنهم سيعثرون على ما يبحثون عنه، ولقد لبى الإله رغبتهم، وتمكنوا من غزو الهند الغربية التي جنت إسبانيا من ورائها ولا زالت إلى اليوم ثروات ضخمة تعتبر ضرورية للحفاظ على تاج جلالتكم.

وإذا كان للإسبان من الشجاعة ما مكنهم من غزو ممالك بعيدة، فكيف سيعجزون عن غزو مملكة قريبة ومعروفة لديهم، حيث لا توجد بها أية مقاومة. وإذا كان لإسبانيا من الحكمة ما يكفي للحفاظ على سيادتها بالممالك البعيدة، فانه من البديهي أن تتمكن وبسهولة من الحفاظ على سيادتها بالمغرب. إن على إسبانيا بعد غزوها لهذه المملكة القيام

بتحصينها، مما سيجعل أمر اختراقها أو السيطرة عليها مستحيلا على الأعداء.

وإذا أخذ جلالتكم بالاعتبار موقع هذه المملكة وخصوصيتها فانه سيتبين بأنكم ستجنون فائدة أكبر من تلك التي تجنونها من الهند الغربية، ذلك لأن هذه الممالك وبحكم قرب المسافة، يمكن ضمها إلى إسبانيا وهو ما لن يتسنى بالنسبة للهند الغربية.

وإن لجلالتكم ببلاد البربر قلاعا كثيرة هي : وهران ومليلية وصخرة بادس وسبتة وطنجة والعرائش والمعمورة ومازاگان. هذه القلاع يتطلب الحفاظ عليها مصاريف مرتفعة دون أن تستفيدوا منها شيئا، لذا فاني أتساءل هل جلالتكم لا يشاطرني الرأي بأنه باحتلال هذه الممالك تكون تلك القلاع قد استحقت على الأقل الأموال الكثيرة التي تنفق عليها ؟

وإنه بامكان جلالتكم الاستفادة من الجنود الذين عندكم في المعمورة للقيام بذلك الغزو. وإني اعتبر أن قيامكم باحتلال تلك القلعة كان شيئا إيجابيا رغم المصاريف الكثيرة التي كلفها تحصينها، ذلك لأن الكثيرين كانت أنظارهم متجهة إلى هذه القلعة، على رأسهم مولاي زيدان والهولنديون.

* *أهمية القيام بهذا الغزو :*

وإذا كان جلالتكم ينوي استشارة الهولنديين بشأن غزو هذه الممالك، فاني أعرف مسبقا بأنهم لن يقدموا لك النصيحة المناسبة، لأنهم لا زالوا يتذكرون كيف سبقتهم إلى حصن المعمورة الذي كانوا قد خططوا لاحتلاله، وكانت لهم فيه مصالح كثيرة، زد على ذلك أن الهولنديين هم من حلفاء مولاي زيدان والذي على جلالتكم أن تعتبروه عدوا لكم.

* *الدوافع التي تفرض على جلالتكم احتلال الموانئ المغربية :*

إنني أرى أن على جلالتكم أن تأخذوا الاحتياط اللازم من مولاي زيدان وكأن الأمر يتعلق بعدو قوي، ذلك لأنني أعرف تطلعاته ومخططاته

وبالتالي ما يمكنه القيام به بدعم من الهولنديين، لذا على جلالتكم أن تقفوا حجر عثرة في وجه أية محاولة منه للاتصال بهم، وسوف يتسنى لكم ذلك بعدم ترك أي ميناء بحري في يده.

وفيما يلي أورد نقطتين مهمتين اعتبر أن تحقيقهما مرتبط باحتلال جلالتكم للموانئ الموجودة بهذه المملكة:

1 ـ منع إدخال السلاح وبقية المواد الأخرى إلى الممالك المغربية دون ترخيص من جلالتكم. وللتذكير هنا أشير إلى أن المغاربة يستوردون عن طريق هذه الموانئ الرماح والسيوف والبنادق والرصاص والمحارث بالإضافة إلى الرصاص المخصص لصناعة نعال الخيول والكتان المخصص لصنع الخيام وأشياء أخرى يحتاجها الجنود من مشاة وفرسان.

في نفس الوقت ستسمح السيطرة على الموانئ بتضييق الخناق على الأعراب، فهؤلاء لهم أموال كثيرة وهم معتادون على التعامل مع القادمين إلى هذه الموانئ عن طريق شراء الألبسة وبيع كميات كبيرة من بعض المواد مثل الشمع والريش والنيلة والجلود ومواد أخرى لا يجدون من يقبل على شرائها في بلادهم. وإنه في حالة احتلال جلالتكم لتلك الموانئ فان السلع السالف ذكرها، لا يمكنها الدخول أو الخروج من هذه الموانئ دون ترخيص منكم. ثم إن مد سلطتكم عليها سيسمح لكم بالحصول على أموال كثيرة من العنبر الذي يتم استخراجه من سواحل هذه البلاد والذي يقدر سنويا بأربعين خروبة، كما أنه سيسمح بمراقبة القراصنة الذين يأتون إلى هذه الموانئ لبيع مسروقاتهم وإصلاح سفنهم، والذين يلحقون في الوقت الحاضر الكثير من الأضرار برعاياكم عن طريق السطو على سفنهم.

2 ـ ستضيع على الهولنديين فرصة استعمال تلك الموانئ ضد جلالتكم، خصوصا وأنني فهمت من رسالة سفير هولندا إلى مولاي زيدان أن بلاده تنوي الاستفادة من هذه الموانئ لأغراض مختلفة كلها تلحق الضرر بمصالح جلالتكم، وسوف أتحدث عن تلك الرسالة بنوع من التفصيل لاحقا.

* كيف تضيع الممالك العظيمة الفرص التي تتاح لها :

إن الاقتراحات التي تقدمت بها من أجل احتلال الممالك المغربية لم تلق إلى الآن آذانا صاغية، كما لم تعرها الأهمية التي تستحقها، ولو تم ذلك لكان جلالتكم الآن ملكا على تلك البلاد. لكن في الممالك العظيمة مثل مملكتكم عادة ما يرفض المسؤولون القائمون بتسيير أمور البلاد الاستماع لاقتراحات شخص متواضع مثلي، متناسين بأن الله في الكثير من الحالات يستعمل وسائل بسيطة لإظهار علمه وقدرته.

أنا يا مولاي نبيل المولد والأخلاق، ولقد عشت في بلاطات كثير من الأمراء المسيحيين والمسلمين حيث شغلت بها مناصب سامية. وقد كانوا كلهم راضين عن خدماتي، لكنني رفضت كل تلك المناصب وفضلت المجيء إلى جلالتكم، وذلك إحساسا مني بأن واجبي كأحد رعاياكم يحتم علي خدمتكم. إنني أتكلم كثيرا من اللغات، ولي تجربة كبيرة اكتسبتها من خلال سنوات طويلة من التجوال. وكم أحسست بأسف شديد لعدم تمكني من تقديم ثمرة هذه التجربة لجلالتكم، وكذا لعدم وجود آذان صاغية تستمع بنوع من الاهتمام لما أود اقتراحه، وذلك طيلة السنتين اللتين قضيتهما بهذا البلاط، حيث ضيعت فيهما دون فائدة جزءا من عمري وكذا أملاكي، ولم يكن لي من عزاء خلال هذه المدة إلا ما كنت أتذكره من صبر ومثابرة كريستوف كولومب الذي اضطر للانتظار طويلا قبل أن يوافق الملوك الكاثوليك على مشروعه، ذلك المشروع الذي جنى من ورائه ملوك إسبانيا الكثير من المجد والجاه. وإذا كان الملوك الكاثوليك قد ترددوا كثيرا قبل الموافقة على ما كان يقترحه كريستوف كولومب، فان ترددهم كان له مسوغ ؛ وهو أن كولومب نفسه لم يكن متأكدا مما كان يقترحه، وكانت دعامته الوحيدة في كل ذلك هو الأمل، أما ما أقترحه أنا فهو بخلاف ذلك، لأن الأمر يتعلق بمملكة معروفة ومجاورة لإسبانيا، وإني على معرفة جيدة بأمور الحكم بها، هذه الأمور التي كانت ولمدة من الزمن تمر بين يدي.

إن الذين يتحدثون عن بلاد البربر هم كثيرون، لكن يوجد فرق بين من يعرف جسدا من الخارج ومن يعرفه من الداخل ؛ فهذا الأخير له اطلاع بخباياه وعلاته، وإنه يستحق أن يصغى إليه بعناية أكبر من ذلك الذي يعرف الجسد فقط من الخارج.

إن التعرف على تلك البلاد كلفني ما لا يقل عن ثمان سنوات، غامرت فيها بحياتي. وقد ساعدني الحظ ليس فقط لأصبح من خاصة مولاي زيدان ومرافقه في حروبه، وإنما كذلك المشرف على كل الأمور التجارية الهامة التي كانت تتم بمملكته، هذا بالإضافة إلى اطلاعي على كل الرسائل التي أتى بها السفراء الأجانب، وكتابتي لرسائل بعث بها مولاي زيدان مع أولئك السفراء إلى ملوكهم، وقد سمح لي ذلك بأن أعرف كل جزئيات العلاقة التي تربط تلك المملكة مع غيرها.

وإنه لمن المؤكد أن أي أمير أذهب لخدمته سيرحب بي ويفتخر بوجودي في بلاطه، وذلك نظرا لبعض المعرفة التي عندي بأمور وقضايا العالم، لكن حلمي هو غير هذا، لأن كل ما أطمح إليه هو خدمة جلالتكم، ولن يثنيني عن ذلك شيء غير الموت. وإن تعلقي بهذا الأمل وإحساسي بأنه سوف يتحقق يوما ما هو الذي يخفف قليلا من آلامي، وحتى وإن لم يتحقق شيء مما أسعى إليه في خدمة جلالتكم، فانه يكفيني لأحس بالسعادة أنني أظهرت نواياي الحسنة وبذلت كل ما في جهدي من أجل ذلك دون أن أوفق.

** الخطر الذي قد يحدق بجلالتكم في حالة عدم غزوكم لتلك المملكة:*

إن على جلالتكم أن تعرفوا أنه لو علم الأتراك بالفائدة التي يمكن جنيها من غزو تلك المملكة لما ترددوا في السعي إلى ذلك. وإذا ما وصلوا إليها فانهم سيشكلون خطرا حقيقيا على جلالتكم، وإني أشك في أنهم سيتركون لجلالتكم الوقت الكافي للاستعداد من أجل مواجهتهم، لذا أرى من الضروري غزو تلك المملكة قبلهم.

وإننا رأينا كـيف أن الأتراك ودون أن يمتلكوا مـوانئ بالمحـيط الأطلسي كانوا يقومون انطلاقا من الجزائر بمهاجمة السواحل الاسبانية والايطالية، حيث استولوا على كثير من الغنائم وكذا الأسرى الذين نقلوهم إلى تركيا، وقد ارتد أغلبهم. هؤلاء يشغلون حاليا مناصب سامية، كما أنهم يقومون بتزويد الامبراطور بكل المعلومات التي تهم بلادهم الأصلية، وهم بذلك يسببون للبلاد المسيحية أضرارا جسيمة.

** الأضرار التي يلحقها العلوج ببلدانهم الأصلية :*

لقد جرى العرف بين المسلمين بعدم تعيين أبناء البلد في المناصب التي تهم شؤون الحكم، لذا فهم يعتمدون على الأجانب في تسيير أمور البلاد، وقد رأينا كيف أن معظم القواد في الجيوش المغربية كانوا من هؤلاء. ومن بين الذين عملوا مع المسلمين وألحقوا أضرارا جسيمة بالمسيحيين نذكر الرايس مراد وهو قرصان يعرف معرفة جيدة سواحل الكناري وجزر لانثاروت *Lanzarote* التي كان يقوم بمداهمتها، ولكثرة الأشخاص الذين أسرهم هناك، ترك تلك الجزر شبه فارغة من السكان. نفس الشيء قام به الدوغالي وهو قرصان غرناطي يعرف معرفة جيدة منطقة *كويڤاس Cuevas* التي قام بمداهمتها وتمكن من أسر جل أهاليها الذين قدمهم لسيده ملك المغرب.

** العواقب التي قد تنجم عن احتلال الأتراك لبلاد البربر:*

إن على جلالتكم أن تعلموا أن للأتراك جيشا نظاميا، كما لديهم أسلحة شبيهة بالتي عند المسيحيين، هذا إضافة إلى تميزهم بشجاعة كبيرة، وإن على المسيحيين أن يأخذوا كل ذلك بعين الاعتبار ؛ فلو أرسل باشا الجزائر ألفي جندي فقط، لاستطاع هؤلاء غزو بلاد البربر وإرغام الأعراب على دفع الجبايات، وإذا ما تذوقوا حلاوة هاته الجبايات، فإنهم بكل تأكيد سيعيدون الكرة مرات أخرى.

** جرأة أربعمائة من الأتراك :*

لقد قام أربعمائة جندي تركي كانوا في خدمة مولاي محمد الشيخ بقتله داخل خيمته وسط جيشه، وكان ذلك خلال واحدة من أزهى مراحل حكم الشرفاء بمملكة المغرب. إن هؤلاء الجنود الأربعمائة حاربوا بكل بسالة جيش مولاي محمد الشيخ المكون من ثمانية آلاف رجل وانتصروا عليه، ولولا خيانة أحد اليهود وتهاون باشا الجزائر في تزويدهم بالامدادات اللازمة لسيطروا على مملكة المغرب بأسرها.

** شجاعة ثمانين من الجنود الأتراك :*

لقد شاهدت خلال المعركة التي دارت بين مولاي زيدان والمرابط كيف أن كل رجال مولاي زيدان اما قتلوا أو لاذوا بالفرار باستثناء ثمانين من الجنود الأتراك الذين بقوا في ساحة المعركة يقاتلون بشجاعة نادرة، هؤلاء الأتراك كانوا جنودا نظاميين محترفين فضلوا الموت على الفرار. وقد عجز المرابط بالرغم من الجيش الذي يتوفر عليه، وكذا المعجزات التي يتباهى بها من الوقوف في وجههم، ولم ينسحبوا إلا بعد أن قدم لهم وعدا قاطعا بعدم مسهم بأي أذى.

** امتلاك جلالتكم لحصون في بلاد البربر لا يعني أنكم في مأمن من كل خطر :*

إن على جلالتكم أن تعلموا أن هدف الأتراك الأول هو طرد القوات الإسبانية من الحصون الكثيرة التي تتواجد فيها ببلاد البربر، وإذا ما استطاعوا تحقيق ذلك فلن يكون من السهل طردهم منها.

إن المغاربة وبواسطة جيش مكون من ثمانين ألف رجل لم يستطيعوا زحزحة الأتراك عن مازگان وهو حصن صغير ودون أهمية تذكر. إنني على يقين أنهم إذا ما احتلوا تلك الحصون فسوف يستعملونها لمداهمة سواحل إسبانيا التي قد يلحقون بها أضرارا كبرى ربما يكلف جلالتكم اصلاحها

الكثير من الرجال بالإضافة إلى أموال قد تقدر بالملايين. لذا ولتفادي وقوع ذلك أرى أن الحل الأمثل هو القيام الآن وقبل فوات الأوان بغزو مملكة المغرب.

** مسوغات غزو بلاد البربر:*

ليس من المنطق التسليم بأن الأتراك لن يقدموا على غزو مملكة المغرب، بدليل أنه لحد الآن لم يقوموا بأية محاولة في ذلك الاتجاه. إن هناك احتمالا كبيرا لقيامهم بذلك، وفي هذه الحالة ستصاب إسبانيا بأضرار كثيرة، ولن ينفع آنذاك الندم على عدم الاستماع إلى نصيحة مفيدة كالتي أقدمها اليوم.

** عدم المعرفة بالأشياء يؤدي عادة إلى إهمالها :*

وبما أن لوزراء جلالتكم معرفة كبيرة بأمور إيطاليا وفلاندرا فإنهم يولونها اهتماما خاصا، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لبلاد البربر، لأن هؤلاء الوزراء وبحكم جهلهم لأمور تلك البلاد فانهم لا يولون الاهتمام اللازم للاقتراحات التي أقدمها بشأنها.

** سعي مولاي إسماعيل بالقسطنطينة إلى تولى الحكم في بلاد البربر:*

لقد رأيت مولاي إسماعيل هذا بنفسي، عندما كنت بالقسطنطينة، وهو ابن مولاي عبد الملك الذي رحل إلى هناك لطلب مساعدة الأتراك من أجل استرجاع عرش والده، وإن مولاي إسماعيل بن عبد الملك يسعى اليوم لتولي الحكم ببلاد المغرب.

** تعزيز الأتراك لنشاطهم البحري :*

وإذا كانت السفينتان التركيتان اللتان قامتا بالهجوم على سواحل مالقا قد ألحقتا أضرارا كبيرة بإسبانيا، ولم يتم إخضاعهما على الرغم من

تواضع أهميتهما إلا بعد مقتل عدد كبير من الضباط البحريين الإسبان، فماذا سيكون الحال عندما سيستولي الأتراك على موانئ بلاد البربر ويجعلونها قاعدة لانطلاق عملياتهم البحرية.

وإن البحرية التركية مافتئت تكشف من نشاطها خصوصا مع ضم عناصر عديدة من القراصنة الانجليز والهولنديين، هذه العناصر سوف يتزايد عددها لا محالة بعد احتلال الأتراك لموانئ بلاد البربر، لأنه بانضمامهم إلى البحرية التركية، سيصبح بامكانهم التحرك والقيام بأعمال النهب بكل حرية في السواحل الاسبانية والتي لهم معرفة جيدة بها.

** ضرورة احتياط جلالتكم من الهولنديين :*

إنني أظن أنه ليس على جلالتكم أن تحتاطوا من الأتراك فقط وإنما من الهولنديين كذلك، ولأوضح حقيقة نوايا هؤلاء ارتأيت أن أتناول هنا ما جاء في الخطاب الذي ألقاه أمام مولاي زيدان سفير هولندا *بولفاست هيرمانسون* *Bulphast Hermanson* .

** الخطاب الذي ألقاه السفير الهولندي أمام مولاي زيدان :*

"لقد حاربنا في الماضي الإسبان دون تبصر، لكن الآن وبعد أن تم توقيع الهدنة، فتحنا أعيننا على كثير من الأشياء، حيث إنه حين ستتجدد الحرب سنعرف جيدا كيف نستفيد منها لتحقيق الانتصار الذي نسعى إليه.

في الماضي كان انتصارنا في تلك الحرب مرتبطا بمدى مساعدة وإرادة حلفائنا، أما اليوم فانه سيرتبط فقط بعزيمتنا وإرادتنا نحن، لأننا سوف نعتمد فقط على قوتنا وتجربتنا.

إن الحرب شيء في صالحنا، لأنها تمكننا من استنزاف الأموال الإسبانية. ورغم أن إسبانيا تحصل سنويا على أموال كثيرة من الهند فان هذه الأموال لا تبقى أبدا بحوزتها، لأن إسبانيا عبارة عن غدير يتوصل بكميات كبيرة من الأمطار في وقت قصير لكن هذا الغدير سرعان ما يمر

تلك المياه إلى السواقي التي تتشعب عنه بينما يبقى هو جافا ودون مياه، كما كان الأمر قبل سقوط الأمطار.

وإن الحفاظ على جيش قوي يتطلب مصاريف مرتفعة، هذه المصاريف يتولى أمرها أسيادي حكام هولندا والذين بفضل الضرائب التي يفرضونها على رعاياهم يحصلون على أموال كثيرة.

وبالنسبة للهند الشرقية، فاننا نفضل وضعية الحرب على السلم، لأن ذلك يسمح لنا بتقوية أسطولنا كما أنه يزيد من خبرة رجالنا، هؤلاء يزكي حماسهم بفضل الثروات الهامة التي يحصلون عليها.

وإننا نعرف أنه بمقدورنا طرد البرتغاليين من الهند الشرقية، وإن أسيادي حكام الولايات العامة الهولندية يفكرون بكل جدية في ذلك، كما أنه بإمكاننا إعاقة الإسبان عن الاستفادة من ثرواتهم في الهند الغربية، لأننا نعرف معرفة جيدة كل المحطات البحرية التي يستوردون منها هذه الثروات والتي بامكاننا مداهمتها بكل فعالية مما قد يسمح لنا بالحصول على فوائد كبرى.

إن أسيادي حكام هولندا الذين أرسلوني مبعوثا إلى جلالتكم يرغبون رغبة أكيدة في قيام تحالف بينكم وبينهم، تسمحون بمقتضاه لسفنهم بالدخول إلى موانئ جلالتكم والخروج منها بكل حرية، كما تقدمون لها التسهيلات اللازمة، وخصوصا السماح لرعاياكم ببيعها كل الضروريات التي قد تحتاج إليها. في نفس الوقت نسعى من وراء هذا التحالف الترخيص لرجالنا قصد تحصين المعمورة وغيرها من القلاع التي يرى رجالنا أنها مفيدة لهم، هذا بالإضافة إلى السماح لهم بمهاجمة القلاع التي لإسبانيا في مملكتهم وذلك عن طريق تقدمهم برا لمحاصرة هذه القلاع وبحرا ليمنعوا وصول الامدادات والمؤونة إليها مما يرغمها على الاستسلام، وبالتالي يسمح لقواتنا باحتلالها. مقابل هذه الخدمات تدفع هولندا لجلالتكم قدرا معلوما من المال

يتم الاتفاق عليه مسبقا. وإن قيام ذلك الاتفاق وتنفيذ هذه المشاريع سيكون في صالح الطرفين.

إن السفن الهولندية بفضل انطلاقها من موانئ بلاد البربر ولجوئها إليها عند الضرورة ستتمكن من قطع الطريق على السفن الاسبانية المتجهة إلى الهند الغربية.

إننا نأخذ العبرة في صراعنا مع إسبانيا من الحكيم سيبيون Cipion الذي أرسله الرومان إلى إفريقيا ليشغل القرطاجيين ويعوقهم عن توجيه أنظارهم إلى إيطاليا قصد مهاجمتها. إننا أكثر رغبة من سيبيون في المجيء إلى إفريقيا قصد إعلان الحرب على إسبانيا، التي تعرف أنه لن يكون بامكانها أن تلحق بنا أي ضرر، خصوصا وأننا أكثر استعدادا منها لهذه الحرب، كما أن رجالنا أكثر مهارة، وعدد بواخرنا يفوق تلك التي عندها.

إن هذه الحرب لن تكلف أسيادي حكام هولندا إلا الشيء القليل، لأن جميع المصاريف ستتولى أمرها إحدى الشركات التجارية، كما كان الأمر أثناء الحرب مع البرتغال في الهند الشرقية حيث تولى بعض التجار جميع المصاريف ".

وقد وضح هذا السفير في ختام خطابه أنه خلال الحرب مع البرتغال عمل كجنرال للقوات الهولندية بالهند الشرقية.

* *رد مولاي زيدان على سفير هولندا :*

وقد أجابه مولاي زيدان أنه على أتم الاستعداد لتلبية طلبه ومقاسمة هولندا انتصاراتها، وأنه سيسخر كل قواته من أجل تحقيق ذلك، ووعده بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه في الوقت المناسب، في ذات الحين قرر إعلان الحرب على إسبانيا.

ـ الخطة التي يجب اتباعها من أجل غزو الممالك المغربية:

* *لن يكلف تموين جيش جلالتكم أية مصاريف :*

هناك طرق عديدة للقيام بغزو الممالك المغربية، أكثرها فاعلية هو إعداد جيش من عشرين ألف رجل. إن تكاليف هذا الجيش لن تكون كبيرة لأن على جلالتكم فقط تغطية مصاريف العبور إضافة إلى الأسلحة والخيام، أما فيما يتعلق بالتموين فان أمره سيقع على الأعراب، لأن العادة جرت في هذه البلاد أن يقدم أعراب كل ولاية يمر بها جيش ما مرغمين اللحم والخبز والتبن والشعير. وبما أن هؤلاء الأعراب يخبرون مسبقا بما هم مطالبون به، فانهم عند وصول الجيش إلى ولايتهم يكونون قد هيؤوا المؤونة اللازمة.

* *لن يضطر جلالتكم لاقتناء الدواب من أجل القيام بالحملة :*

إن جلالتكم لن يتكلف أية مصاريف بشأن الدواب، لأنه سيتم أخذ الجمال من الأعراب، هذه الحيوانات لا تأكل التبن ولا الشعير وبالتالي فلن ينفق عليها شيء، كما أنه يمكن الاستفادة من لحومها لتغذية الجنود، ولحمها شبيه بلحم البقر، وبعد ذبحها يمكن استغلال جلودها لصنع حبال متينة تتم الاستفادة منها لربط الحمولة.

* *عدم ضرورة مشاركة فرق البلطجية في الحملة :*

تفاديا لتكاليف إضافية، فانه من غير اللازم الاعتماد على جنود متخصصين باستكشاف الطريق ويمكن الاعتماد على السكان المحليين للقيام بهذه العملية.

* *اللوازم الضرورية للحملة :*

سوف يكون ضروريا أخذ بعض الطاحونات الصغيرة التي بمقدور

الجمال نقلها، ويمكن لكل واحدة منها أن تطحن كل ليلة ثلاث فنقات من الحبوب وبذلك فان مائة طاحونة تعتبر كافية لتغطية حاجات كل الجيش.

وبما أن كل خيمة ستأوي عشرين جنديا فإنه يجب تزويد كل واحدة من هذه الخيام بقربة خاصة لوضع الماء بالإضافة إلى قدر وصحن نحاسي لتهييء الطعام.

* *سيتم أخذ الخيول من الأعراب :*

الحصول على الخيول لن يكلف شيئا لأنه سيؤخذ من الأعراب العدد اللازم منها، لكن يتحتم جلب طقمها ونعالها وكذا الأشخاص الذين يتولون تركيبها، هذا بالإضافة إلى الرماح التي يجب أن تسلم لفرسان لهم مهارة خاصة في استعمالها، وذلك بغرض إثارة إعجاب الأعراب، لأن هؤلاء إذا ما تبين لهم عكس ذلك فانهم سيستهينون بجيشنا.

* *الأسلحة والأدوات الضرورية للحملة :*

إنني اعتقد أن الرماح ذات المعول الحاد والتي تجلب من فلاندرا ستكون مفيدة جدا، وذلك بسبب فعاليتها عند إصابة الجسم، خصوصا بالنسبة لأناس عراة ليست معهم أية أسلحة مناسبة. سيكون لزاما كذلك أخذ كميات من الرماح العادية لاستخدامها ضد فرسان العدو إذا ما حتم الأمر ذلك، كما يجب أخذ أنواع من الأسلحة الأخرى الاحتياطية يتم الاحتفاظ بها على ظهور الجمال لتستعمل عند الضرورة. ومن الأدوات الأخرى اللازمة، هناك الفؤوس وغيرها من الآلات المعدة لتشييد السياجات، هذا بالإضافة إلى عدد من الأكياس تخصص لنوم الجنود إذا ما تطلب الأمر البقاء في مكان رملي.

* *المكان الذي يجب أن ينزل به الجيش :*

على جلالتكم أن تصدروا أوامركم بنزول جزء من الجيوش في ولايتي دكالة وحاحا، وهكذا ينزل عشرة آلاف رجل بآسفي ويتجهون مباشرة إلى

آبار سيرنو على بعد فرسخين من المدينة. هؤلاء ستنحصر مهمتهم في البداية في تحصين إقامتهم، بعد ذلك يقومون باعتقال شيوخ أعراب عبدة وإرغامهم على إعطاء الأوامر لأهالي قبائلهم من أجل تسليم المؤونة والجمال، وسوف يبقى الشيوخ رهن الاعتقال لكن يعاملون معاملة حسنة. في نفس الوقت يأمر جلالتكم بنزول ستة آلاف رجل في موگادور بولاية حاحا، حيث يتوغلون في اليابسة مسافة فرسخ واحد ويقيمون المخيم على ضفة النهر، بعد ذلك يقومون بتحصين المخيم ويستدعون شيوخ قبائل الشياظمة لإرغامهم على تقديم المؤونة كما حدث مع أعراب عبده.

بقية الجنود وهم أربعة آلاف ينزلون بمازگان، ويتجهون مباشرة إلى المدينة ليقيموا مخيمهم عند أسوارها، وسوف يستسلم سكانها مباشرة لأنهم حتى وإن حاولوا المقاومة فلن يستطيعوا.

* *ما يجب القيام به من أجل تأمين الخبز :*

بعد إقامة المخيمات وضمان الحراسة اللازمة لها وفي انتظار نشوب الحرب، يقوم الأشخاص المكلفون بالطاحونات بطحن أكبر عدد ممكن من الحبوب.

* *طريقة وضع الأفران لتهييء الخبز :*

ولتهييء الخبز يجب وضع حفر في الأرض، يوضع فيها الحطب في حالة توفره، وإلا فيوضع بدله بعر الماشية والإبل، كل هذا من الأشياء الجاري بها العمل في تلك البلاد.

وعندما يكون الجيش في مكان يوجد به حطب كثير، فانه من المناسب صنع كميات كبيرة من البسكويت يتم حفظها للأيام التي تكون فيها إمكانية تهييء الخبز غير متيسرة.

** إجبار الأعراب على تسليم كميات من الكسكس الجاف :*

كذلك يجب إعطاء الأوامر للأعراب قصد قيامهم بتسليم كميات معلومة من الكسكس الجاف يومياً، وهو طعام مغذ جدا. ولن يستغرب هؤلاء الأعراب من كل هذه الأشياء التي تطلب منهم، ذلك لأن العرف جار بينهم على تسليم الطعام والخيول والجمال إلى ملوكهم، وفي حالة امتناعهم عن ذلك فانه يؤخذ منهم عنوة.

** أين يجب أن يتمركز الجنود ؟*

وعندما يحصل الجيش على الكمية الكافية من الجمال والمؤونة يتجه نحو مراكش، وعلى امتداد الطريق يقوم باحتلال كل منابع المياه من آبار وعيون وأنهار وأحواض، كما أن الأماكن التي يقرر أن يقيم بها مخيمه يجب أن تكون دائما محاذية لمنابع المياه. وبالنسبة للمسافة التي يقطعها يوميا فانها سوف تتراوح بين فرسخين وثلاثة، ولن تصل إلى أربعة فراسخ إلا في حالات نادرة.

** وضع سياجات في أماكن توفر المياه :*

وفي كل منبع للمياه تم احتلاله يوضع حصن من الطوب، وتكون هذه الحصون على شكل أبراج كما يظهر في الرسم، وان بناءها يبدأ مباشرة بعد وضع المخيم، ويتم الانتهاء منه حوالي الساعة الرابعة ظهرا، لكن يمكن أن يتأخر العمل عن ذلك أحيانا، وفي هذه الحالة يجب عدم مغادرة المكان قبل الانتهاء من البناء. وعند مغادرة الجيش للحصن فانه يترك به عادة حرس خاص تتفاوت أهميته حسب أهمية المكان المسيج.

** أين تكمن أهمية هذه الحصون ؟*

وبوضع هذه الحصون سيحقق جلالتكم شيئين مهمين:

- أولا ضمان عدم تمرد الأعراب، والتزامهم بتقديم المؤونة، خصوصا وأنهم سيكونون ملزمين بالورود على منابع المياه قصد سقي ماشيتهم.

ـ وثانيا ضمان الأمن على امتداد الطرقات، حيث إن كل قبائل الأعراب ستكون مرغمة على تحقيق ذلك في مناطقها. ويجب أن يعاقب كل الأعراب الذين لا يلتزمون بذلك لأن هؤلاء لا يطيعون أمرا إلا بالتهديد.

* *الخطة التي يجب أن تنهجها الفرق الثلاث :*

بالنسبة للفريق الأول والموجود في حاحا، سوف يقوم باحتلال مداخل الجبال وكذا الجداول التي تنزل منها نحو السهول، وإن تمركزه بهذه الأماكن إضافة إلى تواجده بالحصون سيسمح بقطع المياه على الأعراب إذا ما لزم الأمر، وبهذه الطريقة يمكن إخضاع عرب الشياظمة. بالنسبة للفريق الثاني فانه يقوم بنفس الشيء وذلك انطلاقا من مكان تمركزه، وفي اتجاهه نحو مراكش يخضع أعراب شيشاوة. نفس الخطة يجب أن ينهجها الفريق الثالث والموجود بدكاله وذلك في طريقه إلى مراكش عبر جبال بن باردس.

* *المكان الذي يجب أن تلتقي فيه الفرق الثلاث :*

هذه الفرق الثلاث سوف تلتقي بمكان يعرف باسم الساقية الجديدة على بعد ثلاثة فراسخ من مراكش، آنذاك سيكون كل من أعراب ولايتي دكالة وحاحا خاضعين لسلطة رجالنا، كما أن أعراب الجبال لن يكون بامكانهم الالتقاء بأعراب السهول، لأن احتلال مراكز المياه سيمنع من قيام أي تحالف بينهم. وقد يظهر لجلالتكم أن الحصون التي تم بناؤها من طرف فرق الجيش الثلاث لن تقاوم كثيرا بدليل أنها بنيت من الطوب فقط، لكنني أؤكد لكم بأن الأعراب لن يستطيعوا تدميرها بأسلحتهم المكونة من الرماح والمقالع، كما أنهم لن يتمكنوا من السيطرة عليها.

* *جمع المؤونة وتحصين قصبة مراكش :*

عند الدخول إلى مراكش يجب على الجيش أن يحرص على جمع أكبر كمية ممكنة من المؤونة وكذا القيام بتحصين قصبة المدينة، كما يجب ألا

يمارس أي بطش بالأهالي، وفي نفس الوقت يعاقب بصرامة وعدل كل من يحاول فعل ذلك. وخلال الأيام الأولى يستحسن عدم تغيير أي شيء حيث يتم الحفاظ على المساجد والقضاة.

*** إرسال ستة آلاف رجل إلى تامسنا قصد جمع المؤونة :**

بعد تحصين قصبة مراكش ووضع الحراسة اللازمة بها، ينتقل ستة آلاف جندي نحو تامسنا، حيث يحتلون معبر وقنطرة نهر أم الربيع، ويقيمون بين أعراب تامسنا، وذلك بعد تحصين المكان المخصص لإقامتهم، وفي هذه المنطقة يجب أن تنحصر مهمتهم في جمع المؤونة فقط. كما أنه وقبل الوصول إلى تامسنا، يقومون ببناء حصون أخرى من الطوب في كل الأماكن التي يجدون بها المياه ؛ لأن هذه الحصون هي أحسن طريقة لإخضاع الأعراب وتأمين الطريق .

*** استدعاء شيوخ دكالة وحاحا :**

على الجيش الموجود بمراكش وضواحيها أن يستدعي شيوخ دكالة وحاحا، وبعد أن يذكرهم ببطش وطغيان ملوكهم السابقين، وكذا بقوة وجبروت جلالتكم، يعدهم بالمعاملة الحسنة إذا ما قبلوا الاستسلام وتقديم الطاعة. عند ذلك سيكون لزاما منح بعض الهبات لهؤلاء الشيوخ والمتمثلة في كميات من القماش والكتان، كما يتم إعفاؤهم من دفع الجبايات بخلاف بقية الأهالي. ولضمان طاعتهم يرغمون على ترك أبنائهم كرهينة بالموانئ المغربية التابعة لإسبانيا، حيث تتم معاملتهم معاملة حسنة، كما يجب الاحتفاظ بالشيوخ داخل الجيش لأنهم يعتبرون بمثابة مفاتيح لقبائلهم وضامني استمرارية أداء هذه القبائل للجبايات التي تسلم للملوك.

*** إجبار الأعراب على تسليم الخيول :**

يجب أن يحتفظ بالخيول أعيان الأعراب فقط، أما ما دونهم فيجبرون على تسليمها للجيش. وبعد حصول رجالنا على العدد الكافي منها،

يتجهون إلى مملكة فاس، وفي الطريق تتم كذلك السيطرة على كل مراكز المياه، حيث توضع حصون مثل التي سبق الحديث عنها. كما يجب أن تترك في مراكش القوة الكافية التي يمكنها الحفاظ على تلك المملكة. وسوف تتمكن جيوشنا من احتلال فاس بنفس السهولة التي احتلت بها مراكش.

** المقاومة التي يمكن أن تأتي من جهة المغاربة :*

إنني لن أتطرق لهذه المقاومة لأنها غير موجودة أصلا، حقيقة أن المغاربة سيقومون في البداية بمحاولات دفاعية، لكنها لن تشكل أي خطر، وذلك ما حدث في المعمورة، حيث إنه بالرغم من أن كل جيشنا كان من المشاة، في حين أن جيش المغاربة كان من الفرسان، فإنهم ما إن شاهدوا أسلحتنا النارية حتى ولوا فارين، مدركين أن الرصاص لن يتحول إلى شمع كما كان يوهمهم بذلك المرابط، وأن عصر المعجزات قد ولى إلى الأبد.

** التجاء الأعراب إلى الجبال والمناطق الداخلية :*

يدعي البعض بأن الأعراب في حالة الهجوم عليهم سيلتجئون إلى الجبال والمناطق الداخلية، لكنني أرى أن ذلك غير وارد، لأن الأعراب وإن لم تكن لهم منازل في المناطق التي يقطنونها، فإن لهم أراض زراعية بها، إضافة إلى الآبار والعيون والأنهار التي يتزودون منها بالمياه الضرورية لهم ولماشيتهم، وهم يتعلقون بشكل كبير بهذه الأراضي لدرجة أنهم يفضلون الموت على تركها.

ثم إن الجبال معروفة بعقمها وضعف إمكانياتها، فالبربر الذين يعيشون بها يضطرون إلى زرع السفوح بالزيتون والعنب وغيرها من المحصولات الأخرى، كما أنه عادة ما يكون لهم اتصال مباشر بالمناطق السهلية، وفي حالة عدم توفر هذه الإمكانية فانهم يعانون كثيرا بسبب النقص الذي قد يحصل في المنتوجات الفلاحية الضرورية لعيشهم.

** اختلاف طريقة عيش أعراب ليبيا[1] عن أعراب مراكش :*

يجب كذلك أن تستبعد إمكانية انتقال الأعراب إلى صحراء ليبيا، لأن نمط العيش بهذه المناطق مختلف، بحيث يصعب على أعراب مراكش التأقلم معه ؛ فبصحراء ليبيا الأهالي لا يأكلون الخبز وذلك لعدم تعودهم على زرع القمح والشعير، ثم إن المياه قليلة جدا، وهكذا فإن الغذاء سواء بالنسبة للأشخاص أو الخيول ينحصر في حليب الجمال والتمر الذي يأتي به التجار من جهات أخرى. وإني لا أتصور أعراب سهول مراكش والذين تعودوا على الغلات الفلاحية الكثيرة التي تؤمن لهم ولخيلوهم كل ما يحتاجون إليه، ينتقلون إلى صحراء ليبيا، حيث يوجد خصاص في كل شيء، غير أنني لا أستبعد أن ينزح بعضهم إلى هناك، لكن الأغلبية الساحقة سيبقون في بلادهم، إذ سيواصلون زراعة الأراضي، وسوف يمنحون لجيوشنا سواء عن طواعية أو قسر المحاصيل الزراعية اللازمة وكذا الخيول، وذلك بطبيعة الحال بعد إخضاعهم لسلطتنا.

** الخطة التي يجب اتباعها لمحاربة المغاربة :*

إن المغاربة اعتادوا دائما على المواجهة المباشرة، حيث يرمون بكل ثقلهم في معركة واحدة، مغامرين بكل قواتهم، وإني أقترح أن تتم المواجهة معهم بطريقة مختلفة عما اعتادوا عليه، حيث على جلالتكم أن تأمروا قوادكم بتفادي الاشتباك المباشر معهم، ليس لأن فيه خطرا، ولكن لأنه ليس هناك سبب يدفع للقيام بذلك، حيث إن الخطة المثالية تتلخص في القيام من حين لآخر بهجومات عنيفة ضدهم وكأن الأمر يتعلق بمعاقبة متمرد ما.

إن الهدف الأول يتمثل كما سبقت الإشارة في السيطرة على مصادر المياه والتي توجد بجوارها أكثر الأراضي خصوبة، وإنه أثناء الاتجاه

---

(1) كما سبقت الإشارة إلى ذلك فالمقصود هنا، المنطقة التي ينتمي إليها بن أبي محلي وهي منطقة صاورة بالصحراء الجزائرية.

للسيطرة عليها، يجب أن يكون جيشنا في حالة انتظام كما يجب أن يتوفر على بعض قطع المدفعية ليستعملها ضد فرسان العدو إذا ما حاول هؤلاء احتلال منابع هذه المياه.

وبما أن أولئك البرابرة عندما يودون الدخول في اشتباك ما ينطلقون متفرقين ويبدؤون في التبجح والصياح بأصوات مرتفعة في طريقهم نحو مكان المعركة، فانه من غير المستحب إطلاق النار عليهم على مسافة بعيدة، لأن ذلك لن يصيبهم بأذى كبير، الشيء الذي قد يشجعهم على مواصلة التقدم، بخلاف ذلك، إذا ما أطلق عليهم الرصاص عند اقترابهم من المكان الذي ستدور فيه المعركة، فسيصابون بالذعر من هول المفاجأة وسيهمون بالفرار، ولن يتخلف منهم إلا من يستسلم أو يود تقديم الطاعة.

* *هذه الحملة على فوائدها سيتم القيام بها في مدة وجيزة :*

إنه بخلاف الحروب التي تقع هنا والتي تتطلب مصاريف كبيرة ومدة زمنية طويلة، فان غزو المغرب سيتم في فترة وجيزة قد تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر، كما أنه لن يكلف أية مصاريف، ذلك لأن تلك البلاد لا يوجد بها أي حصن قد تتوجب محاصرته، أو ممرات يجب السيطرة عليها، أو عدو قوي تلزم محاربته، كما أن الحصول على المؤونة لن يتطلب أي مجهود ذي أهمية.

وإنه بإمكان جلالتكم القيام بهذا الغزو دون أية مصاريف باستثناء تكاليف العتاد الحربي من خيام وأسلحة وأشياء أخرى شبيهة بذلك، أما أجور الجنود فيمكنكم أن تؤجلوا دفعها إلى ما بعد احتلال هذه البلاد. وإني أقدر تكاليف الحملة في 25.000 دوقة، هذا القدر يسخر في شراء ألف خيمة، على اعتبار خيمة لكل عشرين جنديا، بالإضافة إلى 100.000 دوقة وهي مصاريف بقية العتاد الحربي من أسلحة وغيرها.

** السرعة التي يمكن بها الحصول على الأموال المخصصة لأجور الجنود:*

وإذا ما تم الغزو فإنه باستطاعتي أن أجمع من القمح والشعير في مدة شهرين ما يكفي بعد بيعه لدفع أجور الجنود لمدة سنة، هذا المحصول يجب أن ينقل بأمر من جلالتكم إلى الموانئ بغية تسويقه.

** أهمية المحاصيل التي عند المغاربة :*

إن للأعراب والبربر كميات كبيرة جدا من القمح والشعير، وإنني أتذكر أنه عندما أقام المرابط أحمد بن عبدالله مخيمه بسفوح أحد الجبال، حمل له هؤلاء كهدية 100.000 غرارة من القمح والشعير (وزن كل واحدة ثلاث فنقات)، وقد وزعه المرابط على رجاله قصد بيعه، وكان ثمن غرارة من القمح ريالا واحدا ومن الشعير نصف ريال، ولو كان المرابط قد سمح ببيع هذه الحبوب إلى التجار المسيحيين لحصل على أموال كثيرة.

** الطريقة التي يمكن بواسطتها الاحتفاظ بهذه المملكة بعد السيطرة عليها :*

إن أحسن طريقة للاحتفاظ بهذه المملكة هو السيطرة على معابر الأنهار وممرات الجبال وغيرها من المواقع المهمة، وذلك بعد أخذ الخيول من الأعراب وإرغامهم على تسليم الخيام التي يعوضونها بأكواخ ومغارات يقيمون فيها إلى أن يقبلوا من تلقاء أنفسهم على بناء منازل. وإن بناء هذه المنازل ليس بالأمر الصعب، لأن البربر في الأطلس الكبير من كثرة المنازل التي شيدوا كونوا دواوير أصبحت مع مرور الوقت بمثابة قرى قائمة بذاتها.

إن تحقيق كل هذا سيسمح بالسيطرة وبسهولة كبيرة على أهالي هذه البلاد الذين لن يبدوا أية مقاومة، وذلك لأنهم أناس جبناء ومتعودون على كل أنواع العبودية.

** الطريقة التي كان مولاي أحمد يعامل بها الأعراب وشيوخهم :*

حرص مولاي أحمد على أن يعيش الأعراب في الحد الأقصى من الفقر والحاجة، واستثنى من ذلك فقط أعيانهم الذين عمل على إغداق الهبات عليهم، وكان قد احتفظ بهم إلى جانبه في مراكش ليكونوا بمثابة مفاتيح لقبائلهم. هذه السياسة سمحت له بحكم تلك البلاد لمدة عشرين سنة بنظام وانضباط كبيرين.

لكن بعد موته لم يعد أبناؤه يولون أي اهتمام لأعيان الأعراب، وبدل الهبات التي كان يقدمها هو لهم، أصبح الملوك الجدد يقومون بمعاقبة هؤلاء الشيوخ عقوبة تصل عادة إلى قطع الرؤوس. وقد أدى ذلك إلى تمرد الأعراب الذين لم يعودوا يدفعون الجبايات، واتجهوا إلى النهب وقطع الطرقات، ورغم محاولات هؤلاء الملوك تدارك الموقف وإصلاح ذات البين، فان الوقت كان قد فات، لأن شيوخ الأعراب والذين كانوا ينهون ويأمرون أتباعهم تمت إبادتهم. وبفضل ما قام به الأعراب من أعمال النهب حصلوا على الثروات التي كانت في الماضي من حق الملوك وكبار الأغنياء والذين أصبحوا يعانون من الفقر والفاقة.

** بطلان ادعاءات من يقول بصعوبة الانتصار على مملكة فاس :*

بعضهم يدعي أن غزو مملكة فاس لن يكون سهلا على اعتبار أن سكانها أكثر شجاعة وحماسا من أهل مملكة مراكش، لكنني أؤكد انطلاقا من تجربتي أن شجاعة الشراركة لا تختلف عن شجاعة الدجاج في شيء. وإني على كثرة المعارك التي حضرتها بهذه البلاد ، لم أر لا الشراركة ولا أهل مراكش ولا غيرهم من أهل هذه الممالك يقاتلون بإقدام وشجاعة كما يفعل أي جنود آخرين.

* *فداحة الخطأ الذي ارتكبه أهل فاس بمراكش :*

لما انهزم مولاي عبد الله للمرة الأولى أمام مولاي زيدان، التجأ الشراركة والفاسيون الذين كانوا معه وعددهم أربعة آلاف إلى القصبة، ورغم أنهم كانوا يتوفرون على المؤونة التي تكفيهم لعدة أيام، بالإضافة إلى الأسلحة الكافية التي تسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم ليواجهوا مولاي زيدان أو على الأقل للخروج من القصبة والاتجاه إلى مراكش، فانهم لم يجرؤوا على القيام بذلك على الرغم من أن مولاي زيدان لم يكن لديه العدد الكافي من الرجال لمهاجمتهم. وقد استسلموا في النهاية حيث لاقوا العقاب الذي يستحقونه والمتمثل في ذبحهم كلهم، وهذا ما يؤكد أنهم في جبنهم لا يختلفون عن اليهود في شيء.

* *فداحة الخطأ الذي ارتكبه أهل فاس في معركة أبي رقراق :*

وفي معركة أبي رقراق حدث نفس الشيء، حيث لم يجرؤ أهل فاس على إطلاق ولو رصاصة واحدة، كما أنهم في المعارك الكثيرة التي خاضوها لم يقوموا بأي شيء يستحق التنويه، وهذا يظهر مفصلا من خلال ما حكيته عن الحرب الأهلية بالمغرب. وإنه أمر طبيعي ألا يستفيد أناس دون أية تجربة عسكرية من الفرص التي تتاح لهم في ميدان القتال.

* *الطريقة التي يذهب بها جيش المغاربة إلى المعركة :*

إن الطريقة التي يذهب بها جيشهم إلى المعركة مختلفة تماما عن طريقتنا ؛ ففي البداية ينقل الأثاث دون أية حراسة، يتبعه المشاة الذين يتجهون لمكان المعركة بشكل عشوائي ودون أي انتظام، بعد ذلك نجد الموكب الملكي، وفي المؤخرة حملة الرايات والفرسان. وعند الوصول إلى المكان المخصص لإقامة المخيم يبدأ قرع الطبول والعزف على المزامير إلى أن يدخل الملك إلى خيامه.

** عدم وضع المغاربة لأية حراسة بخيامهم :*

إن المغاربة لا يقومون بتحصين معسكراتهم، كما لا يضعون بها أية حراسة سواء في النهار أو في الليل، وهكذا فبعد سقوط الظلام بساعة يتم قرع الطبول والعزف على المزامير لمدة ربع ساعة، يصيحون بعدها كلهم بصوت واحد ثلاث صيحات ثم يتجهون للنوم دون أن يتركوا أية حراسة، ولا يبقى مستيقظا إلا أولئك الذين لا يجرؤون على النوم خوفا من أن يتسلل إلى خيامهم من يقوم بسرقة خيولهم وملابسهم.

** الأعراب لصوص بطبعهم :*

إن الأعراب لصوص مهرة، ولذلك قد لا يترددون في سرقة حتى خيول ملوكهم. وإنهم يغتنمون غياب الحراسة من مخيمات هؤلاء ليتسللوا ليلا إلى الخيام وذلك بعد أن يتجردوا من ثيابهم، حيث يبقون عراة كما ولدتهم أمهاتهم، ويدهنون أجسادهم بالزيت بما فيه الكفاية ليتعذر الإمساك بها إذا ما أراد أحد القبض عليهم. وإنهم بعد تسللهم إلى الخيام يقومون بفسخ قيود الخيول بمهارة كبيرة، وما إن يمتطونها حتى تصبح ملكا لهم، حيث يستحيل آنذاك اللحاق بهم وإرغامهم على تركها، وبهذه الطريقة كان عدد الخيول الموجودة بالمخيمات يتناقص كل ليلة.

والحراسة بأي مخيم تنحصر في الجناح المخصص للنساء حيث يسهر عليه بعض الخصيان، وإن سبب حراسة هذا الجناح لا يرجع إلى الخوف من العدو، بل حفاظا على أعراض النساء.

** الأسباب التي تجعل مولاي زيدان لا يضع الحراسة ليلا بالمخيم :*

وقد كنت متخوفا جدا من أن يقوم العدو بمهاجمتنا ليلا والقضاء علينا بسبب انعدام الحراسة في مخيمنا، ولما حدثت مولاي زيدان بمخاوفي، طمأنني بدعوى أن المغاربة لا يعرفون القتال إلا بالنهار، وأن لهم قناعة أن

من يقاتل بالليل يكون قد ارتكب إثما وخيانة، وذلك لأن الله جعل الليل للاستراحة وليس للقتال.

** السهولة التي يمكن القضاء بها على المغاربة :*

على جلالتكم أن تتأكدوا من شيء واحد هو السهولة التي يمكن القضاء بها على ذلك الجيش المنعدم النظام، هذه الحقيقة قد يزكيها كل الذين لهم معرفة جيدة بتلك البلاد.

** الثروات التي توجد بمملكة المغرب وكيفية استفادة الجيش منها :*

إن مملكة المغرب تحتوي على خيرات كبيرة يمكنها أن تؤمن كل ما هو ضروري لجيش ما مهما كان عدد أفراده، ففي هذه البلاد توجد بجانب السهول الكثيرة الخصوبة أنهار كبيرة، هذه الأنهار غنية بالأسماك أساسا سمك الشابل. ولو أدرك أولئك البرابرة قيمة الثروات السمكية التي تزخر بها تلك الأنهار لتمكنوا من الحصول على أموال مهمة منها، ذلك أنه عندما كانت مدينة أزمور تابعة للبرتغال، كان ملوكها يحصلون سنويا على 40.000 دوقة تدفع لهم مقابل الترخيص بالصيد في نهر أزمور.

هذه البلاد يوجد بها كذلك العديد من الثروات الحيوانية الأخرى، والتي تعتبر ضرورية لتغذية الجنود، عن طريق تشريح اللحوم وادخارها لوقت الحاجة.

** اعتدال مناخ المغرب وتميزه بطابع صحي :*

إن هذه البلاد تتميز بمناخ صحي جدا، ففي فصل الصيف وما عدا بعض الاستثناءات النادرة التي ترتفع فيها الحرارة بشكل مفرط، فإن المناخ عادة ما يكون معتدلا، حيث تهب الرياح الرطبة، هذه الرياح هي التي تسبب بعض البرودة في الطقس بالليل، كما تؤدي إلى نزول ندى كثيف خلال الصباح، أما في فصل الشتاء فإن المناخ معتدل كذلك حيث لا يكون هناك برد إلا عند سقوط المطر.

** الوقت المناسب للقيام بالحملة :*

إن أحسن فترة للقيام بالحملة هي تلك الممتدة بين بداية شهر شتنبر ونهاية شهر ماي.

** كثرة العاطلين الموجودين بإسبانيا :*

لما اقترحت على جلالتكم أن يقوم بهذه الحملة عشرون ألف رجل لم أكن أعنى بأنه لا يمكن انجازها بعدد أقل من الرجال، وإنما ذلك راجع لما رأيته في إسبانيا من أعداد كبيرة من الفرسان العاطلين الذين ليس لهم من شغل غير التسكع بالشوارع، هؤلاء الفرسان يمكنهم بفضل غزو مملكة المغرب الخروج من وضعية البطالة التي يعيشونها.

** إرسال ثمانية آلاف رجل لتحصين المعمورة :*

وإذا كان جلالتكم ولتحصين ميناء واحد فقط هو المعمورة قد بعثتم بثمانية آلاف رجل، فإنه ليس بالكثير أن تبعثوا بعشرين ألفا لغزو كل بلاد البربر، خصوصا وأن إرسال هذا العدد الهام من الرجال سيعطي لا محالة فكرة واضحة عن عظمة وأهمية جلالتكم، وإني متأكد من أن الفائدة التي سيتم جنيها من وراء الحملة ستغطي كل المصاريف التي أنفقت عليها.

** امكانية القيام بالغزو بعدد أقل من الرجال :*

إن هذه الحملة يمكن إذا أراد جلالتكم أن تتم فقط بواسطة عشرة آلاف أو حتى خمسة آلاف رجل، كما يمكن القيام بها بعدد أقل من ذلك، وفي هذه الحالة يجب اتباع خطة مخالفة عن التي اقترحتها آنفا. لكن وجود عدد متواضع من الجنود لن يترك عند المغاربة الصدى والأثر الذي قد يتركه جيش مكون من عشرين ألف رجل، ذلك لأنه في هذه الحالة الأخيرة ما إن يشاهد المغاربة هذا الحشد الكبير من الجيوش حتى يصيبهم الذهول والفزع ويستسلموا دون مقاومة، وهو ما قد لا يحدث إذا ما كان عدد الرجال قليلا.

* *إنجاز هذا المشروع يتطلب جوابا سريعا وحاسما:*

إن المشاريع العظيمة عادة ما لا تتحقق بسهولة، غير أن مشروع غزو المغرب ليس كذلك، حيث لا توجد فيه أية مغامرة، وإن كل ما يتطلبه الأمر هو اتخاذ قرار حاسم وسريع، يتم بعده الاستعداد بشكل مكثف وشامل لتجنب أية خطورة ممكنة.

* *الأسباب التي تدفع للقيام بالغزو :*

وإني أعتبر أنه حتى ولو اعترضت الغزو صعوبة ما، فان كل شيء يهون في سبيل الله وفي سبيل جلالتكم والمسيحية أجمع، وإن رعاياكم سوف يكفيهم فخرا أنه في عهدهم قام ملكنا وسيدنا بغزو هذه الممالك وضمها إلى بلادهم، وبالتالي أخضع لسلطته من قاموا في الماضي بغزو إسبانيا وأذاقوها طعم العبودية. إنني أتمنى أن تكون تلك الذكرى حافزا لجلالتكم لاحتلال المغرب، كما أتمنى ألا تضيعوا هذه الفرصة الثمينة التي تتاح لكم اليوم،وهنا أرجو عدم الاستهانة بمعرفتي الكبيرة ببلاد المغرب، لأن هذه المعرفة لا يجب أن تضيع سدى، بل على جلالتكم الاستفادة منها لإنجاح ذلك الغزو.

* *الفوائد التي ستجنيها جلالتكم من غزو هذه الممالك :*

وباخضاع هذه الممالك لسلطة جلالتكم، ستحصلون سنويا على المداخيل التالية :

1 ـ المداخيل التي كان يحصل عليها مولاي أحمد هي : 5.695.681 دوقة ومصادرها مختلفة، نوردها هنا كما يلي :

أ ـ الأموال التي كان يدفعها الأعراب : هؤلاء لايمتلكون أصلا أي شبر من الأرض في مملكة المغرب، لأن كل ما يزرعونه من أراضٍ هو من حق الملك. وجريا على العادة في فاس ومراكش حيث كل من يزرع أراضي غيره ملزم بتسليم نصف المحصول لصاحب الأرض، فإنه بإمكان جلالتكم

إرغام الأعراب على تسليم نصف محاصيلهم سنويا، وسيمكنكم ذلك من مداخيل مهمة جدا. وحتى لو اكتفى جلالتكم بالعشور فقط وهو القدر الذي اعتاد الأعراب على تسليمه للملوك فانكم ستحصلون سنويا على ما قدره 3.000.000 دوقة.

ب ـ المداخيل التي يمكن تحصيلها من زراعة قصب السكر: في الوقت الحاضر توجد أراض صالحة لزراعة قصب السكر، تفوق من حيث المساحة أربع مرات تلك التي كانت متوفرة في عهد مولاي أحمد. وقد كان هذا الأخير يحصل من ريع قصب السكر سنويا على 2.000.000 أوقية من قطعة أربعة ريالات قشتالية. وإنه بامكان جلالتكم أن تحققوا من وراء قصب السكر مداخيل سنوية تصل إلى 1.000.000 دوقة.

ج ـ مداخيل ولاية درعة: في هذه الولاية توجد كميات كبيرة جدا من التمر، لدرجة أن الأهالي يقومون بإتلافه. وبإمكان جلالتكم أن تحصلوا على حوالي 200.000 قنطار، يتم نقلها إلى الموانئ البحرية حيث يأتي التجار لشرائها. وإنه بعد تغطية كل تكاليف النقل إلى الموانئ يبقى لجلالتكم من الربح الصافي ما قدره 1.000.000 دوقة.

بنفس هذه الولاية توجد كميات كبيرة من النيلة كما توجد أراض خصبة صالحة لمحصولات مختلفة. وكان التجار الهولنديون قد عرضوا على مولاي زيدان ما قدره 500.000 دوقة سنويا مقابل احتكارهم لمحصول النيلة، على شرط أن يقدم لهم الضمانات الكافية والمتمثلة أساسا في حماية ممتلكاتهم وعدم السماح لغيرهم ولمدة عشرين سنة بالاتجار في النيلة، وقد عاقت الاضطرابات التي كانت تعرفها هذه المملكة تنفيذ الاتفاق. وإن جلالتكم سيحصل سنويا من مداخيل النيلة الموجودة بدرعة على 500.000.دوقة.

د ـ مداخيل الملح : هذه المادة تؤخذ من ممالح تگداوست إلى ممالك الزنوج بتنبكت وغاو، ويمكن لجلالتكم أن تحصلوا منها على أرباح تقدر ب

500.000.دوقة. وللتذكير فقد تمكن مولاي أحمد بفضل الملح وغيره من السلع التي كان ينقلها التجار إلى ممالك الزنوج من المحصول على كميات كبيرة من الذهب.

هـ ـ الضرائب الملكية على بساتين مراكش وبقية جهات المملكة يمكن الحصول من ورائها على ما قدره 100.000 دوقة.

و ـ من المكوس المفروض على اللحوم يمكن الحصول على 200.000 دوقة.

ر ـ من الضرائب المفروضة على المراعى وتجارة الماشية يمكن الحصول على 600.000 دوقة.

إن المداخيل السالفة الذكر ستمكن جلالتكم مما مجموعه 12.095.681 دوقة. وإني أؤكد على أن الأرقام التي قدمتها ليست مجرد كلام في الهواء، وإنما تستند إلى أساس دقيق ومضبوط، وإذا كتب لكم غزو هذه الممالك وأمدني الله بالعمر، فسوف أسهر شخصيا على تنظيم هذه المداخيل.

2 ـ مصادر أخرى للرفع من مداخيل الممالك المغربية :

عندما سيصبح جلالتكم بحول الله ملكا على هذه الممالك، فانها ستعرف حركة وتنقلا أكبر للسكان، عند ذلك يمكنكم أن تطبقوا عليها نفس القوانين السارية هنا وتفرضوا عليها نفس الضرائب، وسوف يسمح لكم ذلك بمداخيل أخرى مهمة. إن هذه البلاد وبخلاف الهند الغربية، حيث مصاريف الملاحة مرتفعة جدا، لن تكلف شيئا، وذلك لقرب المسافة، وهنا يمكن الاستفادة من هذا العامل لضمها إلى مملكتكم مما قد يزيد من سمعة جلالتكم، وفي نفس الوقت من خوف وفزع غيركم من الأمراء والحكام.

إنه ليس من الغرابة في شيء أن يقوم ملوك إسبانيا السابقون بغزو البلدان البعيدة بينما يتركون بلدا مجاورا لهم، ذلك لأن بلاد البربر لم تعرف

في الماضي حالة من الخراب مثل التي هي عليها اليوم، وبذلك لم تتح لملوك إسبانيا أبدا فرصة مثل التي تتاح لجلالتكم، وإنها لحكمة ربانية أن تنهار قوة أولئك البرابرة بهذا الشكل.

** الطريقة المثلى لإرغام الأعراب على الالتزام بدفع الضرائب :*

وإذا لم يرغب جلالتكم في القيام بالحملة، فان أنسب شيء يجب إنجازه هو احتلال مدينة آسفي وبناء حصن في موگادور على ضفة النهر. ذلك لأن الأعراب والذين اعتادوا أن يؤموا الموانئ البحرية من أجل التعامل التجاري، سيجدون أنفسهم ومن أجل ضمان استمرارية تعاملهم مع ميناءي موگادور وآسفي مرغمين للخضوع وأداء الضرائب بانتظام، وسوف يتمكن جلالتكم بواسطة هذه الضرائب وتلك المفروضة على استغلال صيد الأسماك من الحصول سنويا على ما يقارب 800.000 دوقة. وللتذكير فانه لما كان ملوك البرتغال يحتلون مدينتي آسفي وأزمور، أرغموا أعراب دكالة وحاحا على دفع الضرائب لهم، وذلك في وقت كان المغرب يتوفر على قوة وسلطة، فكيف اليوم وهؤلاء الملوك ليست بيدهم أية سلطة.

** أطلب من جلالتكم أن تمنحوني ألف رجل وست بواخر :*

إن أولئك الأعراب وشيوخهم يعرفونني معرفة جيدة جدا، كما أني أعرف الطريقة المثلى التي يجب اتباعها معهم لجعلهم يدينون بالولاء لجلالتكم. وإني أحتاج لتحقيق ذلك إلى ألف رجل وست بواخر فقط، وبما أن البواخر متوفرة حيث ترسو حاليا بموانئ إسبانيا، فأتمنى أن ترخصوا لها بإنجاز هذه المهمة، والتي ستسمح لجلالتكم بأخذ فكرة واضحة عن بلاد المغرب وما يمكن تحقيقه فيها. وإذا تبين لجلالتكم عدم صدق ما رويته عنها، يمكنكم أن تعاقبوني بالطريقة التي ترونها مناسبة.

** أطلب من جلالتكم أن تمنحوني حمايتكم الملكية :*

وإذا كان جلالتكم يعتقد أنني لن أستطيع تحقيق شيء اعتمادا على

ما طلبته من امدادات والمتمثلة في ألف رجل وست بواخر، فاني مستعد لأثبت العكس، وكل ما أطلبه من جلالتكم هو أن تمكنوني من هذه الامدادات مع حمايتكم الملكية والترخيص لي باستعمال مهاراتي ضد المغاربة، وسترون كيف أنه اعتمادا على مساعدة بعض أصدقائي سوف أحقق النجاح المتوخى.

أما إذا لم تكن لجلالتكم رغبة في القيام بهذه الحملة، فاني أرجو منكم أن تمنحوني ترخيصا لأقوم بالحملة لحسابي، وإني أعدكم أنه بعد أن استغل بلاد المغرب لمدة سنتين لحسابي الخاص، أقوم بتسليم جلالتكم كل القلاع، سواء تلك التي كانت تحت سلطتكم قبل الغزو أو التي قمت أنا باخضاعها.

ـ الخدمات التي أسديتها لجلالتكم

** كنت محقا عندما اقترحت تحصين المعمورة :*

قد يظهر للبعض أن كل ما اقترحته على جلالتكم في شأن غزو الممالك المغربية ليس من الأهمية في شيء، وأنه لا يخدم مصالح جلالتكم، لكنني متأكد من فائدته حيث إنه لا يقل أهمية عن الاقتراح الذي كنت قد قدمته لمجلس الدولة في شأن تحصين المعمورة.

إن المشروع الذي أقدمه وإن لم يلاق الاهتمام الذي يستحقه في الوقت الحاضر، فاني لن أتوقف أبدا عن المطالبة بإنجازه، وأنا متأكد أنه سيجد في النهاية الرضى والقبول المتوخى.

** أهمية مساندة هذا المشروع الذي أهدف من ورائه إلى خدمتكم :*

وإذا كان المشروع الذي اقترحه لم يلق إلى الآن الاهتمام الذي يستحقه، فذلك راجع إلى كون مجلس الدولة لم يعره أي اهتمام خصوصا

وأن هذا المجلس لم يستمع إلي ولا إلى اقتراحاتي، وإنني مستعد لأقدم له الأجوبة المقنعة في كل ما يود مناقشته معي. وعلى الرغم من افتقادي لأي دعم أو نفوذ، فاني أطلب من الله أن يظهر صحة أقوالي ونبل قصدي، وأنه ليست لي أية رغبة في مجد شخصي، وأن كل ما أصبو إليه هو خدمة جلالتكم.

* *مقارنة بين اقتراحي واقتراح دون خوليان :*

إن الأعراب نادرا جدا ما يصيبون الهدف، وإن إحدى المرات القليلة التي نجحوا في تحقيق ذلك، كانت عندما اقترح عليهم الكونت خوليان غزو إسبانيا، وكان ذلك خلال أزهى مراحل حكم القوط. وإن أولئك الأعراب لم يفكروا قط في الخيانة التي كان يرتكبها خوليان ضد سيده، وإنما انصب تفكيرهم على المجد والجاه الذي سيحققونه عند قيامهم بالغزو.

وقد قاموا في البداية بعمليات استطلاعية، حيث بعثوا عددا محدودا من الرجال، وذلك بغية التأكد من صحة أقوال خوليان، وبعد التيقن من ذلك أرسلوا كل قواتهم لغزو إسبانيا وقد نجحوا في سعيهم.

إنني أعتقد أنه حان الوقت لرد الاعتبار والقيام بغزو بلادهم، وأنه بتحقيقنا ذلك نكون قد أرغمناهم على أن يدفعوا لنا بنفس العملة.

بالنسبة لي، ما كنت لألح في المطالبة بالغزو لولا إحساسي بأني أحد رعاياكم الأوفياء، وحتى ولو كنت مجرد مغامر مجنون يقترح مشاريع خطيرة، فاني أظن أنه يجب التأكد من مدى صحة هذه الاقتراحات قبل أن يتم رفضها، خصوصا وأن ذلك لن يكلف إلا اليسير. وإنني على وعي تام بما أقوله، فلست بمتهور لدرجة أغامر فيها بحياتي وشرفي وهي أشياء لا يمكن أن تعوض أبدا بعد فقدانها، وهنا أكرر من جديد أن الدافع الوحيد الذي يحركني هو الرغبة الأكيدة في خدمة جلالتكم.

** أرجو من جلالتكم أن تأمروا بالاطلاع على تقاريري :*

إنني أتوسل إلى جلالتكم أن تأمروا بأن يتم الاطلاع على التقارير التي قدمتها في هذا الشأن وذلك بدقة وتمحيص، وكم أتمنى أن يعين أشخاص يتفرغون لها بشكل كلي، وأنا على كامل الاستعداد لأقدم البراهين الشافية حول كل موضوع لم يقتنعوا به.

وإنني أعود لأأكد على أهمية قراءة هذه التقارير بعمق وتأن، وذلك لأنه في حالة ما إذا قرئت بسطحية فأنا أعرف مسبقا أنه لن يتم الوصول إلى أي قرار حاسم بشأنها. وكم أتمنى أن ينجز ذلك في أسرع وقت، لأنه وعلى الرغم مما أتميز به من صبر وقدرة على الانتظار، فان الأعمار بيد الله، ولا أحد يستطيع التحكم في أجله.

** أقدم شكواي لجلالتكم لعدم الاهتمام بأموري :*

وقد حدثت في الاسكوريال دون *خوان إيدياكيث Don. Juan y* Diaquez. حول أموري هاته، فأجابني أنه بمناسبة تحصين المعمورة، يمكنني أن أعيد عرض مقترحاتي من جديد، عند ذلك أرسلت تقريرا مقتضبا إلى جلالتكم أوضحت فيه أن لي أراء ومعلومات كثيرة تفيد تحصين المعمورة. وقد أحال جلالتكم هذا التقرير على المجلس الحربي، وبعد ثلاثة أسابيع من تاريخ إرساله، استدعاني سكرتير هذا المجلس وأخبرني بأنه لا يوجد أي موضوع أو سبب يدفع بالمجلس للاستماع إلي. وقد استغربت كثيرا من هذا التصرف الذي يقف حجر عثرة أمام تزويد المجلس بمعلومات قيمة قد لا يكون على علم بها.

هذا الرد المؤسف دفعني إلى تقديم شكوى للدوق الأميري الذي أعطيته فكرة موجزة عن المشاريع التي اقترحها، وقد سلمني رسالة موجهة إلى السكرتير السابق الذكر، يحثه فيها على الاطلاع بكل تفصيل على ما اقترحه من مشاريع، ليقوم بنقلها إلى المجلس الحربي من أجل اتخاذ قرار

في شأنها، وذلك على اعتبار أنها مفيدة لجلالتكم، هذا الإجراء خفف نوعا ما من أسفي. إثر ذلك ذهبت عند السكرتير والذي سلمته الرسالة مع بعض الوثائق المتعلقة بالمشاريع التي اقترحها. وقد هنأني ووعدني باحالة الموضوع على المجلس الحربي. وبعد بضعة أيام رجعت لألتقي به من جديد، حيث أخبرني بأنه سلم الوثائق التي منحته إلى المجلس المذكور، ومنذ ذلك التاريخ وأنا أتردد يوميا على هذا المجلس، وقد مرت لحد الآن ثلاثة أشهر لم أتلق فيها أي جواب بعد.

** الأسباب التي دفعتني لكتابة هذا التقرير :*

ولما كان سكرتير المجلس الحربي مشغولا جدا، فإن الوقت الذي خصصه لي لم يكن كافيا لشرح كل مشاريعي، وبما أن هذه المشاريع تستحق لخطورتها اهتماما خاصا، قررت أن أبعث بهذا التقرير المفصل إلى جلالتكم، وقد استندت في ذلك على وثائق بحوزتي. وإذا وجد جلالتكم بعض الفائدة في هذا التقرير فاني أكون قد حققت ما أطمح إليه.

وإن اللغة التي استعملها ليست من السمو والرفعة لتليق بخطاب موجه لجلالتكم، لكن ثقتي بحكمتكم ورضائكم أقنعتني بأنكم لن تعيروا اهتماما كبيرا لذلك، وأنكم ستتفهمون كيف أن السنوات الطويلة التي قضيتها بين البرابرة لم تسمح لي بتعلم شيء ذي أهمية، وإني أرجو من الله أن يمن عليكم ووزرائكم بكل ما هو مفيد نافع.

** ما قمت به لاقنع مولاي زيدان بعدم تسليم العرائش للهولنديين :*

لما كنت في بلاد البربر حاول الهولنديون وضع قواتهم بالعرائش، وقد كانوا على وشك تحقيق هدفهم حيث إن القوات التي كانوا ينوون وضعها بهذه المدينة جاءت إلى ميناء آسفي. وكان الهولنديون يذكرون مولاي زيدان باستمرار بأن مولاي الشيخ الموجود في إسبانيا هو بصدد التفاوض مع الإسبان لتسليم العرائش إذا ما عاد إلى مملكة فاس، وكانوا على وشك

النجاح في إقناعه بتسليمها لهم لولا المجهودات التي بذلتها لثنيه عن ذلك.

** ما قمت به من أجل إعاقة مساعي الهولنديين لتحصين المعمورة :*

غير أن الخدمة التي قدمتها لجلالتكم بشأن المعمورة تعد أهم من قضية العرائش، ذلك أن مولاي زيدان كان قد اتفق مع الهولنديين من أجل قيامهم بتحصينها، غير أني استطعت إقناعه بنقض وعده، حيث بدأ يماطلهم في شأن المشروع إلى أن صرفوا النظر عنه.

** ما قمت به من أجل إعاقة قيام الموركسيين عن مهاجمة أرباض مالقا :*

وكان *صامويل* بلاشي وهو مبعوث الولايات العامة الهولندية إلى مولاي زيدان قد اقترح على هذا الأخير أن يقوم برفقة مجموعة من المورسكيين الذين طردوا من إسبانيا بقيادة ثمان بواخر على ظهرها ألفان من أصحاب البنادق ليهاجموا ليلا منطقة *برشيلس* بأرباض مالقا، وبين له أهمية الغنائم التي يمكن الظفر بها وكذا العدد الهام من الأسرى الذي يمكن إلقاء القبض عليهم من خلال هذه العملية، لكنني نجحت هذه المرة كذلك في إفشال المحاولة، حيث وضحت لمولاي زيدان خطورة عواقبها وكيف أن ذلك سيدفع ملك إسبانيا الذي له قوة وجبروت كبيران للانتقام.

** ما قمت به لإقناع مولاي زيدان ليصرف النظر عن استقدام ستة آلاف جندي هولندي :*

ولما تبين لمولاي زيدان أنه لا يستطيع الحفاظ على مملكة المغرب اعتمادا على المغاربة فقط، أرسل في طلب ستة آلاف جندي هولندي، لكنني وبفضل التعليلات الكثيرة التي ذكرتها له بشأن العواقب السلبية لوجود الهولنديين ببلاده غير رأيه وأرسل يأمر السفير الذي كان قد بعثه إلى هولندا لذلك الغرض بإلغاء المشروع.

** ما قمت به لاقناع مولاي زيدان بعدم استقدام جنود أتراك إلى بلاد البربر:*

وكان مولاي زيدان قد أرسل سفيرا له إلى القسطنطينة قصد تقديم الشكاوى ضد مولاي الشيخ الذي سلم العرائش للمسيحيين، وكذا طلب خمسة آلاف جندي تركي، يستفيد منهم بجانب المغاربة والهولنديين الذين بعث لاستقدامهم، في محاصرة العرائش. وكان المسمى *جان فيليب دي كستلان* والذي ادعى أنه سفير فرنسا ومبعوث ملكها لدى مولاي زيدان، يحث هذا الأخير على محاصرة العرائش، مؤكدا له بأنه من جهته سيأتي بالكثير من الجنود الفرنسيين ليشاركوا في الحصار، وكان قد طلب منه كذلك السماح له بمرافقة سفيره إلى القسطنطينية بدعوى أن وجوده ضمن السفارة سيساهم في إنجاحها.

وقد وضحت لمولاي زيدان أنني تعرفت على *جان فيليب* هذا في القسطنطينية وأنه ليس أكثر من مخادع كاذب، حيث كل ما يدعيه هو مجرد أباطيل. في نفس الوقت حذرته من الامبراطور التركي، ومن الخطر الذي يمكن أن يأتيه من جهته وكيف أنه بامكانه احتلال مملكته بنفس الطريقة التي احتل بها غيرها من الممالك. وأضفت إلى ذلك تسويغات كثيرة أخرى جعلت مولاي زيدان يتراجع عن قراره بشأن إرسال تلك السفارة إلى القسطنطينية على الرغم من أنه كان قد دفع الأجور لمن سيقومون بها وهيأ الهدايا التي كان ينوي إرسالها للإمبراطور.

** الأسباب التي دفعتني إلى حث مولاي زيدان على التراجع عن تنفيذ تلك القرارات :*

وقد سعيت لحث مولاي زيدان على التراجع عن تلك القرارات، لما تبين لي أنها في غير صالح جلالتكم. ومنذ ذلك الوقت بدأت أفكر بأنه إذا ما كتب الله لي العودة إلى البلاد المسيحية، فانني سآتي عندكم لأخبركم بكل هذا، وبسهولة احتلال بلاد البربر بالنسبة لملك عظيم مثلكم.

** لقد أقرضت في بلاد البربر 000. 64 دوقة لبعض الأشخاص:*

وإني أعتبر خروجي سالما من بلاد البربر بمثابة معجزة وسر إلهي أراد الرب أن يحقق به عملا ما، ذلك لأنني كنت مدينا لملك المغرب ب 40.000 دوقة وهي قيمة فدية أسيرين برتغاليين هما *انطونيو دي سالدانا Antonio de saldana* و *بيدرو ثيسار ديثة Pedro cesar Deça*. كنت توسطت لهما عند مولاي أبي فارس ليطلق سراحهما، والتزمت بتولي تسديد أمر ذلك القدر من المال. وقد وعدني هذان الشخصان اللذان رحلا إلى البرتغال، بأنهما سيوافياني بالمال المعلوم في ظرف سنة، لكنني لحد الآن لم أتلق منهما ولو ريالا واحدا، وإني لا أستبعد أن يكونا قد دفعا ذلك المال إلى شخص كنت قد طلبت منه أخذه منهما، لكن هذا الشخص يقول إنه لم يتلق منهما شيئا.

كما أنني تعهدت بأن أدفع لمولاي أبي فارس فدية أشخاص آخرين وقدرها 000. 24 دوقة مقابل إطلاق سراحهم، لكن هؤلاء عند عودتهم إلى بلادهم لم يرسلوا إلي المال المذكور، وهكذا أصبحت مجبرا علي دفع ما مجموعه 000. 64 دوقة لم أكن أملك منها شيئا. لذا كنت أعتقد أن حياتي ببلاد البربر سوف تنتهي بكارثة، لكن عناية الإله كانت معي، حيث قدر لي أن أخدم ملوك تلك البلاد في أمور هامة وخطيرة سمحت لي بالحصول على أموال كثيرة، تمكنت بواسطتها من دفع كل الديون المترتبة علي، كما تثبت ذلك إيصالات الأداءات التي استلمتها من أولئك الملوك. ولو لم يكن المرابط قاسيا معي حيث حرمني من كل أموالي ولم يترك لي غير ستة آلاف دوقة، لكنت قد حملت معي إلى إسبانيا ثروات كثيرة كانت لا محالة ستساهم في إعطاء بريق وجاه كبيرين لشخصي.

وبما أنني لم أكن أفكر إلا بشيء واحد هو النجاة بنفسي والخروج سالما من بلاد البربر، فلم أنشغل كثيرا بأمر تلك الأموال، وحتى القليل منها الذي بقي معي منعني المغاربة من إخراجه من بلادهم، مما دفعني

لاستعماله في فدية خمسة أسرى إسبان كلفتني 1963 دوقة و7 ريالات، هذا الرقم يثبته الايصال الذي سلم لي بمالقا حين نزلت مع أولئك الأسرى والذين أقروا بذلك.

وكنت اعتقد أنه بفديتي لهؤلاء أكون قد أسديت خدمة لله ولجلالتكم، والذي سيأمر أن أعوض عما أنفقته من الميزانية المخصصة لفدية الأسرى، لكن لحد الآن لم أتوصل بشيء، كما لم أحصل على أي تشريف مقابل الخدمات التي أسديتها لجلالتكم والتي أظن أنها على قدر ما من الأهمية.

وبما أنني في بلاد البربر كنت أظهر بعضا من الود الذي أكنه لجلالتكم، فقد لحقني بسبب ذلك الكثير من الأذى لدرجة أن مولاي زيدان كان قد أمر بقطع رأسي، ولولا تدخل أمه الملكة لما حصلت أبدا على العفو.

وبالرغم من أنه كان بامكاني الرحيل إلى بلادي لأستريح بين أهلي، أو إلى أي مكان آخر من هذا العالم حيث أجد من يحيطني بالعناية والكرم اللازمين، فقد استصغرت كل ذلك، وفضلت المجيء مباشرة إلى هذا البلاط، حتى أقدم لجلالتكم نفسي وأعبر لكم عن كامل استعدادي لوضع تجربتي رهن إشارتكم، لكن ورغم أنه مرت سنتان على وصولي إلى بلاطكم لم أحظ إلى الآن بامتنان ورضى جلالتكم.

* *أطلب من جلالتكم أن تكلفوني بعمل ما :*

وإني أرجو من جلالتكم أن تجدوا لي أي عمل في هذا البلاط حتى وإن لم تكن له علاقة مباشرة بتجربتي التي حصلت عليها بفضل جهدي وعملي الكثير، وذلك في انتظار تكليفي بالمهمة التي أصبو إليها، أو شيء آخر يعود بالفائدة على جلالتكم.

* *أطلب أن يمنح لي شغل بجوار سيدي الأمير :*

وإذا أراد جلالتكم أن ينعم علي بإحدى هباته، وذلك اعتبارا لوفائي الكبير له، فاني سأكون سعيدا جدا بمنصب يسمح لي بالعمل بجوار نجلكم

سيدي الأمير، وسوف أؤدي عملي بكل إخلاص، وأنا متأكد من أن جلالتكم لن يندم أبدا على تعييني بذلك المنصب. وإن لي القناعة بقدرتي على تقديم بعض التسلية لصاحب السمو خلال وقت فراغه، ذلك أنه بالإضافة إلى معرفتي باللغات الاسبانية والايطالية والفرنسية والألمانية والانجليزية والعربية ومبادئ من عدد من اللغات الأخرى، أستطيع أن أحكي له الكثير من الأخبار عن الممالك الغريبة التي عشت بها ودرست طريقة الحكم ونظام الجيش عندها.

كما أن لي معلومات في الهندسة العسكرية، حيث بامكاني وضع تصاميم لبناء القلاع وتحصينها. وإنه بفضل تجوالي في جهات مختلفة من العالم شاهدت أشكالا وأنواعا مختلفة من المنازل، وبمقدوري أن أضع تصاميم خاصة بمنازل الاستحمام وكذا ابتكارات جديدة في تصريف المياه، وفي اعتقادي أن كل هذه أمور مفيدة ومسلية للأمير.

وإن لي كذلك معلومات في فن الفروسية، وفي تنظيم الاحتفالات بطريقة جديدة، خصوصا تلك المتعلقة بمشاركة الأمير في المهرجانات الرياضية، هذا بجانب معرفتي بأمور الأناقة، وكذا الهدايا التي يجب أن تكون في حوزة أي أمير.

أعرف كذلك الكثير من أسرار الطبيعة مثل استعمال مهارة خاصة لتكسير القيود الحديدية باليد فقط مهما كان سمكها، وتضميد جراح طعنات الرماح بواسطة قطع الكتان الخشن، بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة أمر عن ذكرها تفاديا للإطالة.

** اعتماد الملوك عادة على الرجال ذوي التجربة :*

أما إذا كلفني جلالتكم بالمأموريات الهامة، فسوف تظهر لكم كفاءتي وقدرتي على القيام بها على أحسن وجه، وإن الملوك عادة ما يعتمدون في أمورهم على الرجال المجربين والعارفين بأمور العالم. لكنني في نهاية

المطاف على استعداد لأعمل ولو كمروض في اصطبل جلالتكم على الذهاب للعمل مع ملوك غرباء مهما أغدقوا علي من الهبات كمافعلوا في مناسبات عديدة وبجهات مختلفة من العالم.

وإذا كان الكثيرون ممن جاءوا من بلاد البربر، قد وجدوا عند جلالتكم ما كانوا يبحثون عنه، بمن في ذلك العلوج واليهود الذين اعتنقوا المسيحية، فلا أظن بأنني أقل منهم، أو أنني ارتكبت خطأ ما في الحفاظ على ديانتي المسيحية، رغم المحاولات الكثيرة لملوك المسلمين بالترغيب والترهيب لأجل إقناعي باعتناق الإسلام، تلك المحاولات التي دامت اثنتي عشرة سنة، أربعا منها في تركيا وثمانا بافريقيا.

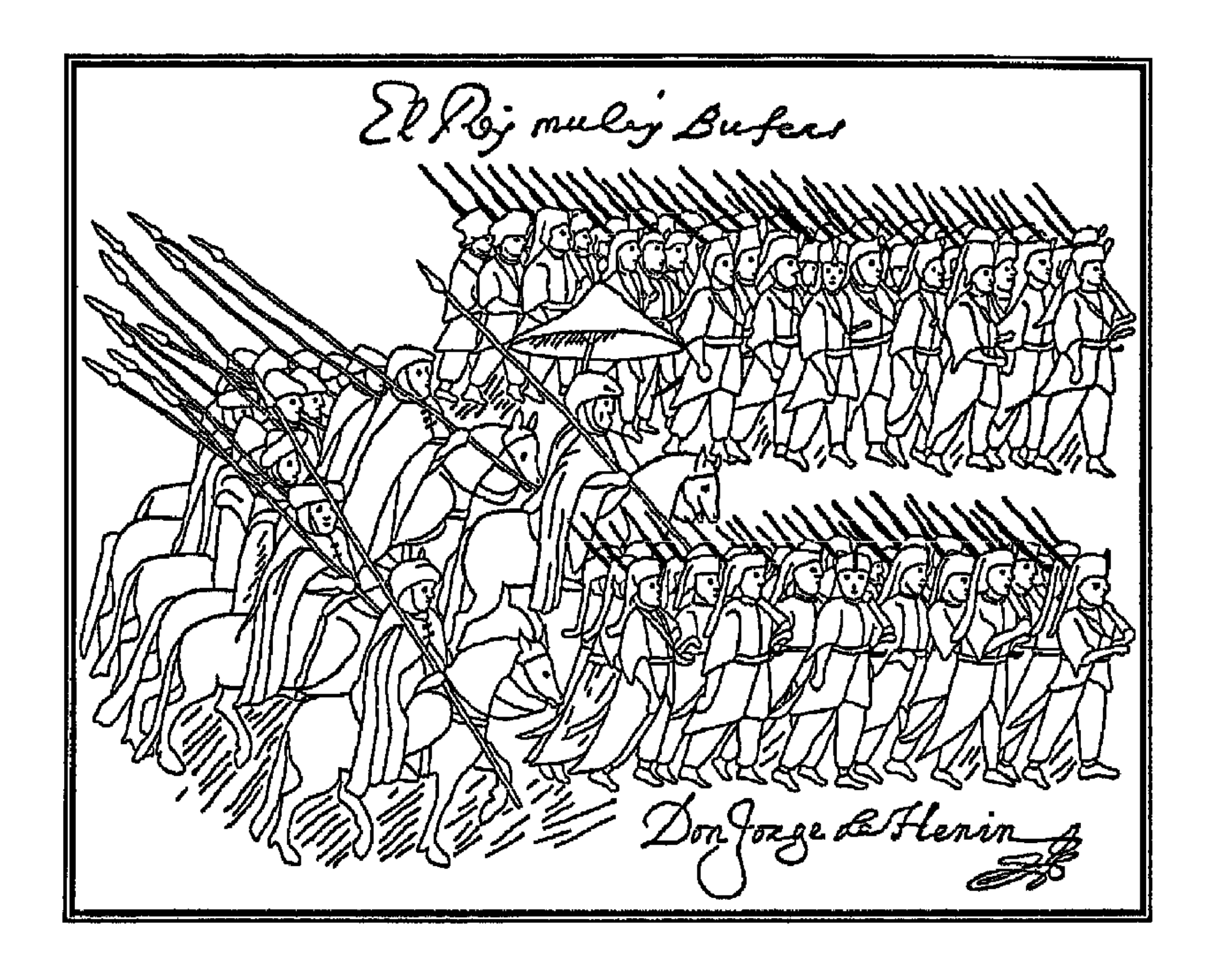
** أرجو أن يدفعوا لي الأموال التي أنفقتها على الأسرى:*

أنا لا أتباهى بالخدمات التي أسديتها لجلالتكم، ولا التي بإمكاني القيام بها في المستقبل. إن ما يدفعني للكلام عن كل هذا هو إيماني برحمة وسخاء جلالتكم، وإني أتوسل إلى جنابكم أن تصدروا أوامركم لتمنح لي النقود التي انفقتها في فدية خمسة أسرى إسبان.

وفي انتظار جوابكم الذي أتمنى أن يكون سريعا وإيجابيا، أرجو من الله أن يمن على جلالتكم بالهناء وطول العمر.

حفظكم الله.

توقيع: خورخي دي هنين


El Rej muley Bufers
Don Jorge de Henin

فهرس الأعلام

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

فهرس المواد

الفصل السادس : الأحداث التي عرفتها الممالك المغربية

الجزء الرابع : الأسباب الداعية للقيام بغزو الممالك المغربية


مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

